التذكار

فيمن ملك طرابلس وما كان بها من أخبار

تأليف المؤرّخ
أبي عبد الله محمّد بن خليل
غلبون الطرابلسي المعروف: ابن غلبون
(المتوفى ـ ١١٥٠هـ)

تحقيق
أيمن البحيري

مؤسسة الكتب الثقافية

ملتزم الطبع والنشر والتوزيع
مؤسسة الكتب الثقافية فقط

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

مؤسسة الكتب الثقافية

الصنائع . بناية الاتحاد الوطني . الطابق السابع . شقة ٧٨
هاتف المكتب : ٧٣٩٢٥٠-٧٣٩٢٥٨
خليوي : ٠٣/٨١٠٥٦١
ص.ب : ١١٤/٥١١٥ - برقيا : الكتبكو
بيروت - لبنان

الإهـــداء

نهدي هذا العمل خالصاً لوجه الله تعالى
عسى أن يثقل به كفة الميزان يوم
القيامة، ثم للأمة الإسلامية بوجه
عام وللشعب الليبي بوجه خاص،
وذلك بعد أن باتت الأمة لا
تعلم عن تاريخها إلا ما
كتب ورسم لها، بعقل
غير عقلها، وخط غير
خطها، وإلى الله
المشتكى

الناشر

ترجمة المؤلف[1]

هو عبد الله محمد بن خليل بن غلبون الطرابلسي المصراتي. ولد في مصراته في ليبيا. . .

ارتحل إلى مصر ودرس في الأزهر ورجع إلى بلده مصراته سنة (١١٣٢ هـ) فدرس في بلاده علم التفسير والفقه والحديث بالإضافة إلى اهتمامه بالتاريخ. . . فأصبح من مؤرخي عصره. . .

ـ كان رحمه الله تعالى عنيفاً على أهل البدع ـ وله معهم مناظرات صنف العديد من الكتب والأخبار ومن أشهر تصانيفه كتابنا هذا **«التذكار فيمن ملك طرابلس، وما كان بها من الأخبار»** ويسمى أيضاً **«تاريخ طرابلس الغرب»**.

عاش في مصراته وتوفي بها على الأرجح عام (١١٥٠ هـ ـ ١٧٣٧ م).

---

(١) راجع معجم المؤلفين (جـ ٩/ ٢٩١) والإعلام (جـ ٦/ ١١٧).

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين نحمده حمد الشاكرين ونستغفره استغفار التائبين، عسى أن يجعلنا من الأوابين.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أجمعين.

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أما بعد فالحمد لله الذي أنعم على المسلمين بأن جعل فيهم من يحفظ لهم تاريخهم، ويدون فيه أمجادهم وأزماتهم ليكون عبرة لهم قبل أن يكون نبراساً للأمم من بعدهم، وإن كل بقعة من الأرض وطأها المسلمون بأقدامهم يحق لها أن تدون في سجل التاريخ ليشهد الثقلان بما للمسلمين عليها من فضل ينقش في عقول أبنائها.

وهذه طرابلس بقعة من بقاع البسيطة أنعم الله عليها بالإسلام وجعلها ربعاً من ربوعه عامرة به وبالمسلمين.

طرابلس ككلمة ينطق بها الطرابلسيون «طرابُلُس» و «طرابُلْس» و «أطْرَابُلُس» ـ بهمزة قبل الطاء وبضم الباء واللام ـ وهذا هو الاسم العربي الصحيح الذي جاء في جواب عمرو بن العاص.

أطرابلس: مدينة فينيقية احتلها القرطاجيون سنة (٨٤٦ ق. م) وقيل إنها أنشئت في عهد قرطاجة، وهي أحد المراكز الفينيقية الأربعة التي أنشأها الفينيقيون على الساحل الشمالي لأفريقية، وكانت تسمى «أويا» كما في دائرة المعارف الإيطالية.

واستمرت تابعة لقرطاجة إلى أن احتلها الرومان سنة (١٠٦ ق. م) فأصبحت أطرابلس تابعة للروم ومحطاً لسفنهم إلى أن استولى جنسريك ملك الفاندال على قرطاجنة، واستولى على كل مستعمرات الروم، وصارت أطرابلس تابعة للفاندال إلى سنة (٥٣٣ م)، وفي هذا التاريخ احتل القائد البيزنطي بيليساريوس قرطاجنة واسترد جميع البلاد التي كانت تابعة للفاندال.

إلى أن تشرفت إفريقية بالفتح الإسلامي، وقد دخل جيش المسلمين أفريقية فاتحاً زمن الفاروق عمر بن الخطاب، وافتتح برقة سنة (٢١ هـ) ومنها توجه عقبة بن نافع إلى زويلة ففتحها سنة (٢٢ هـ)، وتوجه بسر بن أرطأة إلى ودان ففتحها سنة (٢٣ هـ)، وسار عمرو بن العاص بعد فتح برقة إلى طرابلس ففتحها بحمد الله سنة (٢٢ هـ)، وسار إلى مدينة سيرت ففتحها عنوة، وسار إلى مدينة نفوسة ففتحها.

ولما فتح عمرو بن العاص طرابلس كتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في التوغل إلى أفريقية، كتب يقول:

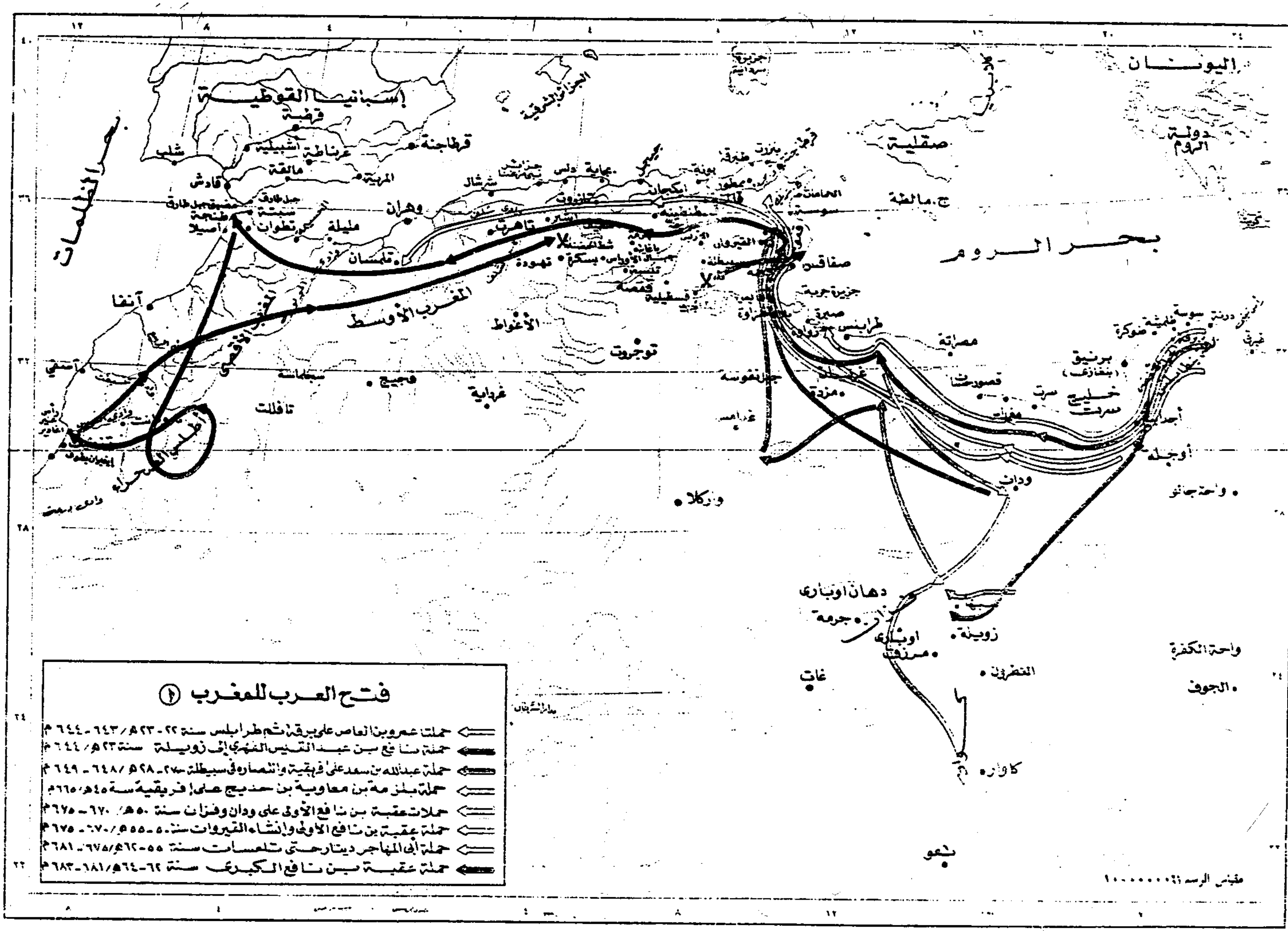
«إن الله قد فتح علينا أطرابلس وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل». فكتب إليه عمر:

«لا إنها ليست إفريقية، إنها المفرّقة، غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت».

وفي خلافة عثمان بن عفان ـ رضي الله تعالى عنه ـ بعث إليها عبد الله بن أبي السرح سنة (٢٦ هـ) فأوقعوا بجيش الروم في أطرابلس ولم يقدروا على التوغل في إفريقية، فأمده عثمان بن عفان بجيش من المدينة وفيهم جمع من الصحابة فدخلوا إفريقية، وقتلوا جرجير ملك سبيطلة، وكان النصر للمسلمين [انظر الخريطة].

وكتابنا هذا تأليف الأستاذ المؤرخ أبو عبد الله محمد بن خليل غلبون الطرابلسي اشتمل على ما وصل إلى علم المؤلف مما يتعلق بطرابلس من أخبار وما تعاقبت عليها من دول إسلامية وغيرها، وما وقع فيها من ثورات وحروب منذ الفتح الإسلامي إلى حكم القرمانلي.

وترجم فيه الكثير من العلماء الطرابلسيين الأصل ومن كان مستقر فيها. وهو شرح لقصيدة الأستاذ الفاضل الأديب أحمد بن عبد الدائم الطرابلسي التي نظمها مدحاً لأطرابلس ورداً على العبدي الذي تعرض في رحلته لأطرابلس بما لا يتفق مع الحقيقة.


فتح العرب للمغرب ①
حملات عمرو بن العاص على برقة ثم طرابلس سنة ٢٢-٢٣هـ/٦٤٣-٦٤٤م
حملة نافع بن عبد القيس الفهري إلى زويلة سنة ٢٣هـ/٦٤٤م
حملة عبدالله بن سعد على إفريقية وانتصاره في سبيطلة ٢٧-٢٨هـ/٦٤٨-٦٤٩م
حملة معاوية بن حديج على إفريقية سنة ٤٥هـ/٦٦٥م
حملات عقبة بن نافع الأولى على ودان وفزان سنة ٥٠هـ/٦٧٠-٦٧٥م
حملة عقبة بن نافع الأولى وإنشاء القيروان سنة ٥٠-٥٥هـ/٦٧٠-٦٧٥م
حملة أبي المهاجر دينار حتى تلمسان سنة ٥٥-٦٢هـ/٦٧٥-٦٨١م
حملة عقبة بن نافع الكبرى سنة ٦٢-٦٤هـ/٦٨١-٦٨٣م
مقياس الرسم ١٠٠٠٠٠٠٠:١
بحر الروم
بحر الظلمات
إسبانيا القوطية
اليونان
دولة الروم
صقلية
قرطبة
قرطاجنة
غرناطة
إشبيلية
مالقة
المرية
شلب
قادش
سبتة
طنجة
أصيلا
تطوان
مليلة
وهران
تلمسان
تاهرت
شرشال
بجاية
بونة
طبرقة
بنزرت
قرطاجنة
سوسة
المهدية
صفاقس
القيروان
سبيطلة
قفصة
بسكرة
تهودة
جزيرة جربة
قابس
طرابلس
صبرة
لبدة
مصراتة
سرت
برقة
برنيق (بنغازي)
أجدابية
أوجلة
ودان
زويلة
مرزوق
جرمة
غات
كاوار
تبعو
غدامس
جبل نفوسة
ورقلة
سجلماسة
تافيلت
فجيج
الأغواط
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
آنفا
آسفي
أغمات
وادي درعة
السوس
ج. مالطة
واحة الكفرة
الجوف
واحة جالو

٩

عملنا في هذا الكتاب :

اعتمدنا في التحقيق وضبط النص على النسخة المطبوعة بتحقيق الأستاذ الفاضل الطاهر الزاوي رحمه الله، وأخرى مخطوطة . وكان عملنا هو :

[١] ـ ضبط النص وتصليح الأخطاء المطبعية .

[٢] ـ تفقير الكتاب لتيسير عمل الفهارس وتيسير المعلومة للباحث .

[٣] ـ ألحقنا بالكتاب ملحق خرائط توضيحية ليتيسر على القارىء الرؤية الجغرافية من خلال منظور تاريخي .

[٤] ـ فهرس للأعلام، مرفق به بعض التراجم .

[٥] ـ فهرس للأماكن، وألحق بالفهرس التعريف بالمكان .

[٦] ـ فهرس للقبائل والأمم والفرق والدول .

[٧] ـ فهرس الأيام والمواقع وأهم التواريخ .

[٨] ـ فهرس للشعر .

وبهذا نكون أسهمنا باليسير مع التقصير في التعريف بتاريخنا، وذلك لأن التاريخ مرآة الأمم، ترى فيه صورتها وماضيها التي تبنى عليها مستقبلها .

ونسأل الله أن يوفقنا إلى ما فيه الخير للإسلام والمسلمين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم

[١] ـ قال الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن خليل غلبون رحمه الله ونفعنا به:

نحمدك يا من قضيت أزلاً لا يكون غير مرادك، وشهد الكون أجمعه نطقاً ودلالة بانفرادك، وبعثت سيد ولد آدم رحمة لعبادك، وقصصت عليه نبأ الماضين من أهل طاعتك وعبادك، وخاطبته إن في ذلك موعظة وتثبيتاً لفؤادك. ونصلي عليه وعلى آله مسلمين ما عصاك وكفر به أهل أبعادك.

[٢] ـ وبعد فإن القصديد الذي أنشده الفاضل الأديب الخيّر اللبيب سيدي أحمد بن عبد الدائم الأنصاري في مدح طرابلس معرضاً فيه بمن هجاها، وهو وإن صرح بالمدح فيه إجمالاً ـ يحتاج إلى التفصيل بذكر جزئيات أخبارها، ولم أر من تعرض لجمعها على حدة من المؤرخين، وإنما ذكرت مشتتة في الصحف والدواوين. فقد أمرني بجمعها من أدام الله سعودَه، وحرس لإحياء الدين والمكرمات وجوده، ظل الله في بريَّته، وخليفته في خليقته، رافع منار الشريعة النبوية، وناصب رايات العلوم الدينية. ذوو المقام العالي، وكوكب المجد المنير المتلالي، الجامع لأصناف المفاخر والمعالي، الناصر لدين الإسلام، القامع بسيفه عبدة الصليب والأصنام، الناشر ألوية العدل والإنصاف، الماحي آثار كل الجور والإعتساف. من متّع الله به الخاص والعام، وأكثر منه للفقراء الجود والإنعام السند الأعظم والمقام الأفخم. كافل المملكة الطرابلسية، وأكرم من خفقت عليه الألوية العثمانية، أحمد بن يوسف بن محمود بن مصطفى، يسر الله له من استمرار العزة والدولة ما يشاء، تشريفاً منه لقدري، واستدامة لعادته الحسنى في استحسان أمري. وإظهاراً

لجميل رأيه الذي ما زلت أعتدُّه ظهيراً على نوائب دهري. فامتثلت أمره العالي تيمناً ببركاته، وتلقياً للنّجح باقتفاء مراسمه من جميع جهاته. وانتصبت لذكر ما حضرني من أخبارها، مما رويت أو شاهدت من آثارها، سالكاً فيه سبيل الإختصار، راجياً التوفيق والمعونة من القادر الغفار. وجعلته خدمة لسدة بابه التي هي معوّل رجاء الآمال، وملتثم شفاه الأكابر والأقيال. لا زالت ملاذ أرباب الفضائل ومحط رحال الأفاضل. وأهلاً لفعل المعروف، وإغاثة لكل مغتبط ملهوف بجاه النبي الأكرم، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وشرف وكرم. وسميته:

التذكار، فيمن ملك طرابلس
وما كان بها من الأخبار

[٣] ـ قال رحمه الله تعالى:

أرى زَمِناً قد جاءَ يقْتَنِصُ المَهَا ... بلا جارح والأُسْدُ في فَلَوَاتها
رأى القَيْضَ مُبَيِّضًا بمزْبلة الْحِمى ... فقال كَفاني أنَّه من صفاتها

أرى : من رأى البصرية وهي تتعدى لمفعول واحد وهو هنا زمِناً،

والزمانة : العاهة كذا في القاموس.
وخصها عرف اللغة بالعاهة الموجبة لعدم قيام الإنسان، والمراد بها هنا آفة الجهل على زعم الناظم لهجوه من لا يستحق هجواً.

والإقتناص : الاصطياد، من قنصه يقنصه إذا صاده.

والمها : اسم جنس جمعي واحدة مهاة، وهي البقرة الوحشية، شبه بها لطيف الوصف الذي لا يدرك إلا بدقيق الفهم.

الجارح : خصه العرف بما يصطاد به من حيوان طيراً كان أو كلباً.

والأُسْدُ : جمع أسد، وهو الحيوان المفْترس، والمراد هنا الفهِم الذّكي، شبه به من حيث الحماية، فكما أن الأسد يحمي ما بحماه، كذلك الفهِم الذكي.

والقيض : القشرة اليابسة على البيض. كذا في القاموس.

مُبْيضًا : صفة له مخصصة، إذ منه ما ليس كذلك.

والمزبلة : بضم الباء وفتحها: ملقى الزبل وموضعه، وهو معروف.

والحمى : بكسر الحاء المهملة وفتح الميم.

والقصر : هو المكان الذي يمنع رعيه ليتوفر فيه الكلأ فترعاه مواش مخصوصة ويمنع غيرها عنه.

والكلأ : بالهمز من غير مد: هو المرعى رطباً كان أو يابساً. والكلا

بالقصر من غير همز: النبات الرطب.

قال في المشارق: وضبطه السمرقندي والعذرى مرة بالمد وهو خطأ.

قال الحافظ ابن حجر: من مده فقد أخطأ.

والحشيش : هو العشب اليابس.

وظاهر كلام القاموس أن الحمى يجوز فيه المد، ولم يحك في المشارق فيه إلا القصر.

والحمى : بمعنى المحمي: مصدر بمعنى المفعول، وهو خلاف المباح، تثنيته حميان. وحكى الكسائي في تثنيته حموان بالواو، والصواب الأول لأنه يائيٌّ.

وأصل الحمى عند العرب أن الرئيس منهم كان إذا نزل منزلاً مخصباً استعوى كلباً على مكان عالٍ، فحيث انتهى صوته حماه من كل جانب فلا يرعى فيه غيره، ويرعى هو مع غيره فيما سواه. هذا معناه لغة.

وأما شرعاً: فهو حماية الإمام موضعاً لا يقع به التضييق على الناس للحاجة العامة إلى ذلك للخيل التي يحمل عليها الناس للغزو، ولماشية الصَّدقة. كذا عرفه الباجي، نقل ذلك ابن عرفة.

والأصل في إباحة الحمى ما رواه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب الشِّرب عن يحيى بن بكير، قال: حدثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الصَّعب بن جثَّامة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «لا حمى إلا لله ولرسوله».

قال وبلغنا أن النبي ﷺ حمى البقيع، وأن عمر حمى الشرف والربذة.

والشرب : بكسر الشين المعجمة: الحظ في قسمة الماء، وضبطه الأصيلي بالضم. قال ابن حجر: والصواب الأول.

والبقيع بالموحدة : موضع فيه أروم الشجر من ضروب شتى، وبه يسمى بقيع

الغرقد، وهو بالموحدة، كذا ذكره الجوهري في حرف الباء، ونحوه في مختصر العين، ومثله لابن سيده.

والغرقد : شجر له شوك كان ينبت هناك فذهب وبقي الاسم لازماً للموضع.

وقال عياض في المشارق في آخر الموحدة لما ذكر أسماء المواضع: بقيع الغرقد الذي فيه مقبرة المدينة سمي بذلك لشجرات غرقد ـ وهو العوسج ـ كانت فيه، وكذلك بقيع بُطحان.

والشرف بفتح المعجمة والراء بعدها في المشهور.

وذكر عياض أنه عند البخاري بفتح المهملة وكسر الراء.

قال وفي موطأ مالك رحمه الله: ابن وهب بفتح المعجمة والراء، وكذا رواه بعض رواة البخاري أو أصلحه وهو الصّواب، وأما سَرِف: فهو موضع بقرب مكة ولا يدخله الألف واللام وهو على ستة أميال منها من طريق مرو.

والربذة : بالراء المهملة المفتوحة وبعدها باء موحدة مفتوحة بعدها ذال معجمة، قال ابن حجر في فتح الباري: موضع معروف بين مكة والمدينة. وقال الزركشي في كتاب العلم من حاشية البخاري: موضع على ثلاث مراحل من المدينة.

والصعب ضد السّهل وعلى وزنه.

وجثّامة : بجيم مفتوحة، وثاء مثلثة مشددة كذا ضبطه النووي في أول كتاب الحج من شرح مسلم اهـ، ومعنى الأبيات بيّن.

[٤] قال:

أتى أهلَه يَهوى وبشَّر أنه ... بِربْقَة من ظبيانها ومَهَاتها
ألا أيها النِّحْرير مَهْ عن مَذَمَّةٍ ... فما في الأواني بانَ من قَطَراتِها

أهل الرجل: عشيرته وذوو قرباه، والهوى من معانيه أن يقبل بالشيء مرة ويدبر به أخرى، والعرف خصه بالبشارة بالشيء، يؤتى بالمصدر من لفظه للإعلام بها. والبشارة بالفرح، ومنه أبشرَ بكذا: فرح به.

والربق بالكسر: حبل فيه عدة عرًى يشد به البَهْم، كل عروة ربقة، بالكسر والفتح، جمعه ربق كعنب، وأرباق كأصحاب، ورباق كحبال. وربقه يَربقُه جعل

رأْسه في الربقة. وفي الأمر: أوقعه فيه، فارتبق. والرَّبْقُ ويكسر: الشدّ. والربيقة ـ كسفينة ـ البهيمة: المربوقة في الربقة.

والظبي: معروف.

وقال في مختصر العين في باب الضاد في الثلاثي المعتل: الضبي ضرب من دواب البر على خلقة الكلب. قال ولست على يقين منه.

والمهاة: واحدة المها، وقد تقدم.

والنِّحر والنحرير: بالكسر فيهما، قال في القاموس: الحاذق الماهر العاقل المجرّب المتقن الفطن البصير بكل شيء لأنه ينحر العلم نحراً.

[٥] ـ غريبة.

قدم على حضرة أمير المؤمنين أحمد باشا رجل منتسب للطّلب متعلق بالفتوى يطلب منه توقيعاً يتضمن زيادة احترامه وتوقيره، فأمر ـ أيده الله تعالى ـ أجلَّ كتبته أن يكتب له توقيعاً بذلك على عادته في مجابرة من انتسب إلى الدين، فكتب ما نصه:

«هذا كتاب أمير المؤمنين أيّده الله بيد حامله العالم العلامة النحرير، فلان يؤذن من يقف عليه بزيادة احترامه وتعظيمه» الخ.

فلما تناول الكتاب وقرأ «النّحرير» كاد أن يخرجِ من عقله حنقاً، وراجع بعض النبلاء واشتكى من الكاتب والأمير، وتلهف على غضِّهما حقه، فبين له معناها فلم يقبله، وحملها على ما يؤدي إليه ركيك فهمه من خلاف الصواب في ألفاظ اللغة، وتوهم لبداوته أنه وصفه ببيع الحرير لاتفاق اللَّفظين في أكثر الحروف إدراجاً له في وصف أهل الذمة لمشاهدته أن غالب سوقتهم يتعاطون بيعه في البلد دون أهلها. والكاتب مخطىء في الحقيقة إذ وصف الرجل بما لم يقم به معناه خطأً، ولكن له أجر من اجتهد فأخطأ.

مه: اسم فعل [بمعنى] اكفف، كذا في القاموس.

والمذمة: مفعلة من الذم ضد المدح. قال في القاموس: ذمه ذمًّا ومذمة فهو مذموم، وذميم، وذَمٌّ. ويكسر، ضد مدح. وإليك النظر في سبك الأبيات:

[٦] ـ قال رحمه الله تعالى:

طـــرابلـــسٌ لا تقبـــل الـــذَّم إنهـــا لهـــا حسنـــاتٌ جـــاوزتْ سيئـــاتِهـــا

طرابلس: لفظ رومي معناه ثلاث مدن. كذا ذكر صاحب القاموس. قال

بعضهم وهو الأشهر. وهو بفتح الطاء وضم اللّام والباء، وعلى ذلك درج أحمد بن حسين بن محمد من متأخري أدبائها. فقال أيام هجرته عنها بالجامع الأزهر:

طرابلس الغرَّا ترى لي عودة إليكِ وهل يدنو الذي كان قد ذهب
سقى الجانبَ الشرقيَّ منك سحابةٌ ولا زال فيه من رياح الصبا مهَب
بلادٌ لها بالخلد شبهة آية فمنها نباتُ الزَّعْفران كذا العنب
ترى سوحَها من فضَّة فإذا اكْتست بشمس الضحى أضْحت لُجَيْنَتُهَا ذهب
وفي كل حول حَوْلَها حُلّةٌ حلت برؤيتها خضراءُ من سُندس القصب
وفيها نخيلٌ باسقات إذا الصَّبا تَهُبُّ عليها أسقَطتْ يانِع الرُّطب
وفيها من الأشجار ما جلَّ وصفُه بأوْراقها الْوَرْقَاءُ غنَّت من الطَّرَب
وفي ثَغرها ظفرُ الرُّضابِ وعينها الْـ ـتي قد سمت من فضَّة آية العجب
فيا حبَّذا ثَغرٌ له النصرُ خادمٌ ويا حبذا عينٌ بها الماءُ قد عَذُب
أمثِّل شوقاً شكلَها في ضمائري فيسقط دمعي الشكل من شدة التَّعب
بديعةُ حُسْنٍ زادها الله بَهجة وآمن أهلِيها من الخوف والشَّغَبْ
لقد أعجزت أوصافُها كلَّ معرِب وكلَّ الذي أملى وكلَّ الذي كتب
ولكن قُصارى مُطنِب القولِ إنها تفوق بلادَ الغرب طُرًّا ولا عَجَب
وناهيك بالبئر الجديد وسره لجيرته داراً بها القلبُ ملتَهِب
فلا تُلحني إن أرّق البينُ مُقْلَتِي وكادتْ بيَ الأشواق تُفْضي إلى العطب
فإن من الإيمان ـ والنصُّ شاهدٌ ـ محبتَك الأوطانَ عن سيِّد العرب
وكيف بدارٍ قد حوت كلَّ رُفقة يقومُ لهم في العلم باعٌ وفي الأدب
ومن فضله بحرٌ طويل ووافر مَدِيدٌ مدى الأيامِ لا يعتريه غِب
هو الوالدُ الأسمى فلا زال كاسمه حُسينٌ أخو الحسنى لأحمد ينتسب
إمام من الإحسان أحيا مآثراً ومن قبله البُهلولُ ذو الفخر والحسب
فيا فالقَ الإصباح والحبِّ والنوى تمد له عمراً طويلاً بِلا وَصَب
سقتك أيا ربعَ الأحبَّةِ ديمةٌ تدوم، ولا زالت بِكَ المزنُ تنسكِب
فيا لَكَ من ربع إذا ما ذكرته أهيمُ كما الثكْلى أو الشاربِ الحَبَب

[٧] ـ وذكر البكري وغيره أنها بزيادة ألف قبل الطاء، وسكون الطاء، وكذا هو بخط الأجدابي. وعلى ذلك قول أحمد بن يحيى من قدماء شعرائها:

لقد طال شوقي إلى فِتْيَةٍ حِسَانِ الوجوهِ بأطْرَابُلُس
وقد عيل صَبْرِي فما مُسعدي على الشَّوْقِ إلا دُمُوعي الْبُجُس

[٨] ـ قال التجاني: واختار بعضهم في الغربية زيادة الألف، وفي الشامية إسقاطها، وعكس صاحب القاموس فجعل الهمزة للشامية، وقد سكن بعضهم لامها للضرورة، وهو الكاتب أبو الحسن علي بن أبي بكر بن بلال استناداً لما تقرر في اللغة من تغيير الأسماء الأعجمية للضرورة، فقال مخبراً عن نفسه حين قدمها متوجهاً للحج، فصرفه الدهر في بعض خدمها ـ يصف اشتياقه، ويطلب التخلص مما عاقه:

رَسَى فرسي في سَيْرِهِ وَلَوْ أنه خليٌّ من الأوزارِ سارَ ولم يرسُ
سعَى سعْيَ طَمَّاح لأبعد غاية فكانت له دارَ المقام طرابلْس

[٩] ـ والمدن الثلاثة التي جُعل هذا اللفظ علماً عليها: لبد، وطرابلس، وصيرة، ثم غلب على المدينة المعروفة الآن التي بساحل البحر الغربي بين لبدة وصيرة.

وهي بلدة أنيقة حسنة الجو، أعطى ساكنها الشجاعة وقوة العزم، لأكثر أهلها شبه بالصحابة، فقد أشربت قلوبُ الكفرة منهم مهابة.

وبالجملة فهو بلد أنيق المنظر فسيح الساحة، جمع منظري البر والبحر، فلذا يجد القلب فيه راحة. أهلها أمطر الله سحائب الرأفة عليهم، فتراهم يحبون من هاجر إليهم.

زادها حسناً بلد المنشية الذي استوفى المحاسن وأشعر بها، وذكّر بمنظره الأنضر وورقه الأخضر جنة الخلد واستبرقها.

أحدق بها [البحر] من جهتي شرقها والغرب فهي نازلة من البحر منزلة اللب والقلب.

جمع من أنواع الفواكه ما يعجز عن حصره، وتستلذ المشاعر عند رؤيته أو ذكره. قطوف عرصاتها دانية، جنة إلا أنَّها فانية.

[١٠] ـ وهي أول بلد فتح عنوة بأرض المغرب بعد صلح «انطابلس» وهي برقة، صالح أهلها عمرو بن العاص رضي الله عنه بعد أن قدم عليهم بعد فراغه من فتح الإسكندرية.

صالحه أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار فرعوني يؤدونها كل سنة على أن يبيعوا في جزيتهم من أولادهم.

وكان يسكن برقة من البربر لواته، وكانت أرض البربر فلسطين.

[فصل]
سبب دخول البربر
برقة وأرض المغرب

[١١] ـ وسبب انتقالهم منها إلى برقة وأرض المغرب ـ على ما ذكره المؤرخون ـ أن بني إسرائيل لما قتلهم بخت نصَّر البابلي، وأخرب بيت المقدس، واستولى على خزائنه والتابوت الذي فيه عصا موسى والسكينة وعمامة هارون ـ وقد كانوا يقدمونه أمامهم في الحروب فينصرون ـ ضعف أمرهم عن القتال وقويت عليهم شوكة البربر، فلم يزل أمر بني إسرائيل في إدبار، وأمر البربر في إقبال، حتى تنبأ أشمويل عليه السلام، فأتاه بنو إسرائيل وسألوه: سل ربك يبعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله، فسأل، فأوحى الله إليه أني منزل عليك عصاً وقرناً فيه دهن القدس، فضع العصا والقرن حولك، فإذا دخل عليك رجل منهم وغلى دهن القدس فقسه بالعصا، فإن طابقها فذلك ملكهم الذي يفتح لهم على يديه، فصار أهل بيت الملك يدخلون عليه فلم يَغْلِ لدخول أحدهم، فلما دخل طالوت، ولم يكن من بيت الملك، وإنما كان سقاه ضلَّ له حمار فخرج في طلبه، فلما مر ببيت أشمويل عليه السلام قال لمن معه: ألا ندخل بيت هذا الرجل الصالح لعل ببركته نجد ضالتنا، فدخلا فغلى دهن القدس فقاسه بالعصا فطابقها فقال: إن هذا ملككم الذي يفتح على يديه.

فكان من جوابهم ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله: **﴿قالوا أنّى يكونُ له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سَعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسعٌ عليم﴾** [البقرة: ٢٤٧]

و ﴿إن آيةَ مُلكه أن يأتيكم التابوتُ فيه سكينةٌ من ربكم وبقيةٌ مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ [البقرة: ٢٤٨].

وكان التابوت قد استولى عليه، فلما حل بين أظهرهم تشاءموا ببقائه، فأخرجوه من بين أظهرهم إلى قرية أخرى، فأصبح أهلها موتى أكلت الفأرة أفئدتهم فأخرجوه ودفنوه بفلاة من الأرض، فصار كل من بال متوجهاً نحوه أصابه الحصر، فأخرجوه وجعلوه في آلة يحملها ثوران وضربوهما، فأخذته الملائكة حتى أتت بهما بيت المقدس بلد أشمويل عليه السلام، فلما شاهدوا ذلك أذعنوا لملكه وملّكوه عليهم، وأمرهم بالتأهب لقتال البربر، فتأهب معه لقتالهم من بني إسرائيل ثلاثون ألف شاب وخرجوا لذلك، فأوحى الله سبحانه إلى أشمويل عليه السلام: أني مبتليهم، فابتلاهم بنهر ماء بعد قيظهم، ونهاهم عن الشرب منه وأخبرهم أشمويل عليه السلام أن من شرب منه ضعف عن لقاء عدوه فشربوا منه إلا قليلاً منهم، فلم يجاوزه معه إلا أربعة آلاف، منهم إيشا أبو داود عليه السلام، وكان له أربعة عشر ولداً أصغرهم داود عليه السلام.

فلما التقى الجمعان: جمعُ البربر وعليهم جالوت، وجمعُ بني إسرائيل وملكهم طالوت، أوحى الله سبحانه إلى أشمويل عليه السلام: أن هلاك جالوت على يد ولد من أولاد إيشا، فأمر طالوت إيشا بإحضار أولاده، فأحضرهم إلا داود لصغره، فقال أشمويل عليه السلام: لم يكن بينهم من هلاكُه على يديه، واستَفْهمه ألك غيرهم؟ قال ولد صغير، فأمر بإحضاره، فلما أحضر قال هو هذا، فأمر له طالوت بفرس وسلاح، فتقلد داود السلاح وركب، فلما استوى عليها نزل ورمى بالسلاح، وأخذ آلة يُرمى بها الحجر، فمر بحجارة الأنبياء فصاحت به فأخذها، حتى مر بحجر موسى فصاح به أنا حجر موسى، فأخذه ووضعه في الآلة وقذف به جالوت فأصابه فأهلكه.

واستولى طالوت على عسكره وأمواله. ثم أفضى الملك لداود عليه السلام واستولى على أرض فلسطين، ولما استولى عليها وتنبأ أوحى الله سبحانه إليه: يا داود أن أخرج البربر من أرضك فإنهم خبث الأرض، فأخرجهم من فلسطين وبعث بهم من قطع بهم النيل متوجهين إلى أرض المغرب.

[١٢] ـ قال ابن عبد الحكم: كان البربر بفلسطين في زمن داود عليه السلام،

فخرجوا منها متوجهين نحو أرض المغرب حتى انتهوا إلى لوبة ومراقية، وهما قريتان من قرى مصر الغربية مما يشرب من ماء السماء ولا ينالهما النيل، فتفرقوا هناك، فتقدمت زناتة مقبلة إلى المغرب وسكنوا الجبال، وتقدمت لواتة وسكنت أنطابلس، وهي برقة، وتفرقت في المغرب، وانتشروا حتى بلغوا السوس. ونزلت هوارة مدينة لبدة، ونزلت نفوسة مدينة صبرة، وجلا من كان بها من الروم من أجل ذلك.

وأقام الأفارق ـ وكانوا خدماً للروم ـ على صلح يؤدونه لمن غلب على بلادهم. وهم بنو فارق بن بيط بن حام، فلم يزل كل بأرضه إلى أن افتتح عمرو بن العاص مصر والإسكندرية.

فتح برقة

[١٣] ـ فسار عمرو بن العاص في الخيل حتى قدم برقة، فصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية، على أن يبيعوا من أولادهم في جزيتهم، ولم يكن يدخل برقة يومئذٍ جابي خراج، إنما كانوا يبعثون بها إذا جاء وقتها.

ووجه عمرو بن العاص عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة.

قال الطبري: فافتتحها بصلح وصار ما بينْ زويلة وبرقة سلماً للإسلام.

وقال أبو العالية الحضرمي: سمعت عمرو بن العاص على المنبر يقول: «لأهل أنطابلس عهد موفى لهم به».

حصار مدينة طرابلس

[١٤] ـ قال ابن عبد الحكم: ثم سار عمرو بن العاص حتى نزل طرابلس في سنة (٢٢ هـ) فنزل القبة التي على الشرف من شرقيها، فحاصرها شهراً لا يقدر منهم على شيء.

وفي أيام حصاره لها بعث إلى ودان بُسر بن أرطأة فافتتحها سنة (٢٣ هـ) كذا قال البكري.

قلت: ولا خلاف بينه وبين ابن عبد الحكم، لاحتمال أن يكون الحصار أواخر

سنة اثنتين وعشرين، والفتح في ثلاث وعشرين، على أن ابن عبد الحكم أطلق في الفتح.

قال البكري: ودان لها قلعة حصينة وللمدينة دروب، وهي مدينتان فيهما قبيلتان من العرب: سهميون وحضرميون، وجامعهما واحد بين الموضعين. وبين القبيلتين تنازع وتنافس، وعندهم فقهاء وقراء وشعراء، وأكثر عيشهم التمر، لهم زرع قليل يسقونه من النضح.

فتح طرابلس

[١٥]- ثم خرج رجل من بني مدلج ذات يوم من عسكر عمرو متصيداً في سبعة نفر فمضوا غربي المدينة حتى أمعنوا عن العسكر، ثم رجعوا فأصابهم الحر، فأخذوا على ضفة البحر، وكان البحر لاصقاً بالمدينة، ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور. وكانت سفن الروم شارعة في مرساها إلى بيوتهم. فنظر المدلجي وأصحابه فإذا البحر قد غاض من ناحية المدينة ووجدوا مسلكاً لها من الموضع الذي انحسر عنه البحر، فدخلوا حتى أتوا من ناحية الكنيسة وكبروا، فلم يكن مفزع للروم إلا سفنهم، وأبصر عمرو [المدلجيَّ و] أصحابه الستة في جوف المدينة، فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم، فلم يفلت الروم إلابما خفَّ لهم من مراكبهم، وغنم عمرو ما كان بالمدينة.

وكان مَنْ بصبرة متحصنين، وهي المدينة العظمى، وسوقها السوق القديم. فلما بلغهم محاصرة عمرو مدينة طرابلس، وأنه لم يصنع فيهم شيئاً ولا طاقة له بهم أمنوا.

فتح مدينة صبرة

[١٦] ـ فلما ظفر عمرو بمدينة طرابلس جرد خيلاً كثيفة من ليلته، وأمرهم بسرعة السير، فصبحت خيله مدينة صبرة وهم غافلون، وقد فتحوا أبوابها لسرح ماشيتهم فدخلوها، فلم ينج منهم أحد. واحتوى أصحاب عمرو على ما فيها، ورجعوا إلى عمرو. اهـ. ما لابن عبد الحكم.

وقد أطلق في خروجهم، وذكر غيره السبب كما ذكرنا.

وذكر غير ابن عبد الحكم أن المدلجي ومن معه لم يدخلوا المدينة وحدهم، بل ندبوا معهم جماعة.

ولما استولى عليها عمرو هدم سورها، وارتحل عنها لشَرُوس مدينة نفوسة فافتتحها.

قال البكري: وهي مدينة آهلة جليلة. وبين طرابلس وشَرُوس خمسة أيام.

ولم يزل سورها خراباً إلى سنة اثنتين وثلاثين ومائة، فجدده من جهة البر عبد الرحمن بن حبيب المتغلب على إفريقية أواخر دولة بني أمية. وتأخر بناؤه من جهة البحر إلى سنة ثمانين ومائة، فبني على زمن هارون الرشيد زمن ولاية هرثمة بن أعين على إفريقية من قبله، وهو الذي بناه على يد ثقته زكرياء أبي قادم، ثم زاد أبو الفتح زيان الصقلّي من متولى طرابلس سنة خمس وأربعين وثلاثمائة في رفعه وإتقانه من جهتي البر والبحر [وكان مولّى] من جهة المنصور إسماعيل بن القائم بأمر الله بن عبيد الله المهدي لعنه الله.

ولم تزل تحت ولاية بني أمية ثم بني العباس إلى أن غلب أبو عبد الله الشيعي على أكثر بلاد إفريقية، وفرّ زيادة الله بن الأغلب من رقادة هارباً إلى طرابلس، وأقام بها أياماً، ثم رجع إلى رقادة وولى عليها أخاه أبا العباس وتمام بن المبارك، وانفصل إلى سجلماسة، فلحق بعبيد الله المهدي واستخرجه من سجنها ودعا له بالخلافة، وذلك سنة (٢٩٧ هـ) سبع وتسعين ومائتين، وقدم إفريقية وقتل أبا عبد الله الشيعي وأبا العباس أخاه.

حصار أبي القاسم القائم بأمر الله

مدينة طرابلس:

[١٧] ـ ولما استقامت الأمور لعبيد الله المهدي جهّز جيشاً لطرابلس مع بعض قواده فحاصرها مدة ثم انصرف عنها خائباً ولم يفتتحها، فغاظ ذلك عبيد الله، فوجه إليها ولده أبا القاسم الملقب القائم بأمر الله في جيش، وكان ذلك سنة (٣٠٣ هـ) فحاصرها وضيق عليهم إلى أن فني طعامهم ـ وقد كانوا أسمعوه شراً ونالوا من عرضه ـ فسالمهم في أنفسهم إلا قليلاً منهم، وأغرمهم ما أنفق على الجيش، وذلك أربعمائة ألف دينار، وولى تغريمهم وتعذيبهم خليل بن إسحاق من أبناء جندها وولد بها، وكانت له صولة وهيبة، وحظ جليل من العلم، وباع متسع في الأدب.

[١٨] ـ واستخلف عليها القائم والياً من قبله، ثم انصرف عنها متوجهاً لمصر بجيوشه فلحق بها في سنة (٣٠٦ هـ) ست وثلاثمائة، فأخذ الإسكندرية وأكثر الصعيد، وكان أبوه المهدي قبل ذلك سنة (٣٠١ هـ) إحدى وثلاثمائة، قصد مصر في أربعين ألفاً ليأخذها، فرد خائباً، ثم رجع، ولم تزل طرابلس تحت ولايته وولاية ابنه المنصور، ثم ابنه المعز لدين الله معد، إلى أن أصاب مصر غلاءٌ شديدٌ أضعفهم، وكان ذلك سنة (٣٥٨ هـ) بعد وفاة كافور الإخشيدي الخصي المكنى بأبي المسك، كان عبداً حبشياً أسود اشتراه محمد الإخشيد بن طغج التركي الفرغاني المتغلب على مصر زمن الراضي العباسي، فإنه تملكها قهراً، ثم وصل له التقليد من الراضي عن كُره.

[١٩] ـ وقد كان كافور هذا تولى ملك مصر بعد وفاة ابني سيده: أبي القاسم

وأبي الحسن، وكانت في صفر سنة (٣٥٥ هـ) فأقام سنتين وأربعة أشهر، وكان يدعى له على المنابر بمصر والشام والحجاز، وله مآثر حميدة، ودفن بالقرافة.

وكان خبيراً بالسياسة، فطناً ذكياً، جيد العقل.

وكان يداري ويخدع، فكان يهادي المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه، ويدَّعي الطاعة لبني العباس.

وقد وقعت في أيامه زلزلة ففرّ الناس منها، فأنشد بعض الشعراء:

ما زُلْزِلت مصرُ من خوف يراد بها لكنهـا رقصـت مـن عـدلكـم طـربـا

[٢٠] - ولما مات تولى أبو الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيد، وكان صغيراً لم يحسن الأمر، ولم يبق بمصر من تجتمع عليه القلوب بعد كافور، وأصابهم الغلاء، وكان للمعز جواسيس بمصر في أيام كافور يراسلونه:

«إنك إن زال الحجر الأسود ملكت الدنيا» يعنون به كافوراً.

فلما مات راسلوا المعز، فوجه إليهم جوهراً القائد في مائة ألف، فتسلم مصر بلا قتال؛ فلما وطىء مصر وارتفعت منها الخلافة العباسية بنى له القاهرة مفاخرة لبغداد بني العباس سنة (٣٥٨ هـ) وشرع في بناء الأزهر سنة (٣٥٩ هـ) وأتم بناءه سابع رمضان سنة (٣٦١ هـ) ولما أتمها انتقل إليها المعز لدين الله معد بن المنصور إسماعيل بن القائم بأمر الله بن المهدي بالله عبيد الله بن الحسين بن محمد بن قداح.

[٢١] - وعبيد الله المهدي هو أول ملوك العبيديين.

تولى خمساً وعشرين سنة وثلاثة أشهر.

وكانت ولايته سنة سبع وتسعين ومائتين، وهو الذي ابتنى مدينة المهدية بإفريقية وإليه تنسب.

[٢٢] - ثم تولى ابنه القائم بأمر الله أرض المغرب وإفريقية وطرابلس اثنتي عشرة سنة وسبعة أشهر.

ثم تولى ابنه المنصور مملكته اثنين وثلاثين عاماً.

ثم تولى المعز المغرب وإفريقية وطرابلس ومصر أربعاً وعشرين سنة، وكان انتقاله لمصر سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، كذا ذكر الشيخ مرعي في تاريخه مدة تولي كل منهم، ولم أره لغيره، ولا يصح شيء من ذلك لمن تأمل كلامه. وذلك أنه اتفق على أن عبيد الله المهدي دعي له بالخلافة سنة سبع وتسعين ومائتين وهو بسجلماسة، ثم قدم إفريقية وافتكها من يد الشيعي.

وفي سنة إحدى وثلاثمائة جهز لطرابلس ومصر جيشاً فرد خائباً كما مر، وحاصر طرابلس سنة (٣٠٣ هـ) ثلاث وثلاثمائة على يد ابنه القائم بأمر الله فافتتحها، ولحق بمصر سنة (٣٠٦ هـ) ست وثلاثمائة، وأخذ الإسكندرية وأكثر الصعيد، ثم انتقضت عليه.

وقد ذكر أن مدة توليهم ـ غير المعز ـ تسع وستون سنة وعشرة أشهر، منها ثلاثة تكملة الثلاثمائة، وبقيت سبع وستون وثلاثمائة إلا شهرين، مقتضى ذلك أن ولاية المعز كانت فيها.

وقد ذكروا أن المعز انتقل إلى مصر بعد أن أفضى إليه الملك سنة (٣٦٢ هـ) اثنتين وستين وثلاثمائة، وأقام في الملك أربعة وعشرين عاماً، وهو يقتضي أن ابتداء ولاية المعز كان في سنة سبع وستين، ففي كلامه أولاً وآخراً تناقض لا يخفى.

[٢٣] ـ ولما انتقل المعز سنة (٣٦٢ هـ) اثنتين وستين وثلاثمائة من دار ملكه التي هي صبرة إلى مصر، وعزم على اتخاذها دار ملكه ـ وكان فيما يزعمون عنده إثارة من علم الحدثان عرف بها مصائر أحواله، وأهل الغنية من أعيان رجاله.

وكانت عنده علامة لخليفته على إفريقية إذا صار إليه ملك مصر يأنس بها أُنس الكبير بذكر شبابه، ويعرفها عرفان العاشق بديار أحبابه ـ دعا زيري بن مناد، وهو يومئذٍ من صنهاجة بمكان السنام من الغارب، وبمنزلة الوجدان من نفس الطالب. وكان له عشرة من الولد، فقال: ادع لي بنيك فقد علمت رأيي فيهم وفيك، وكان أصغرهم سناً، وأهونهم عليه شأناً يوسف، فدعا بنيه سواه.

فلما أحضرهم بين يديه نظر في وجوههم فأنكرها، حين فقد تلك العلامة فلم يرها.

فقال لزيري: هل غادرت من بنيك أحداً، فلست أرى لمن هاهنا منهم أيداً ولا يداً، فقال إلا غلاماً، وطفق يحقر شأنه والمقدار عناه وأعانه، ويطوي أخباره والإختيار يريد عليه مداره.

فقال له المعز: لا أراك حتى أراه، فلست أريد سواه. فلما رآه عرفه، وفوض إليه من حينه واستخلفه.

وتوجه لمصر ومعه ألف وخمسمائة حمل موسوقة ذهباً.

وحمل توابيت آبائه صحبته، ودفنهم بالقاهرة بقصره، فلا رحمه الله ولا رحم آباءه.

فاستولى [يوسف] من وقته على الأمور، وزاحمت مهابته الأهواء في الصدور؛ وبعدت أسفاره واشتهرت أخباره، واشتمل على طرفي الأيام والليالي موردہ وإصداره، ثم أجاب صوت مناديه، وخلع الإمارة على أعطاف بنيه، حتى انتهت منهم إلى المعز بن باديس.

[٢٤] ـ وفي أثناء إمارتهم على إفريقية استولى على طرابلس بنو خزرون الزناتيون، ووقعت بينهم وبين الصنهاجيين حروب كثيرة، من رامها فليراجع تاريخ الرقيق فإن فيه غرائب وعجائب.

ولاية المعز بن باديس
سنة (٤٠٦ هـ)

[٢٥] ـ ولما استولى المعز بن باديس بن المنصور بن يوسف بن زيري بن مناد، فأول ما افتتح به شأنه وثبت به دِعَمَ سلطانه أذية الرافضة أشياع بني عبيد خفية. وبلغ ذلك أبا القاسم أحمد بن علي الجَرْجَرائي وزير الظاهر بن الحاكم العبيدي الذي بنى بجامع عمرو بن العاص تنوراً فيه مائة ألف درهم فضة، وبعث له من القصر ألفاً ومائتين وتسعين مصحفاً منها ما هو مكتوب كله بالذهب فأحرقها، وبنى جامع الحاكم وسماه الأنور، بين باب النصر وباب الفتوح. وهو الآن خراب لتأسيسه على شفاجرف هار.

وكان قاضيه يكتب على السجل:

«قاضي القضاة، قاضي عبد الله الإمام الحاكم أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، على القاهرة المعزية، ومصر والإسكندرية، وأجناد الشام والرحبة والرقة والمغرب وأعمالها».

[٢٦] ـ قال المؤرخون: لم يل مصر بعد فرعون شر من الحاكم. رام أن يدَّعي الألوهية، وصار قوم جهال إذ رأوه قالوا: يا واحد يا أحد، يا محيي يا مميت، وأمر الرعية بالقيام له عند ذكر اسمه في الخطبة وغيرها من مواضع الإجتماع.

وكان كثير التلوُّن لعنه الله، مرة يأمر ببناء الكنائس ومرة بهدمها، وبنى المدارس وجمع فيها الفقهاء والمشايخ وقتلهم وأخربها.

وأمر بقتل الكلاب، وحرم الملوخية، وأغلق الأسواق نهاراً وأمر أن تفتح ليلاً. وله قبائح كثيرة.

[٢٧] ـ وكانت دولة بني عبيد الناجعين دولة رديئة، تنتسب لفاطمة الزهراء رضي الله عنها كذباً وافتراء.

وغرهم في ذلك نسبتهم إلى الحسين بن محمد بن قداح، كان مجوسياً، وقيل يهودياً، فظنوا أنه الحسين بن علي رضي الله عنهما، وإنما هم زنادقة مجوس أو يهود، وعلى ذلك أكثر المؤرخين.

وبهم ارتفعت الخلافة العباسية من مصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة كما ذكرنا، وتسموا ظلماً بالخلفاء وأمراء المؤمنين، وأقاموا مذاهب الرفض والشيعة، وعطلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وسفكوا الدماء، وسبوا الأنبياء.

[٢٨] ـ وفي مدتهم ـ لعنهم الله ـ ضيعوا أئمة السنة قتلاً ونفياً وتشريداً.

وأفردهم العلماء بالتأليف: فمنهم أبو شامة، أفردهم بكتاب سماه «كشف ما عليه بنو عبيد، من الكفر والكذب والكيد».

وكتب بعض أجلة بغداد من العلماء فيهم أيام الحاكم كتاباً بين أنهم ليسوا من ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وإنما هم كفار فساق وملحدون، وزنادقة ومبطلون، وللإسلام جاحدون. عطلوا الحدود وأباحوا الفروج، وسفكوا الدماء، وسبوا الأنبياء. إلخ.

[٢٩] ـ وقال الرعيني: أجمع علماء القيروان على أن حال بني عبيد حال المرتدين والزنادقة لما أظهروا من خلاف الشريعة.

وقال أبو الحسن القابسي من علماء القيروان: إن الذين قتلهم عبيد الله وبنوه من العلماء والعباد، أربعة آلاف رجل، ليردوهم عن الترضي عن الصحابة فاختاروا الموت. ويا حبذا لو كان رافضياً، ولكنه زنديق.

[٣٠] ـ وقال تقي الدين بن تيمية:

بقي ولاة القاهرة نحو مائتي سنة على غير شريعة الإسلام.

وكانوا يظهرون أنهم رافضة، وهم في الباطن إسماعيلية ونصيرية وقرامطة وباطنية.

[٣١] ـ وكذا قال الغزالي في كتابه في الرد عليهم:

ظاهر مذهبهم الرفض. وباطنه الكفر المحض. والذي يوجد في بلاد الإسلام من الإسماعيلية والنصيرية والقدرية من أتباعهم.

وكانوا ـ وهم بالقاهرة ـ يستوزرون مرة يهودياً ومرة نصرانياً أرمنياً، فبذلك كثرت الكنائس والديور في أرض المسلمين.

[٣٢] ـ وكانوا ينادون بين القصرين بمصر: من لعن الصحابة فله دينار وإردب. وكانوا من شر الخلق، فيهم قوم زنادقة دهرية لا يؤمنون بالآخرة، ولم يستوزر أحد منهم مسلماً على مقتضى كلام ابن تيمية إلا الظاهر لإعزاز دين الله عليّ ولد الحاكم، فإنه استوزر أبا القاسم أحمد بن علي الجرجرئي أحد رجال الدنيا سياسة ودهاء، وبعد غور، ونفوذ فكر.

ولما بلغه إذاية المعز بن باديس أشياع بني عبيد سر بذلك، وكان مستميلاً للمعز معرِّضاً بالتحزب معه على بني عبيد.

نقض المعز بن باديس عهد العبيديين ودعوته للخليفة العباسي ببغداد

[٣٣] ـ فانتهى أمر المعز في أذية أتباعهم حتى بدأهم بالقتل، وصرح بلعن بني عبيد على المنابر، وأرسل [إلى] أمير المؤمنين القائم بأمر الله عبد الله بن القادر بالله أحمد، بن المقتدر بالله، بن المعتضد، بن الموفق، بن المتوكل على الله جعفر، بن المعتصم بالله محمد بن المأمون عبد الله، بن هارون الرشيد، بن المهدي محمد، بن أبي جعفر المنصور، بن محمد، بن علي، بن عبد الله، بن العباس، بن عبد المطلب، بن هاشم، ببغداد، وخطب له بأرض المغرب وإفريقية، وكتب له العهد، وأرسل له الخلعة واللقب على طريق القسطنطينية.

[٣٤] ـ قيل وكتب المعز للجرجرائي ـ لما كان يظن به من التحزب معه على بني عبيد ـ قطعة تمثل فيها بقوله:

وفيك صاحبتُ قوماً لا خَلاق لهم ... لولاك ما كنتُ أَدري أَنهم خلقوا

بخطه، يشير بذلك لبني عبيد، ويزعم أنه إنما أبقى عليهم بعض الإبقاء من أجل حبه، فلما وقف الجرجرائي عليها قال:

ألا تعجبون من هذا الأمر، صبي مغربي بربري، يحب أن يخدع شيخاً بغدادياً عربياً. واتهمه بأنه إنما فعل ذلك ليوقع بين القوم ووزيرهم إن عثروا على هذه الرموز. فأقسم لأجيّشنّ عليه جيشاً ولأتحملنّ فيه نَصباً.

دخول العرب إلى إفريقية
سنة (٤٤٢ هـ)

[٣٥] ـ وكان المستنصر العلوي صاحب مصر، بلغه ما فعل المعز من قطع الخطبة له، وخطبته للقائم بأمر الله، فكاتب المعز وتهدده.

فلما بلغ كتابه المعز أغلظ له في الجواب، فكلف الوزير الجرجرائي ـ على ما ذكر ابن بسام ـ العرب العبور إليه. وكانت بطوناً من بني عامر بن صعصعة: زِغْباً، وبني عدي، والأثبج، ورياح وغيرهم تنزل بالصعيد، لا يسمح لها بالرحيل، ولا يُخلى بينها وبين إجازة النيل، فأفرج لهم الجرجرائي عن السبيل، وأذن لهم في المعز: أمنية طالما سرت إليها أطماعهم، وعلقت عليها أسماعهم وأبصارهم. فغشيه منهم سيل العرم، ورماه منهم بدؤلول ابنة الرقم، فتهاون المعز بهم أولاً، فشغلهم بخدمته، وأثقلهم بأعباء نعمته، وهم في أثناء ذلك يتمرسون بحياته، ويدبون إلى أنصاره وحماته، ويطلعون على مقاتله وعوراته، حتى بان لهم شأنه، وهان عليهم سلطانه.

فجاهروه بالعداوة وراودوه على الإناوة. فأغص الجرجرائي أهل إفريقية بريقهم. حاجة كانت في نفسه من إفساد هذه البلاد تعجل قضاءها. اهـ. [وهذا] لابن بسام باختصار.

[٣٦] ـ وقال ابن الأثير: إن الذي أقطع العرب النيل الوزير اليازوري، استوزره المستنصر العلوي، ولم يكن من أهل الوزارة، وإنما كان من أهل النيابة والفلاحة فلم يخاطبه المعز بما كان يخاطب من قبله، كان يخاطبهم بعبده، فخاطب اليازوري

بصنيعته، فعظم عليه ذلك وعاتبه فلم يرجع إلى ما يحب، فأكثر الوقيعة في المعز وأغرى به المستنصر، وشرعوا في إرسال العرب إلى المغرب، فأصلحوا بين بني زعب ورياح وكانت بينهم حروب وأحقاد، وأعطوهم مالاً وأمروهم بقصد بلاد القيران، وملكوهم كل ما يفتحونه، ووعدوهم بالمدد والعدد.

[٣٧] ـ واختلف فيما أعطوهم من المال، قيل لكلٍّ فروة ودينار، وقيل غير ذلك، فدخل العرب إفريقية، وكتب اليازوري إلى المعز:

«أما بعد فقد أرسلنا إليكم خيولاً فحولا، وحملنا عليها رجالاً كهولا، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً».

فلما حلوا ببرقة وما والاها، وجدوا بلاداً كثيرة المرعى خالية من الأهل، لأن زناتة كانوا أهلها فأبادهم المعز، فأقامت العرب بها، فاستولوا عليها وعاثوا في أطراف البلاد، وبلغ ذلك المعز فاحتقرهم.

[٣٨] ـ وكان المعز لما رأى تقاعد صنهاجة عن قتال زناتة، اشترى العبيد ووسع لهم في العطاء، فاجتمع له ثلاثون ألف مملوك.

وأقلعت العرب، فملك بنو زعب مدينة طرابلس سنة ست وأربعين وأربعمائة، فتتابعت رياح والأثبج وبنو عدي إلى إفريقية، وقطعوا السبيل وعاثوا في الأرض وأرادوا الوصول إلى القيروان. فقال موسى بن يحيى المرداسي:

ليست المبادرة عندي برأي، فقالوا: وكيف تحب أن نصنع؟ فأخذ بساطاً فبسطه ثم قال لهم: من يدخل وسط هذا البساط من غير أن يمشي [عليه]؟ قالوا لا يقدر على ذلك، [فأخذ يطوي البساط شيئاً فشيئاً] وقال: هكذا القيروان، خذوا شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى إلا القيروان فخذوها حينئذٍ. قالوا إنك لشيخ العرب وأميرها وأنت المقدم عليها، ولسنا نقطع أمراً دونك.

[٣٩] ـ ثم قدم أمراء العرب إلى المعز فأكرمهم، وبذل لهم شيئاً كثيراً، فلما خرجوا من عنده لم يجازوه بما فعل من الإحسان، بل شنوا الغارات وقطعوا الطريق، وأفسدوا الزرع وقطعوا الثمار وحاصروا المدن، فضاق بالناس الأمر، وساءت أحوالهم، وانقطعت أسفارهم، ونزل بإفريقية بلاء لم ينزل بها مثله قط.

فعند ذلك احتفل المعز وجمع عساكره وكانوا ثلاثين ألف فارس ومثلهم رجالة، وسار من دار ملكه وهي صبرة - وهل هي زواغة التي هي مدينة بينها وبين طرابلس مسيرة يوم وزواغة، وصف لها وليس بعلم، والعلم هو صبرة، أو هي صبرة التي بإفريقية؟ وهو الأظهر -.

حتى قدم جندارا - جبلاً، بينه وبين القيروان ثلاثة أيام - وكان عدة العرب ثلاثة آلاف فارس، فلما رأت العرب عساكر صنهاجة والعبيد مع المعز هالهم ذلك وعظم عليهم.

فقال موسى بن يحيى: «ما هذا اليوم يوم فرار، اليوم يوم العينين».

والتحم القتال واشتدت الحرب فانقلبت صنهاجة على الهزيمة، وتركوا المعز مع العبيد حتى يروا قتالهم ويقتل أكثرهم، فعند ذلك يرجعون، فانهزمت صنهاجة وثبت المعز مع العبيد حتى قتل منهم خلق كثير، وأرادت صنهاجة الرجوع فلم يمكنهم ذلك، واستمرت الهزيمة، وقتل من صنهاجة كثير، وانتقل المعز إلى القيروان مهزوماً على كثرة من معه، وأخذ العرب الخيل والخيام وما فيها من المال وغيره.

وفيها يقول علي بن رزق الرياحي:

وإن ابن باديس لأحزمُ مالك ... ولكن لعمري ما لديه رجال
ثلاثةَ آلاف لنا غلبنت له ... ثلاثين ألفاً إن ذا لنكال

وكان توجههم لأرض المغرب من مصر سنة (٤٤٢ هـ) اثنتين وأربعين وأربعمائة ولقيهم المعز وجيشه سنة ست وأربعين وأربعمائة.

[٤٠] - ولما دخل القيروان مهزوماً جمع في يوم النحر من هذه السنة سبعة وعشرين ألف فارس، وسار إلى العرب [في] جريدة، وسبق خبره، فهجم عليهم وهم في صلاة العيد، فركبت العرب خيولها وحملت، فانهزمت صنهاجة وقتل منهم عالم كثير، ثم جمع المعز وخرج بنفسه في صنهاجة وزناتة في جمع كثير.

فلما أشرف على بيوت العرب - وهي قبلى جبل جندار - انتشب القتال، واشتعلت نيران الحرب، وكان العرب سبعة آلاف، فانهزمت صنهاجة وولى كل رجل

منهم إلى منزله، وانهزمت زناتة، وثبت المعز فيمن معه من عبيده ثباتاً عظيماً لم يسمع بمثله ثم انهزم وعاد إلى صبرة التي هي المنصورية، وأحصى من قتل من صنهاجة ذلك اليوم فكانوا ثلاثة آلاف وثلثمائة.

ثم أقبلت العرب حتى نزلت مصلى القيروان ووقعت الحرب، فقتل من زناتة بالمنصورية خلق كثير.

فلما رأى ذلك المعز أباح دخول القيروان لما يحتاجون إليه من بيع أو شراء.

فلما دخلوها وقعت فتنة عظيمة بين أهلها وبعض العرب [أدت إلى حرب، وكان سببها فتنة بين عوام البلد وبعض العرب].

وكان المعز سنة أربع وأربعين وأربعمائة بنى سور زويلة والقيروان.

وفي سنة ست وأربعين وأربعمائة حاصرته العرب بالقيروان كما تقدم.

[٤١] ـ وأشار المعز على الرعية بالإنتقال إلى المهدية لعجزه عن حمايتهم من العرب.

وأقام المعز والناس ينتقلون إلى المهدية إلى سنة (٤٤٩ هـ) تسع وأربعين وأربعمائة ـ فانتقل إليها في شعبان، فتلقاه ابنه تميم ـ وكان المعز قد ولاه عليها سنة خمس وأربعين وأربعمائة ـ أحسن قبول.

[٤٢] ـ وكانت وقعت بين عَبيد تميم وعَبيد المعزّ وقعة ذلت بها عبيد المعز، وكانوا يبلغون المعز عن ابنه ما يكره، فلما رآه رأى ما يسره منه وسلم إليه الأمر، ولم يزل بها المعز إلى سنة (٤٥٣ هـ) ثلاث وخمسين وأربعمائة فتوفي رحمه الله.

وكان ملكه سبعاً وأربعين سنة، وكان عمره لما ملك إحدى عشرة سنة، وقيل ثمان سنين وستة أشهر.

[٤٣] ـ وكان رحمه الله تعالى رقيق القلب خاشعاً متجنباً لسفك الدماء إلا في حد، حليما يتجاوز عن الذنوب العظام، حسن الصحبة مع عبيده وأصحابه، مكرماً لأهل العلم كثير العطاء لهم، كريماً، وهب مرة مائة ألف دينار للمستنصر الزناتي، كان عنده، وقد جاءه هذا المال فاستكثره، فأمر به فأفرغ بين يديه ثم وهبه له، فقيل له لم أفرغته من أوعيته؟ فقال لئلا يقال: لو رآه لما سمحت به نفسه.

وكان له شعر حسن، ولما مات رثاه الشعراء.

ومنهم أبو الحسن بن رشيق فقال:

لكـل حـي وإن طـال المـدى هلـك ... لا عـزٌّ مملكـة يبقـى ولا ملـك
ولّـى المعـز علـى أعقـابـه فـزعـاً ... أو كـان ينهـدُّ مـن أركـانـه الفلـك
مضـى فقيـراً وأبقـى فـي خـزائنـه ... هـامَ الملـوك ومـا أدراك مـا ملكـوا
مـا كـان إلا حسـامـاً سلّـه قـدرٌ ... على الذين بغوا في الأرض وانهمكوا
كـأنـه لـم يخـض للمـوت بحـر وغـىً ... خضـرُ البحـار إذا قيسـت بـه بـرك
ولـم يجـد بقنـاطيـر مقنطـرة ... قـد تـوجـت بـاسمـه إبـريـزهـا السكـك
روح المعـز وروح الشمـس قـد قبضـا ... فـانظـر بـأي ضيـاء يصعـد الملـك

ولاية تميم بن المعز بن باديس

[٤٤] ـ ولما توفي المعز بن باديس ملك ابنه تميم. وكان مولده بالمنصورية منتصف رجب من سنة (٤٢٢ هـ) واثنتين وعشرين وأربعمائة، واستقل بالملك، واتخذ دار ملكه المهدية، لأنه محل ولايته في حياة أبيه كما ذكرنا.

ولما استقل بالملك سلك مسلك أبيه في حسن السيرة ومحبة أهل العلم، إلا أن عمال أبيه الذين في البلدان قد طمعوا في الإستقلال بالملك بسبب تغلب العرب.

وكانت هيبة بني باديس قد وهت أيام المعز بما كان من الأعراب، فلما مات ازداد طمع العمال في الاستقلال، وأظهر كثير منهم الخلاف.

[٤٥] ـ فممن أظهر الخلاف عليه القائد حَمُّو بن مليل قائد صفاقس، واستعان بالأعراب، ووقعت بين أصحاب تميم وحمو وقعة كانت لأصحاب حمو على أصحاب تميم.

وكان المظفر بن علي كاتباً لحمو، وكان بليغاً مشهوراً بالبلاغة وحسن الكتابة، وكان يكتب عن حمو إلى تميم ما يغيظه، وبلغ منه كل مبلغ.

فلما كانت بين أصحابهم الوقعة المذكورة واستأصل فيها أصحاب حمو أصحاب تميم كتب مظفر إلى تميم كتاباً تمثل فيه بقول أبي الطيب المتنبي:

وإن كان أعجبكم عامُكم ... فعودا إلى مصر في القابل
فإن الحُسام الْخَضيبَ الذي ... قُتلتم به في يد القاتل

[٤٦] ـ وكان قد تحدث في المهدية بموت حَمُّو، وبلغ ذلك حمو، فأمر

مظفراً أن يكتب إلى تميم في هذا المعنى، فكتب إليه متمثلاً بقول أبي الطيب:

كم قد دفنتُ وكم أقبرتُ عندكم ثم انتفضت فزال القبر والكفن
ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السُّفن

وكتب تميم مرة لحَمُّو يتوعده ويتهدده، وتمثل فيه بقول الشاعر:

ستعلم ليلى أي دين تداينت وأي غريم للتقاضي غريمها

فراجعه عنه مظفر متمثلاً بقول قيس بن ذريح:

ستعلم إن شطت به غربة الثوى وزالوا بليلى أن عقلك زائل

وقيل إنه تمثل في مراجعته عن هذا الكتاب بقول جرير:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع

قلت: وهذا أظهر في الجواب من ذلك.

وكتب تميم إلى حمو ـ بإثر وقعة كانت لتميم عليه ـ كتاب إيناس وإلطاف فراجعه في الجواب مظفر، متمثلاً بقول عبد الله بن محمد العطار:

لا تظنن أمراً أغضبه سببٌ ثم انقضى ذاك السبَبْ
سالم الصدر من الحقد ولو أكثر الود ولم يبد الغَضَب
كرماد النار يبقى حرها كامناً فيه ولو زال اللهب

[٤٧] ـ فبذلك تأكدت الوحشة بينهما، واستعان حمو بالعرب وقصد حصار المهدية فخرج إليه تميم وصافه فاقتتلوا، فانهزم حمو وأصحابه وكثر القتل فيهم، ونجا حمو بنفسه، وتفرقت خيله ورجاله. وكان ذلك سنة خمس وخمسين وأربعمائة، وكان التقاؤهما بسلقطة، وبها كانت الوقعة. ثم سار تميم إلى سوسة، وكان أهلها قد خالفوا أباه المعز وعصوا عليه ـ فملكها وعفا عنهم.

[٤٨] ـ وفي سنة (٥٧ هـ) سبع وخمسين من التاريخ المذكور، وقعت بين تميم والناصر بن عَلَنَاس الصنهاجي حروب عظيمة وكان سببها أن حماد بن بلكين جد الناصر كان بينه وبين عمه باديس بن المنصور أبي المعز جد تميم خلاف وشقاق

أوجب مسير باديس إليه وحاصر قلعة بني حماد، ولولا تلك القلعة لأخذه سريعاً.

ومات باديس وهو محاصر لها. وتولى ابنه المعز، فبايعه حماد على ضغن منعه من إظهاره العجز. ومات وتولى ابنه قائداً، ودخل تحت طاعة المعز على ما كان عليه أبوه. وكان يضمر الغدر وخلْع طاعة المعز والعجز يمنعه من ذلك إلى أن رأى قوة العرب وما نال المعز منهم خلع الطاعة واستبد بالبلاد، وبعده ولده محسن، وبعده ابن عمه بلكين بن محمد، وبعده ابن عمه الناصر بن عَلَنَاس بن محمد بن حماد، وكل منهم متحصن بالقلعة، وقد جعلوها دار ملكهم.

[٤٩] ـ فلما رحل المعز من صبرة والقيروان إلى المهدية، تمكنت العرب ونهبت الناس، وخرّبت البلاد، وانتقل كثير من أهلها إلى بلاد بني حماد لكونها جبالاً وعرة يمكن الإمتناع بها من العرب، فعمرت بلادهم، وكثرت أموالهم، وبقيت في نفوسهم الضغائن من باديس ومن بعده من أولاده يرثها صغير عن كبير إلى أن ولى تميم الأمر بعد أبيه، فاستبد كل من هو ببلد أو قلعة من عمالهم بمكانه وتميم يداري ويتجلد.

واتصل به أن الناصر بن عَلَنَاس يقع فيه في مجلسه ويذمه، وأنه عزم على المسير ليحاصره في المهدية، وأنه حالف بعض صنهاجة وزناتة وبني هلال ليعينوه على حصار المهدية.

فلما صح ذلك عنده أرسل إلى أمراء بني رياح فأحضرهم إليه وقال: «أنتم تعلمون أن المهدية حصن منيع أكثره في البحر، لا يقابل منه في البر غير أربعة أبراج يحميها أربعون رجلاً، وإنما جمع الناصر هذه العساكر ليسير إليكم».

فقالوا له: الذي تقول حق، ونريد منك المعونة، فأعطاهم المال والسلاح من السيوف والرماح والدرق، فجمعوا قومهم وتحالفوا على لقاء الناصر وأرسلوا إلى من مع الناصر من بني هلال يقبحون عندهم مساعدتهم للناصر، ويخوفونهم منه إن قوي، وأنه يهلكهم بمن معه من زناتة وصنهاجة، وأنه إنما يستمر لهم المقام والاستيلاء على البلاد إن دام الخلف وضعف السلطان.

فأجابهم بنو هلال إلى الموافقة، وقالوا: اجعلوا أول حملة تحملونها علينا

ونحن ننهزم بالناس ونعود عليهم، ويكون لنا ثلث الغنيمة، فأجابوهم إلى ذلك واستقر الأمر.

وأرسل المعز بن زيري الزناتي إلى من مع الناصر من زناتة بنحو ذلك، فوعدوه أيضاً أن ينهزموا. فحينئذٍ رحلت رياح وزناتة جميعها وسار إليهم الناصر بصنهاجة وزناتة وبني هلال، فالتقت العساكر بمدينة سبيبة فحملت رياح على بني هلال، وحمل المعز على زناتة فانهزم الطائفتان وتبعهم عسكر الناصر فانقلبوا عليه ورجع منهزماً، ووقع فيهم القتل، فقتل فيمن قتل القاسم بن علناس أخو الناصر. وكان مبلغ من قتل من صنهاجة وزناتة أربعة وعشرين ألفاً، وسلم الناصر في نفر يسير، وغنمت العرب جميع ما كان في العسكر من مال وسلاح ودواب وغير ذلك واقتسموها على ما استقر بينهم. وبهذه الوقعة تم للعرب ملك البلاد. فإنهم قدموها من ضيق وفقر وقلة دواب، فاستغنوا وكثرت دوابهم وسلاحهم، وقل المحامي عن البلاد، وأرسلوا الأموال والسلاح وَخِيَم الناصر بدوابها إلى تميم فردها، وقال: يقبح أن آخذ سلَب ابن عمي. فأرضى العرب بذلك.

وعلناس: بفتح العين المهملة واللام والنون، وبعد الألف سين مهملة.

[٥٠] ـ ولما كانت هذه الوقعة بين بني حماد والعرب، وقويت شوكة العرب اغتم تميم لذلك وأصابه حزن شديد، فبلغ ذلك الناصر، وكان له وزير اسمه أبو بكر ابن أبي الفتوح، وكان رجلاً جيداً يحب الإتفاق بينهم ويهوى دولة تميم، فقال للناصر: ألم أشر عليك أن تقصد ابن عمك وأن تتفقوا على العرب؟ فإنكما لو اتفقتما لأخرجتما العرب، فقال الناصر صدقت، ولكن لا مرد لما قدر، فأصلح ذات بيننا.

[٥١] ـ فأرسل الوزير رسولا من عنده إلى تميم يعتذر ويرغب في الإصلاح، فقبل تميم قوله وأراد أن يرسل رسولاً إلى الناصر، فاستشار أصحابه فأجمع رأيهم على محمد بن البعبع وقالوا: هذا رجل غريب، وقد أحسنت إليه وحصلت له منك الأموال والأولاد، فأحضره وأعطاه دواب وعبيداً وأرسله فسار مع الرسول حتى وصل إلى موضع بجاية وكانت حينئذٍ منزلاً فيه رعية من البربر، فنظر إليها محمد بن البعبع وقال في نفسه إن هذا موضع يصلح أن يكون مرسى ومدينة وسار حتى وصل إلى الناصر، فلما وصل دفع إليه الكتاب وأدَّى الرسالة، وقال للناصر: معي وصية إليك وأحب أن يخلو المجلس، فقال الناصر: أنا لا أخفي على وزيري شيئاً، فقال بهذا

أمرني الأمير تميم، فقام الوزير أبو بكر وانصرف. فلما خرج قال الرسول يا مولاي: إن الوزير مخامر عليك وهواه مع الأمير تميم لا يخفي عنه من أمورك شيئاً، وتميم مشغول مع عبيده وقد استبد بهم وأضر بصنهاجة وغيرها، ولو وصلت بعسكر إلى المهدية ما بتّ إلا فيها لبغض الجند والرعية لتميم، وأنا أشير عليك بما تملك به المهدية وغيرها، وذكر له عمارة بجاية وأشار عليه أن يتخذها دار ملكه ويقرب من بلاد إفريقية، وقال له: أنا أنتقل إليك بأهلي وأدير دولتك، فأجابه الناصر لذلك وارتاب بوزيره، وسارع مع الرسول إلى بجاية وترك الوزير بالقلعة.

فلما وصل الناصر والرسول إلى بجاية أراه موضع البناء والبلد والدار السلطانية وغير ذلك، فأمر الناصر من ساعته بالبناء والعمل، وسر بذلك وشكره وعاهده على وزارته إن رجع إليه.

ورجعا إلى القلعة. فقال الناصر لوزيره:

إن هذا الرسول محب لنا، وقد أشار ببناء بجاية ويريد الإنتقال إلينا، فاكتب له جواب كتابه، ففعل. فسار الرسول وقد ارتاب به تميم حيث تجدد بناء بجاية عقيب مسيره إليهم، وحضوره مع الناصر فيها.

[٥٢]ـ وكان الرسول طلب من الناصر أن يرسل معه بعض ثقاته ليشاهد الأخبار ويعود بها، فأرسل معه رجلاً يثق به فكتب معه: «إني لما اجتمعت بتميم لم يسألني عن شيء قبل سؤاله عن بناء بجاية، وقد عظم أمرها عليه، وقد اتهمني، فانظر من تثق به من العرب ترسله إلى موضع كذا فإني سائر إليهم مسرعاً، وقد أخذت عهود زويلة وغيرها على طاعتك» وسير الكتاب.

فلما قرأه الناصر سلمه إلى الوزير فاستحسن الوزير ذلك وشكره، وأثنى عليه وقال: لقد نصح وبالغ في الخدمة، فلا تؤخر عليه إنفاذ العرب ليحضر معهم، ومضى الوزير إلى داره وكتب نسخة الكتاب، وأرسل الكتاب الذي بخط الرسول إلى تميم، وكتاباً منه يذكر له الحال من أوله إلى آخره. فلما وقف تميم على الكتاب عجب من ذلك وبقي يتوقع له سبباً يأخذه به، إلا أنه جعل عليه من يحرسه في الليل والنهار من حيث لا يشعر.

فأتى بعض أولئك الحرس إلى تميم وأخبره أن الرسول صنع طعاماً وأحضر

عنده الشريف الفهري، وكان هذا الشريف من رجال تميم وخواصه، فأحضره تميم فقال: كنت واصلاً إليك، وحدثه أن ابن البعبع الرسول دعاني فلما حضرت عنده قال: أنا في ذمامك أحب أن تعرفني مع من أخرج من المهدية، فمنعته من ذلك وهو خائف.

فأوقفه تميم على الكتاب الذي بخطه وأمره بإحضاره، فأحضره الشريف. فلما وصل الرسول إلى باب السلطان لقيه رجل بكتاب العرب الذين سيرهم الناصر ومعهم كتاب الناصر إليه يأمره بالحضور عنده، فأخذ الكُتب وخرج الأمير تميم، فلما رآه ابن البعبع سقطت الكتب من يده فإذا عنوان أحدها: «من الناصر بن عَلَنَاس إلى فلان» فقال تميم: من أين هذه الكتب؟ فسكت فأخذها وقرأها، فقال ابن البعبع: العفو يا مولاي. فقال لا عفا الله عنك، وأمر بقتله، فقتل وحرقت جثته.

استيلاء تميم على طرابلس

[٥٣] ـ وجهز الأمير تميم في سنة (٤٨٨ هـ) ثمان وثمانين وأربعمائة جيشاً لطرابلس، فأخذها بعد الحصر.

وكان سببه أن أهلها كانوا كارهين لواليها من قبله ولم تزل يده عليهم، فلما وصل إليها شاه ملك من مصر ملكوه من البلد.

وشاه ملك هذا من أولاد بعض أمراء الأتراك ببلاد المشرق ناله في بلاده أمر اقتضى خروجه منها، فسار إلى مصر في مائة فارس زمن الأفضل وأمير الجيوش، فأكرماه وأعطياه أقطاعاً وأموالا.

ثم بلغهما عنه أشياء توجب إخراجه من مصر. فخرج هو وأصحابه هاربين، واحتالوا حتى أخذوا سلاحاً وخيلاً، وتوجهوا إلى المغرب فوصلوا إلى طرابلس وملكوها بواسطة بغض أهلها واليها وأخرجوا واليها.

فلما سمع تميم الخبر جهز العساكر إليها وضيقوا على الأتراك بها ففتحوها ووصل شاه ملك معهم إلى المهدية فسر به تميم ومن معه، وقال: وقد ولد لي مائة أنتفع بهم، وكانوا لا يخطىء لهم سهم.

فلم تطل الأيام حتى جرى لهم أمر غيَّر تميماً عليهم، فعلم شاه ملك ذلك، وكان داهية خبيثاً، فخرج يحيى بن تميم إلى الصيد في جماعة من أعيان أصحابه نحو مائة فارس ومعه شاه ملك، وكان تميم قد قدّم إليه ألا يقرب شاه ملك فلم يقبل.

فلما أبعدوا في طلب الصيد غدر به شاه ملك وقبض عليه وسار به، وبمن أخذ

أمن أصحابه معه إلى صفاقس، وبلغ الخبر تميماً وسير العساكر في أثرهم فلم يدركوهم، ووصل شاه ملك بيحيى إلى صفاقس، فركب صاحبها حمُّو بن مليل ولقي يحيى ومشى في ركابه راجلاً وقبل يده وعظمه واعترف له بالعبودية، فأقام عنده أياماً ولم يذكره أبوه بكلمة، وكان قد جعله ولي عهده.

فلما أُخذ أقام أبوه مقامه ابناً له آخر اسمه «مثنى» ثم خاف حَمُّو يحيى على نفسه أن يثور معه الجند وأهل البلد ويملّكوه عليهم، فأرسل إلى تميم كتاباً يسأله إنفاذ الأتراك وأولادهم ليرسل إليه ابنه يحيى، ففعل ذلك بعد إقتناع منه.

[٥٤]- وقدم يحيى فحجبه أبوه عنه مدة، ثم أعاده إلى حاله ورضي عنه، وجهز معه عسكراً إلى صفاقس فسار إليها وحصرها براً وأقام عليها شهرين، وضيق على الأتراك بها، واستولى عليها بعد أن فارقها الأتراك إلى قابس.

ولما أخذ الحسد أخاه المثنى وأخرجه تميم من المهدية قصد الأمير بكر بن كامل الدهماني بقابس، وحسن له الخروج إلى صفاقس والمهدية وأطمعه فيها وضمن الإنفاق على الجند من ماله، وجمع مثنى من يمكنه جمعه وساروا إلى صفاقس، وبلغهم أن جند تميم قدم عليهم وأنه لا طاقة لهم به، فساروا عنها إلى المهدية فنزلوا عليها وقاتلوها. وكان الذي تولى قتالهم من أهل المهدية يحيى بن تميم، وظهرت منه شهامة وشجاعة وحسن تدبير، فلم يبلغوا منها غرضاً وعادوا خائبين وتلف ما كان مع المثنى من مال وغيره، وعظم أمر يحيى وصار هو المشار إليه.

وفاة تميم بن المعز

[٥٥] ـ وتوفي تميم في رجب سنة (٥٠١ هـ) إحدى وخمسمائة.

وكان شجاعاً، ذكياً له معرفة حسنة، حليماً، كثير العفو على الجرائم العظيمة. عفا عن مظفر كاتب حمو الذي كان يكتب لتميم عن حَمُّو ما يغيظه، ويبلغ منه كل مبلغ لما وصل إليه حين فرّ حمُّو إلى صفاقس، وقد كان دخل عليه وهو لا يشعر، وحين مثل بين يديه طلب العفو فعفا عنه مع شدة حقده عليه، ومثل هذا الذنب لا تغتفره الملوك، بل تتجاوز فيه إلى العقاب، وتتعدى العقاب إلى ضرب الرقاب.

[٥٦] ـ وكان له شعر حسن. فمنه أنه وقع حرب بين طائفتين من العرب: عدي ورياح، فقتل رجل من رياح ثم اصطلحوا وأهدروا دمه، وكان صلحهم مما يضر به وببلاده، فقال أبياتاً يحرض على الطلب بدمه، وهي:

متى كانت دماؤُكم تُطَلُّ ... أما فيكمْ بثأر مستقِلُّ
أغانمُ ثم سالمُ إن فشِلتم ... فما كَانت أوائلُكم تذل
ونمتم عن طِلابِ الثأرِ حتى ... كأن العِزَّ فيكم مُضْمحِلُّ
ولا كسَّرتُم فيه العوالي ... ولا بيضاً تَفُلُّ وَلا تُسلُّ

فعمد أخو المقتول حين سمعها فقتل أميراً من عدي، واشتد بينهم القتال وكثرت القتلى حتى أخرجوا بني عدي من إفريقية.

[٥٧] ـ ومن محاسنه أنه اشترى جارية بثمن كثير، فبلغه أن مولاها الذي باعها ذهب عقله وأسف على فراقها، فأحضره تميم بين يديه، وأرسل الجارية إلى داره ومعها الكسوات وأواني الفضة وغيرها، ومن الفضة شيء كثير، ثم أمر مولاها

بالإنصراف وهو لا يعلم، فلما وصل إلى داره ورآها على تلك الحال خرّ مغشياً عليه لشدة سروره ثم أفاق، فلما كان الغد أخذ الثمن وجميع ما كان عليها وأعاده إلى دار تميم، فانتهره وأمره بإعادة جميع ذلك إلى داره.

[٥٨] ـ وكان له في البلاد أصحاب أخبار لهم أرزاق سنية ليطلعوه على أحوال أصحابه لئلا يظلموا الناس، فكان بمدينة القيروان تاجر له مال وثروة، فذكر بعض الأيام التجار تميماً ودعوا له وذلك التاجر حاضر، فترحم على أبيه ولم يذكره، فرفع ذلك إلى تميم، فأحضره إلى قصره فسأله: هل ظلمتك؟ قال: لا. قال فهل ظلمك بعض أصحابي؟ قال لا. قال: فلم أطلقت لسانك أمس بذمّي؟ثم قال له: لولا أن يقال شرّه في ماله لقتلتك، ثم أمر بصفعه في حضرته قليلاً، ثم أطلقه فخرج وأصحابه ينتظرونه، فسألوه ما الخبر؟ فقال: «أسرار الملوك لا تذاع» فكانت بإفريقية مثلاً.

وكان عمره ستاً وسبعين سنة، تولى منها ستاً وأربعين سنة وعشرة أشهر وعشرين يوماً. وخلف من الذكور ما يزيد على المائة، ومن الإناث ما يزيد على الستين.

ولاية يحيى بن تميم

[٥٩] ـ ولما مات تميم تولى ابنه يحيى في رجب من السنة المذكورة.

وكان عادلاً في رعيته ضابطاً لأمور دولته، رحيماً بالضعفاء والفقراء، يكثر الصدقة عليهم، ويقرب أهل العلم والفضل، وكان عالماً بالأخبار وأيام الناس والطب، وكان حسن الوجه أشهل العين، إلى الطول ما هو.

[٦٠] ـ ولما استقر في الملك جهز أسطولاً إلى جزيرة جِرْبة. وسببها: أن أهلها يقطعون الطريق ويأخذون التجار، فحصرها وضيَّق على من فيها، فدخلوا تحت حكمه، والتزموا ترك الفساد، وضمنوا إصلاح الطريق، فكف عنهم عند ذاك، وصلح أمر البحر، وأمن المسافرون وتوفي سنة (٥٠٩ هـ) تسع وخمسمائة.

وكان موته فجأة يوم عيد الأضحى. وكان منجمه قد قال له في تسيير مولده: إنَّ عليه قطعاً في هذا اليوم فلا تركب، فلم يركب وخرج أولاده وأهل دولته إلى المصلى، فلما انقضت الصلاة حضروا عنده للسلام عليه وتهنئته، وقرأ القراء، وأنشد الشعراء، وانصرفوا إلى الطعام، فقام يحيى من باب آخر ليحضر معهُم على الطعام، فلم يمش غير ثلاث خطوات حتى وقع ميتاً.

وكان ولده عليّ بمدينة صفاقس فأحضر وعقدت له الولاية.

[٦١] ـ ودفن يحيى بالقصر ثم نقل إلى التربة بالمنستير.

وكان عمره عمره اثنتين وخمسين سنة وخمسة عشر يوماً، وكانت ولايته ثمان سنين وخمس أشهر وخمسة وعشرين يوماً.

وخلف ثلاثين ولداً، ورثاه عند موته الشعراء، ومنهم عبد الجبار بن محمد بن حمديس الصقلي بقصيدة، وهنأ فيها ابنه علياً. وهي قوله:

ما أُغمِد العضبُ حتى جُرِّدَ الذكَرُ ... ولا اختفى قمرٌ حتى بدا قَمَرُ
بموتِ يَحيى أُمِيت الناسُ كلُّهم ... حتى إذا ما عليٌّ جاءهم نُشروا
إن يُبعثوا بسرور مِن تملُّكه ... فمن مَنِيَّةِ يَحيى بالأسى قُبِروا
وافى عليّ بسن المُلك ضاحكةً ... وعينُه من أبيه دمعُها هَمِر
شُقت جيوب المعالي بالأسى فبَكَت ... من كل أُفُقٍ عليه الأنجمُ الزهر
وقلَّ لابنِ تميمٍ حُزنُ مأتمها ... فكلُّ حُزنٍ عظيمٍ فيه مُحتقَر
قام الدليلُ - ويَحيى لا حياةَ له - ... إنَّ المنيةَ لا تُبقِي ولا تَذَرُ

ولاية علي بن يحيى بن تميم

[٦٢] ـ ولما تولى عليّ علت همته وأنف مما كان يفعله قواده، ومنهم رافع بن بكر الدهماني قائد قابس.

وكان لا يصنع أحد بإفريقية أسطولاً لحمل التجارة في البحر إلا أميرها، وكان رافع اصطنع في أيام يحيى أسطولاً لحمل التجارة، فلم ينكر عليه يحيى جرياً على عادته في المداراة.

فلما استقر عليّ في الملك لحقته أنفة وبعث إلى رافع يمنعه من ذلك، فالتجأ إلى رجار صاحب صقلية ـ لعنه الله ـ واعتضد به فوعده أن ينصره ويعينه على إجراء مراكبه في البحر، وأنفذ في الحال أسطولاً إلى قابس، فاجتاز أسطوله بالمهدية فتحقق عليّ اتفاقهما، وكان إذا قيل له اتفقا على ذلك يكذبه، فلما اجتاز الأسطول بالمهدية أخرج عليّ أسطولَه إثره فتوافى الجميع إلى قابس، فلما شاهد رافع أسطول الإفرنج و [أسطول] المسلمين لم يخرج [من أسطوله] مركب، فعاد أسطول الإفرنج وبقي أسطول عليّ يحصر قابساً مضيقاً عليها، ثم عاد إلى المهدية.

[٦٣] ـ وتمادى رافع في المخالفة لعلي وجمع قبائل العرب وسار بهم حتى نزل المهدية فحاصرها، وخادع علياً وقال: إنما جئت للدخول في الطاعة؛ وطلب من يسعى له في الصلح، وأفعاله تكذب قوله فلم يجبه عليٌّ بحرف، وأخرج العساكر فحملوا على رافع حملة منكرة فألحقوهم بالبيوت، ووصل العسكر إلى البيوت.

فلما رأى ذلك النساء صحن وَوَلْوَلْنَ، فعادت العرب وعاودت القتال، واشتد الأمر، ودامت الحرب إلى الغروب ثم افترقوا، وقتل من أصحاب رافع بشر كثير،

ولم يقتل من جند عليّ غير جندي واحد من الرجالة، ثم خرج عسكر عليّ مرة أخرى فاقتتلوا أشد من القتال الأول وكان الظهور فيه لعسكر عليّ، فلما رأى رافع أنه لا طاقة له بهم رحل من المهدية ليلاً إلى القيروان فمنعه أهلها من الدخول فقاتلهم ثم دخلها، فأرسل إليه عليّ عسكراً فحاصره إلى أن خرج منها وعاد إلى قابس، ثم سأله جماعة من أعراب إفريقية وغيرهم الصلح فأبى ثم أجاب.

[٦٤] - وكانت استجارة رافع برجار سبب الوحشة بينه وبين عليّ، وكانت بينهما مودة أكيدة، فخاطبه رجار بقول لم تكن عادته أن يخاطبه به، وأغلظ فيه، فتأكدت الوحشة وحذر عليّ منه، وأمر بتجديد الأسطول وإعداد الأهبة للقاء العدو، وكاتب المرابطين بمراكش في الدخول معه إلى صقلية، فكف رجار عما كان يعتزمه، وتوفي عليّ سنة (٥١٥ هـ) خمس عشرة وخمسمائة، في العشر الأواخر من ربيع الآخر، وكان مولده بالمهدية. وكانت إمارته خمس سنين، وأربعة أشهر وثلاثة عشر يوماً.

ولاية الحسن بن علي بن يحيى

[٦٥] ـ وتولى ابنه الحسن بعهد منه، وتولى أمر الدولة صندل الخصى، مولاه. وفي أيام الحسن خرجت عن بيعته طرابلس، وقصدها رجار صاحب صقلية، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

كان سن الحسن بن علي يوم ولايته اثنتي عشرة سنة.

ولما تولى أمره صندل راسل أمير المؤمنين علي بن يوسف بن تاشفين الملثم بمراكش لماكان بينه وبين والده من المودة لما وقعت الوحشة بينه وبين رجار صاحب صقلية، بسبب الأسطول الذي كان قد صنعه عامله مكي بن كامل الدهماني والي قابس من قبله لحمل التجارة، واستعانة مكي بن كامل برجار، واتفق أن وصل بأثر توليته أسطول أمير المؤمنين علي بن يوسف مع قائده علي بن ميمون إلى بلاد رجار، فافتتح منها حصوناً وسبى منها سبايا كثيرة، فلم يشك النصراني أن الباعث لعليّ بن يوسف على ذلك إنما هو الحسن، فاستجاش وحشد أجناده ومقاتلته وبالغ في كتم أمره بمنع السفن من سواحل المسلمين، فلم يخف على الحسن مقصده، وخشي أن يطرق بلاده دون أهبة له، فأمر باتخاذ الأسلحة وتشييد الأسوار، واستقدام القبائل من الأعراب وغيرهم للجهاد. فوصلت الحشود إليه من كل جهة، ونزلت الأعراب بظاهر المهدية.

[٦٦] ـ فلما كان يوم السبت لخمس بقين من جمادى الأولى سنة (٥١٧ هـ) سبع عشرة وخمسمائة وصل أسطول رجار إلى المهدية فرسي بالجزيرة المعروفة بجزيرة الأحاسي وهي على عشرة أميال من المهدية، ونزل قائداه عبد الرحمن

وجورجي إلى الجزيرة وضربت لهما ولمقدمي الإفرنج مضارب هناك، وكان وصولهم آخر النهار فخرج منهم إلى البر تلك الليلة خلق كثير وانبسطوا حتى تعدوا عن البحر أميالاً، ثم عادوا إلى الجزيرة، ووصل القائدان في اليوم في البحر إلى المهدية في بعض قطع، فأطافا بها وانتهيا إلى ساحل زويلة، فهالهما ما رأيا بالأسوار والسواحل من الناس وانصرفا عائدين إلى الجزيرة فوجدا طائفة من العرب والأجناد قد حطوا حواليها وكشفوا من كان بها من الروم عن مواضعهم، وقتلوا منهم قوماً ونهبوا بعض أسلحتهم، فلما كان اليوم الثالث تمكن النصارى من القصر المعروف بقصر الديماس، وحصرنه [منهم] زهاء مائة بإعانة بعض الأعراب لهم على ذلك لما مناهم به عبد الرحمن وصاحبه.

[٦٧] - وقد كان رجار أمرهما بالنزول بجزيرة الأحاسي، والتحيل على أخذ قصر الديماس بمباطنة العرب، ثم الزحف من هنالك في البر بالرجال والخيل إلى المهدية. فلما كان في اليوم الرابع اجتمع المسلمون وخرجوا من المدينة وكبروا تكبيرة راعت من في الجزيرة فظنوا أنهم داخلون إليهم فانهزموا إلى مراكبهم وقتلوا بأيديهم كثيراً من خيلهم، ودخل المسلمون الجزيرة وليس بها أحد منهم، فوجدوا بها خيلاً وآلات وأسلحة أعجلهم الهرب عنها، وأحاطوا الديماس يقاتلونه والأسطول في البحر يعاين ذلك ولا يستطيع إغاثة من في القصر لكثرة ما اجتمع في البر من عساكر المسلمين.

[٦٨] - فلما عاينوا أنهم غير قادرين على إنقاذ من بالقصر أقلعوا عائدين إلى صقلية، وأقام المسلمون يقاتلون من حصر بقصر الديماس منهم إلى أن اشتد الحصار عليهم وفنى ماؤهم وطعامهم، فخرجوا منه ليلة الأربعاء الرابع عشر من جمادى الآخرة، فتلقتهم سيوف الأعراب فقتلوهم عن آخرهم، وهنىء الحسن بهذا الفتح. ولم يدر ما تحت طيه من المحنة التي خصت وعمت المسلمين، وكتبت عنه في ذلك كتب إلى سائر الجهات، منها كتاب يقال في بعض فصوله:

«وإن صاحب [صقلية] لَجَّ في طغيان غيه، واستمر على عداوته وبغيه، وحمله سوء تقديره وفساد تدبيره، على اهتضام جانب الإسلام، وتوهم أن ذلك سهل الملتمس قريب المرام، فاستجاش وحشد، واستنفر واستمد.

ولما اشتملت له في ظنه أموره، وكمل تدبيره الذي فيه تدميره، سير أسطوله

نحو المهدية ـ حماها الله ـ في نحو من الثلاثمائة مركب حاملة ثلاثين ألف راكب، وزهاء ألف فارس. وكان إقلاعه في طالع مقارن للنحوس، قاضٍ عليه بإتلاف أمواله وإهلاك النفوس. فمن أول ما أنشأه الله فيه من فعل الجميل، وأظهره من عنايته التي لا يؤدي حقها بغير الشكر الجزيل، أن أرسل عليهم ريحاً جرّت جميعهم إلى التيار وأصلتهم بين الماء حر النار» في كلام طويل.

[٦٩] ـ ولما أقلع الأسطول إلى صقلية خائباً خاسراً غاظ رجار ذلك. واتفق بأثر ذلك أن وصل الأسطول الملثم مرة أخرى، وقائده محمد بن ميمون المذكور، وقبل مغادرة بلاد رجار قتل وحمل نساءها سبياً إلى بلاده. وكان رجار كلما وصل أسطول من المغرب إلى بلاده نسبه إلى الحسن، فعزم العزم المصمم على غزو المهدية وأفشى في ظاهر الأمر أن بينه وبين الحسن صلحاً، وفي نفسه ما فيها لتتم خديعته ويتمكن من مراده.

[٧٠] ـ وكان بين الحسن وبين ابن عمه يحيى بن العزيز بن منصور بن الناصر ابن علناس المتقدم الذكر صاحب بجاية ما أوجب أن بعث في هذه المرة لمحاصرته بالمهدية أسطولاً في البحر وجيشاً في البر قائده مطرف بن علي بن حمدون الفقيه، فحصر المهدية براً وبحراً، ونزل مطرّف بجيشه بظاهر زويلة، فاستمد لحسن رجار فأمده بأسطول، فعلم مطرف بذلك فارتحل عن المهدية مسرعاً.

وكانت لرجار جواسيس بالمهدية فكتبوا إليه يعلمونه أنه بمرساها مراكب قد استوفت وسقها، فأمر جرجي قائد أسطوله المتوجه للنصرة بالهجوم عليها وأخذها، فأخذ ذلك غدراً وحملها إلى صقلية، ثم هجم بعد ذلك على مرسي المهدية فأخذ منه مركباً للحسن قد احتفل به وشحنه بذخائر ملوكية ليوجه بها إلى الحافظ العبيدي صاحب مصر، وكان ذلك المركب يسمى نصف الدنيا.

[٧١] ـ ولم يزل يوالي الغزو عليه بأساطيله ـ والمقدم عليها جرجي المذكور، وهو العارف بالمهدية حاضرة وبادية ويسعفه في ذلك ـ إلى أن دخلت سنة (٥٤٣ هـ) ثلاث وأربعين وخمسمائة، فلم يشعر الحسن صبيحة يوم الإثنين الثاني من صفر إلا وقد طلع عليه جورجي المذكور في ثلاثمائة مركب، فأرسى على بعد من المهدية، وكانت الريح منعته من الدخول إلى المرسي فأرسل إلى الحسن يخادعه، ويذكر أنه إنما وصل لطلب عسكر يستعين به على أهل قابس ليرد إليها ابن رشيد واليها الفارّ إليه

مستغيثاً به ـ وله قصة طويلة من رامها فليراجع محلها ـ فعلم الحسن أنها مخادعة إلى أن يتهيأ له الريح فيدخل إليها، وأنه لم يصل إلا بعد علمه بخلاء المهدية من العسكر، وكان الغلاء المتوالي على إفريقية أضعف أكثر جند الحسن وأهلك خيلهم، ومع ذلك كانت بقية العسكر في محاربة ابن خراسان بتونس عضداً لمحرز بن زياد الفادعي صاحب المعلقة. فعزم الحسن على تسليم المهدية للنصارى وأمر في الحين بالرحيل عنها وخرج من القصر بما خف معه ومن أمكنه من أهله وولده وحشمه وتبعه الناس فارين بما قدروا عليه من أهل وولد، وجرى عليهم في هذه الضغطة ما لم يكونوا يقدرونه. وكان الحسن يقول عند خروجه: «سلامة المسلمين أحب إليّ من الملك والقصر» كذا ذكر ابن شداد.

سقوط المهدية في يد رجار

[٧٢] ـ وبقي الأسطول على ظاهر البحر لا يمكنه الدخول إلى البلد بسبب عدم إسعاف الريح إلى الساعة السابعة من حين وصوله، ثم لانت الريح فدخل، ووجد المهدية خالية فملكها دون دفاع. ووجد جورجي قصر الحسن على حاله لم يحمل منه الحسن إلا ما خف له. فرأى فيه من الذخائر الملوكية ما هاله، وحكم على ذلك كله، وأمر أن ينادي في المهديتين بالأمان، فارتفع النهب منهما وأخرج جميع النصارى من المهديتين فأنزلهم فيما بينهما من مضارب وأخبية، فكان من بقي في المهدية أحسن حالاً ممن فرّ منها، فإن الفارين لقوا من المشقة وعدم الماء ما أهلك أكثرهم إلى أن تداركهم جورجي فبعث إليهم خيلاً يعلمهم بالأمان فرجعوا إلى بلدهم، وفرق عليهم مالاً وطعاماً أقرضهم إياه، فصلحت أحوالهم واغتبط الناس بالمهدية لما رأوا من عدل النصارى فعمرت أحسن عمارة.

[٧٣] ـ وسار الحسن إلى عسكره الذي قدمنا أنه كان في نصرة محرز بن زياد، فلقيه محرز بالبر والإكرام وأنزله عنده فأقام هنالك أشهراً وهو كاره للإقامة لما يرى في عيني محرز من السآمة، فأحب الإنتقال إلى مصر ـ وواليها إذ ذاك [الحافظ] عبد المجيد، بن محمد، بن المنتصر، بن الظاهر، بن الحاكم بن العزيز، بن المعز، ابن المنصور، بن القائم، بن المهدي، وباسمه كان الحسن يخطب في بلاده فابتاع من تونس مركباً أعد لسفره، فعلم جورجي بذلك فأعد له عشرين قطعة ترقب إقلاعه، فعدل عن السفر إلى مصر.

[٧٤] ـ ونظر في التوجه إلى الخليفة عبد المؤمن بن علي وأنفذ كبار ولده

يحيى وتميماً وعياله إلى ابن عمه يحيى بن العزيز يستأذنه في الوصول إليه، وتجديد العهد والسير من عنده إلى عبد المؤمن، فأذن له يحيى فسار إليه، فلما وصل إليه لم يجتمع به يحيى وسيره إلى جزيرة مرغنّان هو وأولاده، ووكل بهم من يمنعهم من التصرف، فبقوا كذلك إلى أن ملك عبد المؤمن بن علي بجاية.

[٧٥] ـ وكان وزير يحيى ميمون بن حمدون، تلقى بني الحسن أحسن تلق، وكتب على لسان يحيى إلى الحسن بالتوجع عما جرى عليه، والتحريض على الوصول، والعدول عما خطر بباله من قصد غيره، فأعلم الحسن محرز بن زياد بما كتب إليه ابن عمه، فأشار إليه بالتنكب عنه وأن يتوجه حيث ما أحب فهو خير له منه، فلم يطعه الحسن في التوجه إلى بجاية، فلما قرب منها ندب يحيى وزيره إلى لقاء الحسن فامتنع عن ذلك، وأمر أخاه قائد بن العزيز بالخروج إلى لقائه مع مشيخة البلد، وأن يعدلوا به عن بجاية إلى الجزائر فيكون مقامه بها، ففعل أخوه ذلك وأنزله هو وأولاده بمدينة الجزائر في أمكنة لا تليق بهم، وأجرى عليهم جرايات لا تكفيهم، وأمر ميموناً بمراعاة أحوال الحسن، ومنعه من السفر والكَتْبِ إلى الخليفة عبد المؤمن ابن علي، لما توقعه من استعانة عبد المؤمن به في أخذ بجاية، فبالغ في التشديد عليه في ذلك، وأقام بها ساكناً إلى أن نزل عبد المؤمن المغرب الأوسط، وقد تغلب على جميع بلاد المغرب الأقصى، وجميع جزيرة الأندلس، وذلك سنة (٥٤٧ هـ) سبع وأربعين وخمسمائة، وتغلب على مليانة والجزائر، فاجتمع بالحسن هنالك، وسار إليه وهو بمدينة متيجة، وأقبل عليه عبد المؤمن وقربه إليه واستصحبه معه، وجعل الحسن يغريه على أخذ بجاية حسداً لابن عمه، ورغبة في خروج الملك من يديه ليستووا في ذلك.

فنزل عبد المؤمن إلى بجاية والحسن معه، فاستولى عليها وعلى جميع أعمالها، وكان ذلك بعد هزيمة صنهاجة بجبل زيري وإعانة يحيى على نفسه بإنهماكه في لذاته وإهمال تدبير دولته وتفويض الأمر لغيره.

[٧٦] ـ فلما استولى عبد المؤمن على بجاية فرَّ يحيى بن العزيز منها في البحر وكان مرامه التوجه إلى بونة والنفوذ من ذلك إلى بغداد لعلمه أن الخليفة العبيدي بمصر ينقم عليهم الخلع الأول، فلما وصل إلى بونة جعل الحارث يتأفف منه ويغويه على إهمال الملك، فخرج عنه يحيى إلى قسنطينة وبها إذ ذاك أخوه الحسن بن العزيز، فأكرمه وتخلى له عن الأمر، فأقام بقسنطينة أياماً يعمل أمره إلى أن أناب إلى

الطاعة ودخل في إيالة الموحدين، ووصل إلى الخليفة فأكرمه وأنزله مع ابن عمه الحسن بن علي، ثم كانت لعبد المؤمن على المغرب الوقعة المعروفة «بوقعة سطيف» هزم فيها طوائفهم وطلع إلى حضرة مراكش بجميع من حكم عليه، ومن جملتهم الحسن بن علي ويحيى بن العزيز، وأسكنهما بمراكش في رفاهية ورزق جار.

[٧٧] ـ ولما كانت سنة (٥٤٨ هـ) ثمان وأربعين وخمسمائة، وصل الخليفة إلى سلا واستصحب معه يحيى بن العزيز وأسكنه بها في بعض قصور بني عشرة، وأقام بسلا إلى أن مات هناك ودفن بمقابرها الجوفية مما يلي البحر ثم عاد إلى مراكش وبها الحسن بن علي مقيماً، فلما وصل إليها لم يزل الحسن يغريه بالحركة إلى إفريقية ويحضه عليها وعلى إنقاذ المهدية من أيدي النصارى إلى أن تاقت نفسه إلى ذلك، فأخذ في الحركة إليها سنة (٥٥٤ هـ) أربع وخمسين وخمسمائة، وكانت بيد رجار صاحب صقلية ملك الإفرنج، وكان افتكها من يد الحسن في صفر سنة (٥٤٣ هـ) ثلاث وأربعين وخمسمائة.

حصار رجار طرابلس

[٧٨] ـ وكان رجار هذا سنة (٥٣٧ هـ) سبع وثلاثين وخمسمائة قصد طرابلس بأسطوله ليأخذها لما علم أنهم لم يدخلوا يداً في بيعة الحسن بن علي، وكانوا قدموا عليهم مشايخ من بني مطروح يدبرون أمورهم، فظن أنهم لا يقدرون على شيء، فسير إليها أسطولاً فحاصرها أهله، وكان ذلك تاسع ذي الحجة، فنازلوا البلد وقاتلوه، وعلقوا الكلاليب في سوره ونقبوه حتى كادوا يأخذونه.

فلما كان الغد نزل جماعة من العرب نجدة لأهل البلد، فقوى بهم أهل البلد، فخرجوا إلى [أهل] الأسطول وحملوا عليهم حملة منكرة، فانهزموا هزيمة فاحشة، وقتل منهم خلق كثير ولحق الباقون بالأسطول، وتركوا الأسلحة والأثقال والدواب فنهبها العرب وأهل البلد، ورجع الإفرنج إلى صقلية وتجهزوا وعادوا إلى المغرب فوصلوا إلى جيجل، فلما رآهم أهل البلد هربوا منهم إلى البراري والجبال فدخلها الإفرنج وسبوا من أدركوا فيها، وهدموها وأحرقوها وأحرقوا القصر الذي بناه يحيى ابن العزيز للتنزه وعادوا.

رجار يحتل طرابلس

[٧٩] ـ ثم وجه رجار لطرابلس أسطولاً كبيراً في سنة (٥٤١ هـ) إحدى وأربعين وخمسمائة فأحاطوا بها براً وبحراً ثالث المحرم، فخرج إليهم أهلها ونشب القتال ودامت الحرب بينهم ثلاثة أيام، فلما كان الثالث سمع الإفرنج في البلد ضجة عظيمة وخلت الأسوار من المقاتلة.

[٨٠] ـ وكان سبب ذلك أن أهلها كانوا قبل وصول الإفرنج بأيام يسيرة قد اختلفوا، فأخرجت طائفة منهم بني مطروح وقدموا عليهم رجلاً من الملثمين يريد الحج ومعه جماعة وولوه أمرهم، فلما نازلهم الإفرنج أعادت الطائفة الأخرى بني مطروح فوقع الحرب بين الطائفتين، وخلت الأسوار، فانتهز الإفرنج الفرصة ونصبوا السلاليم وصعدوا السور فاشتد القتال وملكت المدينة عنوة بالسيف، فسفكوا دماء أهلها، وأخذوا نساءهم وأموالهم، وهرب من قدر على الهرب، والتجأوا إلى البربر والعرب، ثم نودي بالأمان في كافة الناس فرجع كل من فر منها وأقام الإفرنج ستة أشهر حتى حصنوا سورها، وحفروا خندقها. ولما عادوا أخذوا رهائن من أهلها ومعهم بنو مطروح والملثم، ثم أعادوا رهائنهم.

ولاية رافع بن مطروح الأولى
على طرابلس

[٨١] ـ وولوا عليهم رجلاً من بني مطروح وتركوا رهائنه وحده، واستقامت أمور المدينة، وانضم أهل صقلية والروم إليها فعمرت سريعاً وحسن حالها، هذا ما لابن الأثير.

[٨٢] ـ وذكر التجاني أن رجار أخذها سنة أربعين وخمسمائة بعد أن أخذ المهدية، وسبب ذلك أن أهلها في تلك السنة أصابتهم شدة عظيمة، ومجاعة مهلكة هلك فيها الناس وفروا من أوطانهم، فجهز إليها رجار الرومي صاحب صقلية أسطولاً فحاصرها به، وذلك بعد استيلائه على المهدية وصفاقس واستقرار ولايته عليهما.

ووقع خلف بين أهل طرابلس أدى إلى تغلب أسطول الروم عليها، فأحسن قائده جرحى بن ميخائيل إلى أهلها لما أضمره من تملك غيرها من البلاد الساحلية وأبقى فيها جنده من المسلمين والصقليين وغيرهم، وولى عليها شيخها أبا يحيى بن مطروح التميمي، وجعل قاضيهم أبا الحجاج يوسف بن زيري، فكانت أحكام المسلمين كلها مصروفة إلى واليهم وقاضيهم، ولم يكن النصراني يتعرض لشيء من أحكامهم.

[٨٣] ـ وأقامت تحت تغلب النصارى اثني عشر عاماً إلى أن افتتح عبد المؤمن ابن علي أكثر بلاد إفريقية، فخاف النصارى أن يمالئه أهل طرابلس فأحبوا أن يثيروا بين المسلمين الموحدين وأهل طرابلس عداوة، فأمروهم أن يصعدوا المنابر ويتكلموا في جهة الموحدين بسوء، وكان ذلك سنة (٥٥٤ هـ) أربع وخمسين وخمسمائة، لما

بلغهم مُلك عبد المؤمن أكثر بلاد إفريقية، فأعظم ذلك أهل طرابلس واجتمعوا على قاضيهم أبي الحجاج، فسفر بينهم وبين النصارى، وأعلم النصارى ألاّ سبيل إلى نيل ذلك، وأن الأمر إنما كان العقد بينهم ألا يكلفوا المسلمين شيئاً مما يخالف أمر دينهم، وذكرُ أهل الدين بسوء مما يخالف أمرَ دينهم، فإن رضوا منهم بذلك وإلاّ سلموا لهم البلد وخرجوا عنه، فأعفاهم النصارى من ذلك.

[٨٤] ـ وتعاقدوا على القيام عليهم والتخلص من أيديهم وأسروا النجوى بذلك بينهم، واتّعدوا لليلة معينة، ونصبوا في تلك الليلة خشباً وأناشيط في الطرقات تمنع الخيل من الجري فيها وثاروا عليهم، فبادر النصارى إلى خيولهم وركضوها فلم تجد مجالاً، فأخذوا قبضاً باليد وعاد البلد إلى تملك المسلمين، وكان قيامهم عليهم في سنة (٥٥٣ هـ) ثلاث وخمسين وخمسمائة.

ولاية رافع بن مطروح الثانية على طرابلس

[٨٥] ـ وحكم على البلد شيخه [أبو] يحيى رافع بن مطروح التميمي، وكان رجلاً شهماً، صانع العرب المجاورين له، فاستقر حاله بها إلى أن نزل الخليفة عبد المؤمن بن علي إلى إفريقية في سنة خمس وخمسين وخمسمائة، ووصلت إليه وفود البلاد فكان من جملتهم وفد طرابلس، قدم بهم [أبو] يحيى رافع بن مطروح التميمي فبايعوا عبد المؤمن، وأقر عليهم شيخهم أبا يحيى بن مطروح التميمي المذكور، فلم يزل محمود السيرة فيهم إلى أن عجز في أيام أبي يعقوب بن عبد المؤمن، وقيده الهرم فطلب التوجه إلى الحج، فسرحه السيد أبو زيد بن أبي حفص [محمد] بن عبد المؤمن المذكور، فتوجه بجميع أهله في البحر واستقر بالإسكندرية وكان دخوله لها سنة (٥٦٨ هـ) وبها مات. كذا ذكره البيساني في مياومته. وهو الذي أنشد لما كان بمصر:

لَوقفةٌ بَيْنَ بابِ البحرِ ضاحيَةً ... وبابِ هوارةٍ وموقفِ الغنم
أشهى إلى النفس من كَسرِ الخليج ومن ... ديرِ الزُّجاج وشاطىء بِركة الخدم

اهـ. ما للتيجاني.

[٨٦] ـ وذكر ابن الأثير أن عبد المؤمن قدم إفريقية وبايعه أهل طرابلس سنة أربع وخسمين وخمسمائة. والله أعلم أي ذلك كان، ولم تستول عليها يد العدو من لدن الفتح غير هذه المرة وسنة (٩١٦ هـ) ست عشرة وتسعمائة.

[٨٧] ـ وذكر ابن بطوطة: أن العدو استولى عليها في أيام السلطان أبي عنان.

وافتداها منه بخمسة قناطير من الذهب العين وردها للمسلمين، فعد ذلك من مآثره الحسنة من اعتنائه بشأنها. ولم أقف على تاريخ استيلائهم ولعل ذلك إنما كان فيما بين سنة ست وسبعمائة إلى سنة ست عشرة وسبعمائة، إذ فيما بينهما كانت دولة بني مَرين الذين منهم أبو عنان، ولعل ذلك إنماكان بعد اضطراب حالها بعد بيعة أهلها الموحدين، وتوالى فتن شرف الدين قراقش الأرمني مملوك الملك المظفر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاه ابن أخي السلطان صلاح الدين بن يوسف بن أيوب الكردي، ويحيى بن إسحاق الميورقي.

[٨٨] ـ وذلك أن عليّ بن إسحاق الميوْرقي كانت بينه وبين قراقُش المذكور مهادنة ومصالحة، وكانا يجتمعان في أكثر حروبهما، ويقيمان الدعوة لبني العباس بطرابلس وبعض من إفريقية.

انتقال قراقش إلى إفريقية

[٨٩] ـ وسبب انتقال قراقش ـ على ما ذكره المؤرخون ـ أن عم سيده الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب إنما ملك هو وعمه أسد الدين شيركوه مصر بجيش نور الدين محمود بن زنكي وقوة سلطانه، وكانا من قواده وأعوانه.

ولما توفي أسد الدين حدثت بين صلاح الدين بن أيوب ونور الدين زنكي وحشة، وكان ذلك سنة ثمانٍ وستين وخمسمائة، احتاط صلاح الدين بسببها، وقسم أمره بين بلاد اليمن وبلاد المغرب، وبنى على الإندفاع أمامه إن وصله نور الدين.

[٩٠] ـ وسبب الوحشة: أن صلاح الدين يوسف بن أيوب عمد من مصر إلى بلاد الإفرنج غازياً، ونازل حصن شوبك وبينه وبين الكرك يوم، وحاصره وضيق على من به من الإفرنج، وأدام القتال، فطلبوا الأمان واستمهلوه عشرة أيام فأجابهم إلى ذلك، فلما سمع نور الدين بن زنكي بما فعله صلاح الدين سار عن دمشق قاصداً بلاد الإفرنج أيضاً ليدخلها من جهة أخرى، فقيل لصلاح الدين: إن دخل نور الدين بلاد الإفرنج وهم على هذه الحالة أنت من جانب وهو من جانب ملكها، ومتى زال الإفرنج عن الطريق وأخذ ملكهم لم يبق لك بديار مصر مقام مع نور الدين: وإن جاء نور الدين إليك وأنت هاهنا فلا بد لك من الإجتماع به ويكون هو المتحكم فيك بما شاء، إن شاء تركك فعل، وإن شاء غير ذلك فعل، فلا تقدر على الإمتناع عليه والمصلحة الرجوع إلى مصر. فرحل عن الشوبك عائداً إلى مصر ولم يأخذه من الإفرنج.

[٩١] ـ وكتب صلاح الدين إلى نور الدين يعتذر باختلال البلاد المصرية لأمور بلغته عن شيعة العلويين، وأنهم عازمون على الوثوب بها وأنه يخاف عليها من البعد عنها أن يقوم أهلها على من يخلفه بها فيخرجونهم وتعود ممتنعة، وأطال الإعتذار. فلم يقبله نور الدين منه وتغير عليه وعزم على الدخول إلى مصر وإخراجه منها.

فلما سمع صلاح الدين الخبر جمع أهله وفيهم أبوه نجم الدين أيوب؛ وخاله شهاب الدين الحازمي وغيرهم ومعهم سائر الأمراء وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين وحركته إليهم، واستشارهم فلم يجبه أحد بكلمة.

[٩٢] ـ فقام تقي الدين عمرو ابن أخي صلاح الدين فقال: إذا جاءنا قاتلناه ومنعناه عن البلاد، ووافقه غيره من أهلهم؛ فشتمهم نجم الدين أيوب، وأنكر ذلك واستعظمه، وشتم تقي الدين وأقعده، وقال لصلاح الدين: أنا أبوك، وهذا شهاب الدين خالك ونحن أكثر محبة [لك] من جميع من ترى، والله لو رأينا نور الدين لم يمكنا إلا أن نقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فإذا كنا نحن هكذا فما ظنك بغيرنا، وكل من ترى من الأمراء لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم، وهذه البلاد له، ونحن مماليكه ونوابه فيها فإن أراد عزلك سمعنا وأطعنا. والرأي أن تكتب كتاباً مع نجاب تقول: بلغني أنك ترى الحركة لأجل البلاد فأي حاجة إلى هذا؟ يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني إليك، فما هاهنا من يمتنع عليك وقام الأمراء وغيرهم فتفرقوا على هذا.

[٩٣] ـ فلما خلا به أبوه قال له: بأي عقل فعلت هذا؟ أما تعلم أن نور الدين إذا سمع بعزمنا على منعه ومحاربته جعلنا أهم الوجوه إليه وحينئذٍ لا نقوى عليه، وأما الآن إذا بلغه ما جرى وطاعتنا له تركنا وتشاغل بغيرنا والأقدار تعمل عملها، والله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل، ففعل صلاح الدين ما أشار به، فترك نور الدين تعجيل قصده واشتغل بالأهم عنها إلى أن توفي سنة (٥٦٩ هـ) تسع وستين وخمسمائة، وكان في تلك السنة شرع يتجهز للدخول إلى مصر، فأتاه أمر الله الذي لا مرد له.

[٩٤] ـ وكان أسمر اللون طويل القامة ليس له لحية إلا في حنكه، وكان واسع الجبهة حسن الصورة حلو العينين، وكان قد اتسع ملكه جداً، وخطب له بالحرمين الشريفين، وباليمن لما دخلها شمس الدولة بن أيوب سنة إحدى عشرة وخمسمائة،

وطبق ذكره الأرض بعدله وحسن سيرته.

[٩٥] ـ قال ابن الأثير: وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته، ولا أكثر تحرياً منه للعدل، وقد أتينا على كثير من ذلك في كتاب الباهر في أخبار دولتهم.

ولنذكر هنا نبذة مختصرة لعل من يقف عليها ممن له حكم فيقتدي به.

[٩٦] ـ فمن ذلك زهده وعبادته وعلمه، فإنه كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا في الذي يخصه من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين.

ولقد شكت إليه زوجته من المضايقة فأعطاها ثلاثة دكاكين في حمص كانت له، يحصل له منها في السنة نحو العشرين ديناراً.

فلما استقلتها قال: ليس لي إلا هذا، وجميع ما في يدي أنا فيه خازن للمسلمين، ولا أخونهم فيه، ولا أخوض نار جهنم لأجلك.

وكان يصلي كثيراً بالليل، وله أوراد حسنة فكان كما قيل:

جمعَ الشجاعةَ والخشوعَ لربه ... ما أحسنَ المحرابَ في المحرابِ

وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة ليس عنده فيه تعصب.

وسمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر.

[٩٧] ـ وأما عدله: فإنه لم يترك في بلاده على سعتها مكساً ولا عشراً، بل أطلقها جميعها في مصر والشام والجزيرة والموصل.

وكان يعظم الشريعة ويقف عند أحكامها.

وأحضره إنسان في مجلس الحكم فمضى معه إليه، وأرسل إلى القاضي كمال الدين بن الشهرزوري يقول: قد جئت محاكماً، فاسلك معي ما تسلكه مع الخصوم فظهر الحق له، فوهبه للخصم الذي أحضره.

وقال: أردت أن أترك له ما يدعيه فخفت أن يكون الباعث لي على ذلك الكبر والأنفة من الحضور إلى مجلس الشريعة، فحضرته ووهبته ما يدعيه، وبنى دار العدل

في بلاده فكان يجلس هو والقاضي فيها، فينصف المظلوم ولو أنه يهودي من الظالم ولو أنه ولده.

[٩٨] ـ وأما شجاعته: فإليها النهاية، فكان في الحرب يأخذ قوسين ليقاتل بهما، فقال له القطب النساوي الفقيه: بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام فإن أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف.

فقال له نور الدين: ومن محمود حتى يقال له هذا؟، من قبلي من حفظ الإسلام والبلاد، ذلك الله الذي لا إله إلا هو.

[٩٩] ـ وأما ما فعله من المصالح: فإنه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها، فمنها: دمشق، وحمص، وحماه، وحلب، وشيزر، وبعلبك وغيرها.

وبنى المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية وبنى الخانكاهات للصوفية، وبنى الخانات في الطرق، ووقف على الجميع الوقوف الكثيرة، وحاصل وقفه في كل شهر تسعة آلاف دينار وكان يكرم العلماء وأهل الدين ويعظمهم ويقوم إليهم، ويجلس معهم ويتبسط، ولا يرد لهم قولاً ويكاتبهم بخط يده وكان وقوراً مهاباً مع تواضعه.

[١٠٠] ـ ولما بنى صلاح الدين على الإحتياط بسبب الوحشة بينه وبين نور الدين قسم أمره بين بلاد اليمن وبلاد المغرب، وبنى على الإندفاع أمامه إن وصله نور الدين، فوجه أخاه تورنشاه إلى اليمن فافتتحها سنة (٥٦٩ هـ) تسع وستين وخمسمائة، وخطب فيها لمحمود بن زنكي، وطلب ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين أن يوجهه إلى أرض المغرب يفتحها، وكانت طرابلس وإفريقية والمغرب في يد الموحدين، فاشتغل تقي الدين في حركته ثم زهد في غزو أرض المغرب لما بينه وبينها من العربان والمهالك.

[١٠١] ـ وقد سرى خبر تغريبه إلى جمع من جنده وخواصه، فاستبشروا بذلك وبنوا عليه، فلما امتنع تقي الدين عن التغريب نفر بطائفة من جنده مملوكه شرف الدين قراقش المتقدم الذكر، وبأخرى إبراهيم بن قراتكين سلاح دار المعظم، وصف دار المعظم، وسيده المعظم شمس الدولة بن أيوب الكردي أخو صلاح الدين المذكور ـ وكان ابن قراتكين في جند تقي الدين ـ فتوجه العبدان المذكوران لأرض المغرب مجتمعين حتى جاوزا العقبة، فاتفق رأيهما على أن يفترقا لينفرد كل بما قدر له من الملك.

فسار قراقش إلى «سنتريه» وهي المعروفة في زماننا بسيوة، وافتتحها وخطب فيها لصلاح الدين ولأخيه تقي الدين سيد قراقش من بعده وكتب إليهما بذلك. وافتتح «أوجلة» و «زالة» وهي المعروفة عند العوام بزلة، وأزال من فزان دولة بني خطاب الهواريين، وكانت قاعدة ملكهم «زويلة» وهي المعروفة بزويلة ابن خطاب، وعذب ملكها محمد بن خطاب بن يسليطن بن عبد الله بن صنعل بن خطاب آخر ملوكهم على المال حتى هلك وخطب فيها لصلاح الدين ولتقي الدين.

[١٠٢] - ولم يزل على هذه الطريقة يفتتح البلاد ويخطب لمن ذكر إلى أن وصل إلى طرابلس فاجتمع عليه الذبابيون، وهم بنو ذباب بن ربيعة بن زعب بن جرد ابن مالك بن خفاف بن امرىء القيس بن بهثة بن سليم بن منصور، كذا ذكره الرشاطي.

وزعب المنسوب إليه ذباب ضبطه الرشاطي بكسر الزاي وبالعين المهملة وله ولد آخر يسمى باسمه أخو ربيعة وإليه ينتسب الزعبيون إخوة بني ذباب. ومثل ما للرشاطي للأجدابي.

ولما قدم على بني ذباب وفد إليه مسعود بن زمام من أمراء بني هلال كان لم يدخل يداً في بيعة عبد المؤمن بن علي حين تملك إفريقية، وفر منها لأعراب طرابلس، فتارة يكون مع بني ذباب، وتارة يكون مع إخوتهم زعب، فاتفق معهم وكثر جمعهم فنزل على طرابلس فحاصرها مدة ضيق على أهلها ثم فتحت.

استيلاء قراقش على طرابلس

[١٠٣] ـ فاستولى عليها قراقش وكان ذلك سنة (٥٦٨ هـ) ثمان وستين وخمسمائة كما ذكرنا أولاً وأسكن أهله قصرها، وكانت خالية من الأقوات والأجناد لأنهم بعد بيعتهم لعبد المؤمن بن علي واستقرار بلدهم في يد الموحدين لم يتوقعوا ثائراً ولا مخالفاً.

فلما أتاها قراقش وهي على تلك الحال أخذها وتملك كثيراً من بلاد إفريقية ما خلا المهدية وصفاقس وتونس وقفصة وما والاها من القرى والمواضع.

وسار مع قراقش عسكر كثير فجنح لتلك البلاد بمساعدة العرب فجمع أموالاً عظيمة وجعلها بمدينة قابس، وقويت نفسه وحدثته بالإستيلاء على جميع إفريقية لبعد يعقوب بن عبد المؤمن عنها. وتملك عليّ بن إسحاق بجاية من يد عامل يعقوب سنة (٥٨٠ هـ) ثمانين وخمسمائة فوجه إليه يعقوب عسكراً واستعادها منه.

[١٠٤] ـ وسبب استيلاء عليّ عليها أنه لما سمع بوفاة يوسف بن عبد المؤمن عمر أسطولاً نحواً من عشرين قطعة وسار بجموعه فأرسى على ساحل بجاية، وخرجت خيلة ورجالته من الشواني فكانوا نحو مائتي فارس من الملثمين، وأربعة آلاف رجل، فدخل مدينة بجاية بغير قتال، لأنه اتفق أن واليها سار عنها قبل ذلك بأيام إلى مراكش، ولم يترك فيها جيشاً ولا ممانعاً لعدم عدو يحفظها منه.

فجاء الملثم ولم يكن في حسابهم أنه يحدث نفسه بذلك فأرسى بها، ووافقه جماعة من بقايا دولة بني حماد وساروا معه، فكثر جمعهم وقويت نفسه.

فسمع الخبر والي بجاية، فعاد من طريقه ومعه من الموحدين نحو ثلاثمائة فارس، وجمع من العرب والقبائل الذين في تلك الجهات نحو ألف فارس، فسمع بهم الملثم وبقربهم منه، فخرج إليهم وقد سار معه نحو ألف فارس، فالتقوا وتواقفوا ساعة، فانضافت الجموع التي كانت مع والي بجاية إلى الملثم، وانهزم واليها ومن معه من الموحدين، وساروا إلى مراكش فجمع جيشاً وخرج إلى أعمال بجاية فأطاعته جميعها إلا قسنطينة فحصرها إلى أن جاء جيش من الموحدين من مراكش في صفر سنة (٥٨١ هـ) إحدى وثمانين وخمسمائة إلى بجاية في البر والبحر، وكان بها يحيى وعبد الله أخوا علي بن إسحاق الملثم، فخرجا منها هاربين ولحقا بأخيهما، فرحل عن قسنطينة وسار إلى إفريقية وصادفه قراقش الأرمني وكانا يقيمان الدعوة لبني العباس، واجتمع عليهما سُليم ورياح، ومن بأرض طرابلس وإفريقية مما يليها من العرب.

[١٠٥] ـ ووصل إليهما من مصر مملوك لتقي الدين ابن أخي صلاح الدين اسمه بوزابه، فكثر جمعهم وقويت شوكتهم، فلما اجتمعوا بلغت عدتهم مبلغاً كبيراً وكلهم كاره لدولة الموحدين، فاتبعوا عليّ بن إسحاق الملثم لأنه من بيت المملكة والرياسة القديمة، وانقادوا إليه ولقبوه أمير المسلمين،وقصدوا بلاد إفريقية فملكوها جميعها شرقاً وغرباً إلا مدينتي تونس والمهدية فإن الموحدين أقاموا بهما وحفظوهما على خوف وضيق وشدة.

[١٠٦] ـ وانضم إلى الملثم كل مفسد في تلك البلاد، ومن يريد النهب والفساد والشر، فخربوا البلاد والحصون والقرى وهتكوا الحريم وقطعوا الأشجار، وكان الوالي على إفريقية من قبل الموحدين عبد الواحد بن عبد الله الهنتاتي وهو بمدينة تونس، فأرسل إلى ملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي وهو بمراكش يعلمه الحال.

وقصد الملثم جزيرة باشو ـ وهي بمقربة من تونس تشتمل على قرى كثيرة ـ فنازلها وأحاط بها، وطلب أهلها الأمان فأجابهم وأمنهم، فلما دخلها العسكر نهبوا جميع ما فيها من الغلات والدواب، وسلبوا الناس، وامتدت أيديهم إلى النساء والصبيان وتركوهم هلكى.

وقصد تونس فحاصرها وضيق على من بها حتى مات منهم خلق كثير.

ولما استولى على إفريقية قطع الخطبة لبني عبد المؤمن وخطب للناصر لدين الله العباسي، وأرسل إليه يطلب الخلع والأعلام السود.

[١٠٧] ـ وقصد في سنة اثنتين وثمانين مدينة قفصة فخرج من بها من الموحدين وسلموها إليه فرتب فيها جنداً من الملثمين والأتراك، وحصنها بالرجال مع حصانتها في البلاد. ولما وصل الخبر يعقوب بن يوسف اختار من جنده عشرين ألف فارس من الموحدين وقصد قلعة العسكر لقلة القوت في البلاد، ولما جرى فيها من التخريب والأذى؛ وسار في صفر سنة (٥٨٣ هـ) ثلاث وثمانين وخمسمائة، فوصل إلى مدينة تونس، وأرسل ستة آلاف مع ابن أخيه، فساروا إلى علي بن إسحاق الملثم ليقاتلوه، وكان بقفصة، فوافوه، وكان مع الموحدين جماعة من الترك فثاروا عليهم، فانهزم الموحدون وقتل جماعة من مقدميهم، وكان ذلك في ربيع الأول سنة (٥٨٣ هـ) ثلاث وثمانين وخمسمائة.

[١٠٨] ـ فلما سمع يعقوب الخبر أقام بمدينة تونس إلى نصف رجب من السنة، ثم خرج فيمن معه من العساكر يطلب الملثم والأتراك، فوصل إليهم والتقوا بالقرب من مدينة قابس، واقتتلوا فانهزم الملثم ومن معه، فأكثر الموحدون فيهم القتل حتى كادوا يفنونهم ولم ينج منهم إلا القليل، فقصدوا البر ورجع يعقوب من يومه إلى قابس ففتحها، وأخذ منها أهل قراقش وأولاده وحملهم إلى مراكش ودانت له البلاد كلها، طرابلس وإفريقية.

[١٠٩] ـ ثم أظهر قراقش الإنابة إلى الموحدين ومات علي بن إسحاق الميورقي، وتولى أخوه يحيى، وكان ذلك سنة (٥٨٦ هـ) ست وثمانين وخمسمائة، ولحق قراقش بالسيد المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، فأقام بها زماناً تحت كرامته، ثم انصرف عنها فارّاً، فرجع إلى قابس وخادع أهلها حتى دخلها فقتل جماعة منهم وأظهر الرجوع والإنابة، واستدعى جماعة من أشياخ العرب الذبابيين فقتل أعيانهم.

[١١٠] ـ وممن قتل منهم محمود بن طوق بن بقية جد المحاميد، وإليه ينسبون، وحميد بن جارية في سبعين، واستولى عليها وعلى طرابلس بعد انتقاضهما عليه.

ثم وقع التغيير بينه وبين يحيى بن إسحاق الميورقي، وكان يحيى ببلد الجريد، فسار إلى طرابلس للقاء قراقش فخرج إليه قراقش وجعل عليها نائباً يقال له ياقوت المعروف بالإفتخار والتقيا بمحسن، وهو الذي يقول فيه الشاعر:

ألا لا سقى الرحمنُ مُحسنَ قطرةً ولا زال مُغبرَّ الجوانبِ محسنُ
وخيَّب قطيساً من الغيث كله ولا ابتلّ فيه للركائب فِرسِنُ

وهو يعرف اليوم بوادي الهَيرَة: بهاء بعدها مثناة تحتية بعدها راء مهملة، فكانت الوقعة ليحيى على قراقش وقعة شنيعة، وفرّ قراقش للجبال وتوغل فيها وتبعه الميورقي أياماً ثم رجع إلى طرابلس وحصر بها ياقوتاً نائب قراقش، فلم يقصر في دفاعه، وضبط البلد ضبطاً عظيماً؛ فكتب الميورقي لأخيه عبد الله ـ وهو إذ ذاك صاحب ميورقة من بلاد الأندلس، يطلب منه الإعانة ببعض أسطوله، فوجه إليه قطعتين ضيق بهما على طرابلس تضييقاً شديداً إلى أن استولى عليها.

استيلاء يحيى بن غانية على طرابلس

[١١١] ـ [ولما تم له الأمر] امتن على أهلها بالعفو، وأخذ ياقوتاً فوجهه في القطع التي وصلت إليه إلى ميورقة فاعتقل بها، ولم يزل هناك إلى أن استولى الموحدون على ميورقة وذلك (٥٩٩ هـ) تسع وتسعين وخمسمائة.

ولما انفصل عنها استخلف عليها ابن عمه تاشفين بن الغاني فأقام بها مدة ثم قام عليه أهلها وأخرجوه منها، وتوجه يحيى إلى قابس واستولى عليها، وبقيت في حكم يحيى بن إسحاق الملثم إلى أن وصل الناصر بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي إلى إفريقية سنة (٦٠١ هـ) إحدى وستمائة، فاستنقذ قابس، وبايعه أهل طرابلس، وتردد عليهما حفاظ الموحدين من قبله، ثم من قبل الشيخ أبي محمود بن أبي حفص بن عبد المؤمن بعد انفصال الناصر واستخلافه إياه عليها.

[١١٢] ـ وكان يحيى بن إسحاق لما استولى على البلدين طرابلس وقابس، واستقر عنده أن شرف الدين قراقش أقام بودّان فتوجه إليه بمن استصحب من العرب الذبابيين من أولاد محمود وجارية بنيْ وشاح، الموتورين من قبل قراقش وحصره بها إلى أن فني طعامه وأعطى بيده سلماً، واشترط على العرب أن يقتلوه قبل ولده وكان شديد المحبة له.

فلما خرج هو وولده إليهم قال له الولد يا أبت إلى أين يروحون بنا؟ فقال إلى حيث رحنا بشبابهم فقتلوه وقتلوا ولده بعده، وصلبه يحيى بظاهر ودّان.

[١١٣] ـ ويحيى هذا هو يحيى بن إسحاق المعروف بابن غانيّة من أعيان الملثمين الذين كانوا ملوك المغرب واغتصبوه من أيدي زناتة الذين ثاروا أيام الفتن بعد خروج إفريقية عن بيعة بني عبيد وهي دولة رديئة مذمومة سيئة، لا ديانة لها ولا سياسة. فلنذكر نسبهم وسبب توليهم تتميماً للفائدة فنقول.

نسب الملثمين

[١١٤] ـ هم عدة قبائل ينتسبون إلى حمير أشهرها لمتونة، ومنها أمير المسلمين يوسف بن علي بن تاشفين وجدالة، ولمطة.

وكان مسيرهم من اليمن أيام الصديق رضي الله عنه أمرهم بالمسير إلى الشام وانتقلوا إلى مصر، ودخلوا المغرب مع موسى بن نصير وتوجهوا مع طارق إلى طنجة وأحبوا الإنفراد فدخلوا الصحراء واستوطنوها إلى سنة (٤٤٨ هـ) ثمان وأربعين وأربعمائة.

[١١٥] ـ وتوجه رجل منهم يقال له الجوهر من قبيلة جدالة إلى إفريقية طالباً للحج، وكان محباً للدين، فمر بفقيه بالقيروان وعنده جماعة يتفقهون، قيل هو الفقيه أبو عمران الفاسي، فأصغى إليه الجوهر وأعجبه حاله فلما رجع من حجه قال للفقيه ما عندنا من هذا في الصحراء شيء غير الشهادة والصلاة في بعض الخاصة فابعث معي من يعلمهم شرائع الإسلام، فبعث معه رجلاً اسمه عبد الله بن ياسين الكردلي، وكان فقيهاً صالحاً شهماً، فسار معه حتى أتيا قبيلة لمتونة فنزل الجوهر عن جمله وأخذ بزمام جمل ابن ياسين تعظيماً للإسلام، فأقبلوا على الجوهر يهنئونه بالسلامة وسألوه عن الفقيه فقال: هذا رجلٌ حاملٌ سنة رسول الله ﷺ قد جاء يعلمكم دين الإسلام، فرحبوا بهما وأنزلوهما، وقالوا تذكر لنا شريعة الإسلام، فعرفهم عقائد الإسلام وفرائضه فقالوا: أما ما ذكرت من الصلاة والزكاة فهو قريب، وأما ما قلت:

من قتل يقتل، ومن سرق يقطع، ومن زنى يرجم، أو يجلد، فأمر لا نلتزمه فاذهب لغيرنا، فرحل عنهم.

[١١٦] ـ فنظر إلى الفقيه شيخ كبير، وقال لا بد أن يكون لهذا الجمل في هذه الصحراء شأن يذكر في العالم، فانتهى الجوهر والفقيه إلى جدالة قبيلة الجوهر، فدعاهم عبد الله بن ياسين والقبائل الذين يجاورونهم إلى حكم الشريعة، فمنهم من أطاع ومنهم من أعرض وعصى.

ثم إن المخالفين لهم تجبروا وتجمعوا فقال ابن ياسين للذين أطاعوا: نوجب عليكم أن تقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحق وأنكروا شرائع الإسلام واستعدوا لقتالكم، فأقيموا لكم راية وقدموا عليكم أميراً.

فقال الجوهر أنت الأمير، فقال إنما أنا حامل أمانة الشريعة ولكن أنت الأمير، فقال الجوهر: لو فعلت هذا لتسلط قبيلي على الناس، ويكون وزر ذلك عليّ، فقال له ابن ياسين: الرأي أن نولي ذلك أبا بكر بن عمر رأس لمتونة وكبيرها وهو رجل سيد مشكور الحال مطاع في قومه ومستجيب لنا، يحب الرياسة ويتبعه قومه فنتقوى بهم.

فأتيا أبا بكر بن عمر، فعرضا عليه ذلك فأجاب، فعقدوا عليه البيعة وسماه ابن ياسين «أمير المسلمين» وعادوا إلى جدالة وجمعوا لهم من حسن إسلامه، وحرضهم عبد الله بن ياسين على القتال في سبيل الله وسماهم المرابطين، وتجمع عليهم من خالفهم فلم يقاتلهم المرابطون.

[١١٧] ـ واستعان ابن ياسين وأبو بكر بن عمر على أولئك الأشرار بالصالحين من قبائلهم، فاستمالوهم وقربوهم حتى أحاطوا بنحو ألفي رجل منهم من أهل البغي والفساد، فتركوهم في مكان واحد وخندقوا عليهم وحفظوهم، وأخرجوهم قوماً بعد قوم وقتلوهم فحينئذٍ ذلت لهم أكبر قبائل الصحراء وهابوهم وقويت شوكة المرابطين.

هذا وعبد الله بن ياسين مشتغل بالعلم وقد صار عنده منهم جماعة يتفقهون.

[١١٨] ـ ولما استبد بالأمر هو وأبو بكر بن عمر عن الجوهر الجدالي وبقي لا حكم له، داخله الحسد وشرع سراً في إفساد الأمر، فعلم بذلك منه وعقد له مجلس وثبت عليه ما نقل عنه فحكم عليه بالقتل. لأنه نكث البيعة وشق العصا وأراد محاربة

أهل الحق، فقتل بعد أن صلى ركعتين وأظهر السرور بالقتل طلباً للقاء الله تعالى. وأجمعت القبائل على طاعتهم، ومن خالفهم قاتلوه، وبقوا على ذلك إلى سنة (٤٤٥ هـ) خمس [وأربعين] وأربعمائة، فقحطت بلادهم فأمر ابن ياسين ضعفاءهم بالخروج إلى السوس وأخذ الزكاة، فخرج منهم تسعمائة رجل وقدموا سجلماسة وطلبوا الزكاة فجمعوا لهم شيئاً وعادوا.

[١١٩] - ثم إن الصحراء ضاقت بهم وأرادوا إظهار كلمة الحق والعبور إلى الأندلس ليجاهدوا الكفار، فخرجوا إلى السوس الأقصى [سنة (٤٤٥ هـ)] فاجتمع لهم أهل السوس وقاتلوهم فانهزم المرابطون.

وقتل عبد الله بن ياسين الفقيه [سنة (٤٥٠ هـ)] وعاد أبو بكر بن عمر وجمع جيشاً وخرج إلى السوس في ألفي راكب فاجتمع من بلاد السوس وزناتة اثنا عشر ألف فارس فأرسل إليهم وقال: افتحوا لنا الطريق لنجوز إلى الأندلس ونجاهد أعداء الإسلام، فأبوا ذلك، فصلى أبو بكر ودعا الله تعالى، وقال: اللهم إن كنا على الحق [فانصرنا] وإلا فأرحنا من هذه الدنيا، ثم قاتلهم وصدق هو وأصحابه القتال فنصرهم الله تعالى وهزم أهل السوس ومن معهم، وأكثر القتل فيهم وغنم المرابطون أسلابهم وأموالهم، وقويت نفسه ونفس أصحابه وساروا إلى سجلماسة فنزلوا عليها وطلبوا من أهلها الزكاة فامتنعوا عليهم، وسار إليهم صاحب سجلماسة، فاستولوا عليها وكان ذلك سنة (٤٥٣ هـ) ثلاث وخمسين وأربعمائة واستعمل عليها يوسف بن تاشفين اللمتوني وهو من بني عمه الأقربين ورجع إلى الصحراء؛ فأحسن يوسف السيرة في الرعية ولم يأخذ منهم سوى الزكاة فأقام بالصحراء مدة.

[١٢٠] - ثم عاد أبو بكر بن عمر إلى سجلماسة فأقام بها سنة والخطبة والأمر له والنهي، واستخلف عليها ابن اخيه أبا بكر بن إبراهيم بن عمر وجهز مع يوسف بن تاشفين جيشاً من المرابطين إلى السوس ففتح على يديه.

وكان يوسف ديّناً حازماً داهية مجرباً.

وبقوا كذلك إلى سنة اثنتين وستين وأربعمائة. وتوفي أبو بكر بن عمر بالصحراء (سنة ٤٨٠ هـ) فاجتمعت طوائف المرابطين على يوسف بن تاشفين وملكوه عليهم ولقبوه أمير المسلمين.

[١٢١] ـ وكانت الدولة في المغرب لزناتة الذين ثاروا في أيام الفتن وهي دولة رديئة مذمومة السيرة لا سياسة لها ولا ديانة.

وكان أمير المسلمين وطائفته على نهج السنة واتباع الشريعة، فاقتدى به أهل المغرب، فسار إليها وافتتحها حصناً حصناً، وبلداً بلداً بأيسر سعي، وأحبه الرعايا وصلحت أحوالهم.

[١٢٢] ـ ثم إنه قصد موضع مدينة مراكش وهو قاع صفصف لا عمارة فيه وهو موضع متوسط في بلاد المغرب ـ كالقيروان بإفريقية ـ تحت بلاد المصامدة الذين هم أشد أهل المغرب قوة، وأمنعهم معقلاً فاختلط هناك مدينة مراكش سنة (٤٦٥ هـ) ليقوى على قمع أهل تلك الجبال إن هموا بفتنة واتخذها مقراً، فلم يتحرك أحد بفتنة، وملك البلاد المتصلة بالمجاز مثل سبتة وطنجة وسلا وغيرها.

وكثرت عساكره، وخرجت جماعة لمتونة: قبيلته وغيرهم من الصحراء وضيقوا حينئذٍ لثامهم، وكانوا قبل أن يتملكوا يتلثمون في الصحراء من الحر والبرد كما يفعل العرب.

والغالب على ألوانهم السمرة، فلما ملكوا البلاد ضيقوا اللثام.

[١٢٣] ـ واختلف في سبب التزامهم اللثام، فقيل إن طائفة من لمتونة خرجوا غازين على عدو لهم فخالفهم العدو إلى بيوتهم ولم يكن فيها إلا المشايخ والصبيان والنساء، فلما تحقق المشايخ أنه العدو أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجال ويتلثمن ويضيقنه حتى لا يعرفن ويلبسن السلاح، ففعلن ذلك، وتقدم المشايخ والصبيان أمامهم واستدارت النساء بالبيوت، فلما أشرف العدو رأوا جمعاً عظيماً فظنوه رجالاً وقالوا هؤلاء عند الحريم يقاتلون قتال الموت، والرأي أن نسوق الظعن ونمضي، فإن منعوه قاتلناهم خارجاً عن حريمهم.

فبينما هم في جمع النعم بالمرعى وقد أقبل رجال الحي فبقي العدو بينهم وبين النساء فاقتتلوا وقتل من العدو جمع كثير، وكان من قتل من النساء أكثر.

فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه فلا يعرف الشيخ من الشاب، ولا يزيلونه ليلاً ولا نهاراً.

ومما قيل فيه من الشعر:

قــوم لهــم درَك العُــلا فــي حِميــر ... وإذا انتمَــوا صنهــاجــة فهــم همــو
لمــا حَــوَوا إحــراز كــل فضيلــة ... غلــب الحيــاءُ عليهــم فتلثمــوا

[١٢٤] - ولم يزل ملك أرض المغرب والأندلس بيد يوسف بن تاشفيق إلى تمام الخمسمائة فتوفى وتولى بعده ابنه علي.

وكان يوسف حسن السيرة خيّراً عادلاً، يميل لأهل الدين والعلم ويكرمهم ويصدر عن رأيهم.

[١٢٥] - ولما ملك الأندلس جمع الفقهاء وأحسن إليهم، فقالوا ينبغي أن تكون ولايتك من الخليفة لتجب طاعتك على الكافة، فأرسل إلى الخليفة المستنصر بالله العباسي ببغداد رسولاً معه هدايا كثيرة، وكتاب يذكر ما فتح من بلاد الإفرنج وما اعتمده من نصرة الإسلام، ويطلب تقليداً بولاية البلاد، فكتب له تقليداً من ديوان الخلافة بما أراد، وسيرت إليه الخلع فسر بذلك، ولقب أمير المسلمين، ولقب بعده على ابنه بذلك، وازداد بعد توليه في إكرام العلماء والوقوف عند إشارتهم وكان إذا وعظه أحدهم خشع عند استماع الموعظة ولانَ قلبه لها وظهر عليه أثرها.

[١٢٦] - وكان يوسف حليماً كريماً ديناً يحب الصفح عن الأمور العظام.

فمن صفحه أن ثلاثة نفر اجتمعوا فتمنى أحدهم ألف دينار يتجر بها، وتمنى الآخر عملاً يعمل فيه لأمر المسلمين، وتمنى الآخر زوجته النفزاوية وكانت من أجمل النساء وأتمهن عقلاً، ولها الحكم في بلاده، فبلغه الخبر فأحضرهم فأعطى متمني المال ألف دينار، واستعمل الآخر، وقال للمتمني الزوجة ما حملك على هذا يا جاهل. ثم أرسله إليها فتركته ثلاثة أيام في خيمة تحمل إليه كل يوم طعاماً واحداً، ثم أحضرته وقالت: ما أكلت؟ قال: طعاماً واحداً؟ فقالت: كل النساء شيء واحد، وأمرت له بمال وكسوة وأطلقته، فانظر هذا الصفح.

[١٢٧] - ولم تؤثر عنه رذيلة إلا ما فعل بالمعتمد بن عباد وبنيه لما افتكّ بلادهم وأخذهم أسارى.

وكان يوسف قد سير العسكر مع سير بن أبي بكر وحاصر المعتمد بأشبيلية

وأخذها سنة (٤٨٤ هـ) أربع وثمانين وأربعمائة، وقاتله أهلها قتالاً شديداً، وظهر من شجاعة المعتمد وشدة بأسه وحسن دفاعه عن بلده ما لم يشاهد من غيره ما يقاربه، فكان يلقي نفسه في المواقف التي لا يرجى خلاصه منها، فسلم بشجاعته وشدة بأسه ولكن «إذا نفدت المدة لم تغن العدة».

ولم يزل الحصار دائماً والقتال مستمراً إلى [يوم الأحد] عشرين من رجب من هذه السنة فعظمت الحرب ذلك اليوم؛ واشتد الأمر على أهل البلد، ودخله المرابطون ونهبوا جميع ما فيه وسلبوا الناس ثيابهم، فخرجوا من مساكنهم يمسكون عوراتهم بأيديهم، وأخذ المعتمد أسيراً وأولاده الذكور والإناث بعد أن استأصلوا جميع مالهم فلم يصحبهم من ملكهم بُلغة زاد، وسير المعتمد وأهله إلى «مدينة أغمات» فحبس فيها، وفعل معهم أمير المسلمين يوسف أفعالاً لم يسلكها أحد ممن قبله ولا يفعلها أحد ممن يأتي بعده إلا من رضي لنفسه بهذه الرذيلة، وذلك أنه سجنهم ولم يجر عليهم ما يقوم بهم حتى كانت بنات المعتمد يغزلن للناس بأجرة ينفقنها على أنفسهن، فأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفس ولؤم طبع.

[١٢٨] ـ وأغمات هذه مدينة في سفح جبل بالمغرب بمقربة من مدينة مراكش بينهما نحو اثني عشر ميلاً. كذا ذكره صاحب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» قال: وأغمات وريكة أسفل جبل دِرِن من شماليه في فحص أفيح طيب التراب كثير النبات والأعشاب، والمياه تخترقه يميناً وشمالاً؛ وتطّرد بساحتها ليلاً ونهاراً وحولها جنات محدقة، وبساتين وأشجار ملتفة ومكانها أحسن مكان من الأرض، منفرجة الأرجاء، طيبة الثواء، عذبة الماء، صحيحة الهواء، وبها نهر ليس بالكبير يشق المدينة ويأتيها من جنوبيها فيمر إلى أن يخرج من شماليها وعليه أرحاؤهم ـ آلات يطحنون بها الحنطة ـ وهذا النهر يدخل المدينة يوم الخميس ويوم الجمعة والسبت والأحد، وباقي الجمعة يأخذونه لسقي جناتهم وأرضهم، ويقطعونه عن البلد فلا يجري منه إليها شيء؛ يكتنفها جبل درن، فإذا كان زمن الشتاء تحللت الثلوج النازلة بجبل درن فيسيل ذوبانها إلى مدينة أغمات، وربما جمد به النهر في وسط المدينة حتى يجتاز الأطفال عليه وهو جامد فلا ينكسر لشدة جموده.

[١٢٩] ـ وأهلها هوارة من قبائل البربر المتبربرين بالمجاورة، وهم أملياء تجار مياسير يدخلون إلى بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الأموال من النحاس

الأحمر والملون والأكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف النظم من الزجاج والأصداف والأحجار، وضروب من الأفاوية والعطر وآلات الحديد المصنوع. وما منهم رجل يسفر عبيده ورجاله إلا وله في قوافلهم المائة جمل والسبعون جملاً كلها موقورة.

ولم يكن في دولة الملثمين أحد أكثر منهم أموالاً، ولا أوسع منهم أحوالاً، وبأبواب منازلهم علامات تدل على مقادير أموالهم. وذلك أن الرجل منهم إذا ملك أربعة آلاف دينار يملكها مع نفسه وأربعة آلاف يصرفها في تجارته، أقام على يمين بابه وعن ياسره عمودين من الأرض إلى أعلى السقف وبنيانهم بالآجرّ والطوب والطين، فإذا مر الناظر بدار ونظر إلى تلك العمد مع الأبواب قائمة وعدها علم من عددها كم مبلغ مال صاحب الدار، لأنه قد يكون من هذه العمد خلف الباب أربع وست مع كل عضادة اثنتان أو ثلاثة إلى آخر ما ذكره.

[١٣٠]- ولم يزل المعتمد بها مسجوناً إلى أن توفي سنة (٤٨٨ هـ) ثمان وثمانين وأربعمائة.

وكان المعتمد من محاسن الدنيا كرماً وعلماً وشجاعة ورياسة تامة، وأخباره مدونة وآثاره مشهورة، وله أشعار حسنة، فمنها ما قاله لما أخذ ملكه وحبس:

سلّت عليّ يدُ الخطوب سيوفَها ... فجذذْن من جسدي الخصيبَ الأمتنا
ضربت بها أيدي الخطوبِ وإنما ... ضربت رقابَ الآملين بها المُنى
أمُؤمّلو العادات من نفحاتنا ... كفُّوا فإن الدهر كَف أكفَّنا

وله من قصيدة يصف القيد في رجله:

تعطّف في ساقي تعطُّفَ أرقم ... يساورُها عضًّا بأنياب ضَيغم
وإني لَمَن كان الرجالُ بسَيْبه ... ومن سيفه في جنَّة وجَهنم

[١٣١]- وله في يوم عيد إذ جاءته بناته حافيات عليهن ثياب مهنة، إذ كن لضيق العيش يغزلن للناس بأجرة حتى إن إحداهن كانت تغزل لبنت صاحب شرطة أبيها إذ كان في سلطانه.

[فيما مضى كنتَ بالأعياد مسرورا ... فساءك العيدُ في أغماتَ مأسورا]

تـرى بنـاتِـك فـي الأطمـارِ جـائعـةً يَغْـزِلْـن للنـاس لا يَملكـن قِطميـرا
بـرزْنَ نحـوَك للتسليـم خـاشِعـةً أبصـارُهـنّ حسيـراتٍ مَكـاسيـرا
يطـأن فـي الطيـن والأقـدامُ حـافيـةٌ كـأنهـا لـم تطـأ مسكـا وكـافـورا
لا خـدَّ إلا تشكـي الجـدبَ ظـاهـرهُ وليـس إلا مـع الأنفـاس مَمطـورا
قـد كـان دهـرُك إن تـأمـرْه ممتثـلا فـردّك الـدهـرُ منهيـاً ومـأمـورا
مـن بـاتَ بعـدَك فـي مُلـك يُسرُّ بـه فـإنمـا بـاتَ بـالأحـلام مغـرورا

[١٣٢] ـ وله لما وفد عليه بأغمات شاعره أبو بكر بن اللبانة حين أنشده القصيدة الفائية التي أنشدها فيه الآتي ذكرها وعزم على الإنفصال عنه بعث إليه بعشرين ديناراً وشقة بغدادية:

إليـكَ النـزرَ مـن كـفّ الأسيـرِ فـإن تَقبـلْ تكـن عيـنَ الشكـور
تقبـل مـا يـذوب لـه حيـاءً وإن عـذرتـه حـالات الفقيـر

[١٣٣] ـ وكانت الشعراء يكاتبونه وهو في السجن بالنظم والنثر يتوجعون له ويذمّون الزمان وأهله حيث مثله منكوب.

قال شاعره أبو بكر بن اللبانة: زرته بعد أسره بأغمات وقلت أبياتاً عند دخولي إليه منها:

لـم أقُـلْ فـي الثقـاف كـان ثقـافـا كنـتَ قلبـاً بـه وكـان شِغـافـا
يمكـث الـزهـر فـي الكمـام ولكـنْ بعـد مُكـث الكمـام يبـدو قطـافـا
وإذا مـا الهـلال غـاب مُغيمـا لـم يكـن ذلـك المغيـبُ انكشـافـا
إنمـا أنـتَ درةٌ للمعـالـي ركّـب الـدهـرُ فـوقهـا أصـدافـا
حجبَ البيـتُ منـك شخصـاً كـريمـاً مثـل مـا يحجـب الـدنـانُ سُـلافـا
أنـت للفضـل كعبـة ولـو أنـي كنـتُ أسطيـعُ لالتـزمـتُ الطّـوافـا

وممن كاتبه عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي الصقلي الشاعر المشهور بأبيات يذكر فيها مسيره عن إشبيلية إلى أغمات تعريضاً وهي جواب عن قول المعتمد: «تعطف في ساقي» البيتين المتقدمين وهي هذه:

جـرى لـك جَـدٌّ بـالكـرام عَثُـور وجـار زمـانٌ كنـت منـه تُجيـر
لقد أصبحت بيضُ الظّلا في غمودها إنـاثـاً لتـرك الضّـرب وهـي ذُكـور

أتيأس من يوم يناقض أمسَه وشُهْبُ الدّراري في البروج تدور
ولما رحلتم بالندى في أكفكم وقلقل رضوى منكم وثبير
رفعتُ لساني بالقيامة قد دنَتْ ألا فانظروا كيف الجبالُ تسير

[١٣٤] ـ ورثاه أبو بكر بن اللبانة عند حادثته بعدة قصائد منها قوله:

تبكي السماءُ بِمُزن رائح غادِ على البهاليلِ من أبناء عبادِ
عريسةٌ دخلتها النائباتُ على أساودٍ منهم فيها وآساد
وكعبة كانت الآمالُ تخدمها فاليوم لا عاكفٌ فيها ولا باد
يا ضيفُ أقفر بيتُ المكرماتِ فخذ في ضم رَحلك واجمع فضلة الزاد
ويا مُؤمِّلَ واديهم ليسكنه خفَّ القطينُ وجف الزرعُ بالوادي

إلى أن قال:

حُط القناعُ فلم تُستر مخدرةٌ ومُزِّقت أوجهٌ تمزيقَ أبراد
حان الوداعُ فضجت كلُّ صارخة وصارخٍ من مُفدّاة ومن فاد

[١٣٥] ـ ولما قتل ولدا المعتمد بين يديه حين أخذ أسيراً صبراً، وهما: أبو الفتح الرشيد، ويزيد، .أنشد:

يقولون صبراً لا سبيلَ إلى الصبر سأبكي وأبكي ما تطاولَ من عُمْري
[هوى الكوكبان الفتح ثم شقيقه يزيد فهل بعد الكواكب من صبر]
أفتح لقد فَتَّحت لي كل رحمةٍ كما بيزيد الله قد زاد في أجري
هوى بكما المقدارُ عني ولم أمت فأُدعى وفيًا قد نكصت إلى الغدر
ولو عدتما لاخترتما العود في الثرى إذا أنتما أبصرتمانيَ في الأسر
أبا خالد أورثتني البثَّ خالداً أبا النَّصر مذ ودعتَ ودعني نصري

[١٣٦] ـ وكان ابنه الرشيد قد جرت له حادثة قبل أخذ المرابطين إشبيلية شبيهة بحادثة الأمين بن هارون الرشيد.

قال أبو بكر بن عيسى بن اللبانة الداني: كنت يوماً عند الرشيد بن المعتمد في مجلس أنسه سنة (٤٨٣ هـ) ثلاث وثمانين وأربعمائة، فجرى ذكر غرناطة وملك أمير المسلمين بن تاشفين لها.

قال فلما ذكرناها تفجع وتلهف واسترجع وذكر قصريها، فدعونا لقصره بالدوام، ولملكه بتراخي الأعوام، فأمر عند ذلك أبا بكر الإشبيلي بالغناء فغنى:

يـا دار ميَّـة بـالعليـاءِ فـالسنـد　　أقـوتْ وطـالَ عليهـا سـالـفُ الأمـد

قال فاستحالت مسرته، وتجهمت أسِرَّته، ثم أمر بالغناء من وراء ستارة فغنِّي:

إن شئـتَ أن لا تـرى صبـراً لمصطَبِـر　　فـانظـر إلـى أيّ حـالٍ أصبـحَ الطلـلُ

فتأكد تطيره واشتد اربداد وجهه وتغيره، وأمر مغنية أخرى فغنت:

يـا لهـفَ نفسـي علـى مـالٍ أفـرّقُـه　　علـى المقليـن مـن أهـل المـروءات
إن اعتـذاري إلـى مـن جـاء يسـألنـي　　مـا ليس عنـديَ من إحدى المصيبـات

قال ابن اللبانة فتلافيت الحال بأن قمت فقلت:

محـلٌّ مكـرُمـةٍ لا هُـدّ مبنـاه　　وشمـلُ مـأثـرة لا شتـتَ الله
البيـت كـالبيـت لكـن زاد ذا شـرفـاً　　أن الـرشيـد مـع المعتمـدْ رُكنـاه
ثـاوٍ علـى أنجـم الجـوزاءُ مقعـدُه　　وراحـلٌ فـي سبيـل الله مثـواه
حتم على الملك أن يقوى وقد وُصلت　　بـالشـرق والغـرب يمنـاه ويسـراه

فلعمري لقد بسطت من نفسه وأعدت عليه بعض أنسه، على أني وقعت فيما وقع فيه الجميع بقولي: البيت كالبيت إلخ، وأمر إثر ذلك بالغناء فغنى:

ولمـا قضينـا مـن منـى كـل حـاجـة　　ولـم يبـق إلا أن تـزم الـركـائـب

قال: فأيقنا أن هذه الطيرة تعقبها الغيرة، فلم يمض إلا القليل من الدهر حتى حاصر إشبيلية عسكر أمير المسلمين وضيق عليها، فقاتل أهلها قتالاً شديداً وظهر من المعتمد ما ذكرنا، وانقضت أيامه، فسبحان من لا يحول ملكه ولا يزول.

ولنرجع لذكر ابتداء دولة الموحدين لدخول طرابلس تحت بيعتهم فنقول:

ظهور دولة الموحدين

[١٣٧] ـ كان ابتداء دولتهم سنة (٥١٤ هـ) أربع عشر وخمسمائة، وأول من أقامها المهدي أبو عبد الله بن محمد بن عبد الله تُومرت العلوي الحسني المصمودي الهرغي نسبة إلى هرغة، فخذ من المصامدة كانوا يسكنون جبل السوس من بلاد المغرب نزلوه لما فتحه المسلمون مع موسى بن نصير، وكان قد رحل في شبيبته إلى بلاد المشرق لطلب العلم فتفقه، وكان فقيهاً عالماً فاضلاً حافظاً للحديث، عارفاً بأصول الدين والفقه، متحققاً بعلم العربية، وكان ورعاً ناسكاً، ووصل في رحلته إلى العراق، فاجتمع بالغزالي وإلكيا وأبي بكر الطرطوشي بالإسكندرية.

[١٣٨] ـ وقيل إنه جرى له حديث مع الغزالي فيما فعله بأرض المغرب من التملك، فقال له الغزالي: إن هذا لا يتمشى في هذه البلاد ولا يمكن وقوعه لأمثالنا، هكذا قال بعض مؤرخي المغرب. والصحيح أنه لم يجتمع به فحج من هناك وعاد إلى المغرب.

ولما ركب البحر من الإسكندرية مغرباً غير المنكر في المركب، وألزم من به بإقامة الصلاة وقراءة القرآن، حتى انتهى إلى المهدية سنة (٥٠٥ هـ) خمس وخمسمائة، وبها حينئذٍ يحيى بن تميم فنزل بمسجد قبلي مسجد السبت وليس معه سوى ركوة وعصا، وتسامع به الناس فقصدوه يقرأون عليه أنواع العلوم، وكان إذا مر به منكر غيَّره وأزاله.

فلما كثر ذلك منه أحضره الأمير يحيى مع جماعة من الفقهاء، فلما رأى سمته وسمع كلامه أكرمه وأحترمه وسأله الدعاء.

[١٣٩] ـ ورحل عن المهدية وأقام بالمنستير مع جماعة من الصالحين مدة وسار إلى بجاية ففعل فيها مثل ذلك، فأخرج منها إلى قرية بالقرب منها اسمها ملالة، فلقيه بها عبد المؤمن بن علي فرأى فيه من النجابة والنهضة ما تفرس فيه التقدم والقيام بالأمر، فسأله عن اسمه وقبيلته، فأخبره أنه من قيس عيلان ثم من بني سليم، فقال ابن تومرت هذا الذي بشر به النبي ﷺ حين قال: «إن الله ينصر هذا الدين في آخر الزمان برجل من قيس، فقيل من أي قيس؟ فقال من سليم».

فاستبشر بعبد المؤمن وسر بلقائه، وكان مولد عبد المؤمن بمدينة تاجرّا من عَمل تلمسان وهو من بني عامر قبيلة من كومة نزلوا بذلك الإقليم سنة (١٨٠ هـ) ثمانين ومائة.

[١٤٠] ـ ولم يزل المهدي ملازماً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في طريقه إلى أن وصل إلى مراكش دار أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، فرأى فيها من المنكرات أكثر مما عاينه في طريقه فزاد في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فكثر أتباعه، وحسنت ظنون الناس فيه.

[١٤١] ـ فبينما هو في بعض الأيام في طريقه، إذ رأى أخت أمير المسلمين في موكبها ومعها من الجواري الحسان كثير وهن سافرات، وكانت هذه عادة الملثمين تسفر نساؤهم عن وجوههن، ويتلثم الرجال [فلما رأى النساء كذلك أنكر عليهن وأمرهن بستر وجوههن] وضرب هو وأصحابه دوابهن، فسقطت أخت أمير المسلمين عن دابتها، فرفع أمره إلى أمير المسلمين فأحضره وأحضر الفقهاء ليناظروه فأخذ يعظه ويذكره ويخوفه، فبكى أمير المسلمين وأمر أن يناظره الفقهاء فلم يكن فيهم من يقوم له لقوة أدلته في الذي فعله.

[١٤٢] ـ وكان عند أمير المسلمين بعض وزرائه يقال له مالك بن وهيب.

فقال: والله ياأمير المسلمين هذا لا يريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما يريد إثارة فتنة والغلبة على بعض النواحي فاقتله وقلدني دمه فلم يفعل ذلك.

فقال إن لم تقتله فاحبسه وخلده في السجن وإلا أثار شراً لا يمكن تلافيه.

فأراد حبسه فمنعه رجل من أكابر الملثمين يسمى بيان بن عمران، فأمر

بإخراجه من مراكش، فسار إلى أغمات ولحق بجبل دِرِن وصار فيه حتى لحق بالسوس الذي فيه قبيلة هرغة وغيرهم من المصامدة، وكان ذلك سنة (٥١٤ هـ) أربع عشرة وخمسمائة.

فأتوه واجتمعوا حوله وتسامع به أهل تلك النواحي، فوفدوا إليه وحضر أعيانهم بين يديه، فجعل يعظهم ويذكرهم بأيام الله، ويذكر لهم شرائع الإسلام وما غير منها، وما حدث من الظلم والفساد، وأنه لا يجب طاعة دولة من هذه الدول لاتباعهم الباطل، بل الواجب قتالهم ومنعهم عما هم فيه.

[١٤٣] ـ وأقام على ذلك نحو سنة، وتبعه على ذلك هرغة، وسمى أتباعه الموحدين، وأعلمهم أن النبي ﷺ بشر بالمهدي الذي يملأ الأرض عدلاً، وأن مكانه الذي يخرج منه المغرب الأقصى.

فقام إليه عشرة رجال منهم عبد المؤمن بن علي، فقالوا: لا يوجد هذا إلا فيك فأنت المهدي، فبايعوه على ذلك وانتهى خبره إلى أمير المسلمين، فجهز جيشاً من أصحابه وسيرهم إليه، فلما قربوا من الجبل الذي هو فيه قال لأصحابه: إن هؤلاء يريدونني وأخاف عليكم منهم والرأي أن أخرج بنفسي إلى غير هذه البلاد لتسلموا أنتم، فقال له ابن توفيان من مشايخ هرغة: هل تخاف من السماء شيئاً؟ فقال لا، بل من السماء تنصرون، فقال له ابن توفيان فليأتنا كل من في الأرض، ووافقته قبيلتهم جميعها فقال المهدي أبشروا بالنصر والظفر بهذه الشرذمة، وبعد قليل تستأصلون دولتهم وترثون أرضهم وديارهم، فنزلوا من الجبل ولقوا جيش أمير المسلمين، فهزموهم وأخذوا أسلابهم وقوي ظنهم في صدق المهدي حيث ظفروا كما ذكر لهم.

[١٤٤] ـ وأقبلت إليه حينئذٍ أفواج القبائل من الجبال التي حوله شرقاً وغرباً وبايعوه، وأطاعته قبيلة هنتاتة وهي من أقوى القبائل، فأقبل عليهم واطمأن لهم، وأتته رسل أهل تِينملّ بطاعتهم وطلبوه إليهم فتوجه إلى جبل تِينمل وبنى له مسجداً خارج المدينة واستوطنه، وألف لهم كتاباً في التوحيد وكتاباً في العقيدة، ونهج لهم طريق الأدب بعضهم مع بعض؛ وأمرهم بالإقتصار على القصير من الثياب القليل الثمن، وحرضهم على قتال عدوهم وإخراج الأشرار من بينهم.

ولما رأى كثرة أهل الجبل وحصانة المدينة خاف أن يرجعوا عنه فأمرهم أن

يحضروا بغير سلاح، ففعلوا ذلك عدة أيام، ثم أمر أصحابه بقتلهم ففعلوا وهم غارون، فقتلوهم في ذلك المسجد، ثم دخل المدينة فقتل وأكثر القتل ونهب الأموال وسبى الحريم، فكان عدة القتلى خمسة عشر ألفاً، وقسم الأرض والمساكن بين أصحابه.

[١٤٥] ـ ولما خاف أهل تينمل على نفسه لما فعل أراد أن يوقع بينهم وبين المرابطين فتنة، فنظر في أولادهم فإذا الغالب عليهم الشقرة والزرقة، وعليهم السمرة. فقال: مالي أراكم سمراً وأولادكم شقراً زرقاً، فقالوا كان لأمير المسلمين عدة مماليك من الإفرنج والروم، وكانوا يصعدون الجبل في كل عام يأخذون الأموال المقررة لأمير المسلمين عليهم، وكانوا يسكنون بيوتنا مع الحريم ويخرجوننا منها. فلما أخبروه بذلك قبح لهم الصبر عليه وأزرى عليهم، وعظم الأمر عندهم، فقالوا له كيف الحيلة في الخلاص منهم وليس لنا بهم قوة.

فقال إذا حضروا عندكم في الوقت المعتاد، وتفرقوا في مساكنكم، فليقم كل رجل منكم إلى نزيله فليقتله، واحفظوا جبلكم فإنه لا يرام ولا يقدر عليه.

فلما حضر عندهم العبيد قتلوهم، فخافوا على أنفسهم من أمير المسلمين، فامتنعوا في الجبل وسدوا ما فيه من طرق تسلك إليهم، فقويت نفس ابن تومرت بذلك.

وأرسل إليهم أمير المسلمين جيشاً فحاصروا الجبل وضيقوا على أهله، وقلت عندهم الميرة حتى عدم الخبز رأساً، وكان يطبخ لهم ابن تُومرت كل يوم من الحساء ما يكفيهم، وكان قوت كل واحد منهم أن يغمس يده في ذلك الحساء ويخرجها بما علق فيها ويقنع بذلك في يومه.

فلما اشتد بهم الأمر أراد أهل تينمل إصلاح حالهم مع أمير المسلمين، وبلغ ذلك ابن تومرت، وكان معه إنسان يقال له أبو عبد الله الونشريسي، ملازماً لقراءة القرآن وطلب العلم سراً بحيث لم يعلم به أحد.

[١٤٦] ـ فلما كانت سنة (٥١٩ هـ) تسع عشرة وخمسمائة، خاف المهدي خروج أهل الجبل عليه فأمر الونشريسي بأمور دلت على زندقته ليخدع بها العوام.

وذلك أنه أمر الونشريسي بالحضور بإزائه عند المحراب، وأن يتطيب وأن يظهر

أنه لم يعرفه وهو لا يعرف قراءة القرآن ففعل، فلما صلى والناس حوله سأله من أنت؟.

فقال: أبو عبد الله الونشريسي، فقال المهدي: إن أمرك لعجب، ونادى في الناس فحضروا فقال: هذا الرجل يزعم أنه الونشريسي فانظروه وحققوا أمره.

فلما أضاء النهار عرفوه.

فسأله المهدي ما قصتك؟ فقال: إني أتاني الليلة ملك من السماء فغسل قلبي وعلمني القرآن والموطأ وغيرهما من العلوم، فبكى المهدي بحضرة الناس، ثم قال له: نحن نمتحنك، فقال افعل، وابتدأ بقراءة القرآن، فقرأ بقراءة حسنة من أي موضع سئل. ثم قال: إن الله قد أعطاني نوراً أعرف به أهل الجنة من أهل النار، وآمركم أن تقتلوا أهل النار وتتركوا أهل الجنة، وقد أنزل الله ملائكة إلى البئر التي بموضع كذا يشهدون بصدقي.

وكانوا وضعوا فيها رجالاً. فسار إليها المهدي والناس، وصلى عندها المهدي وقال: يا ملائكة الله إن أبا عبد الله الونشريسري قد زعم كيت وكيت، فقال من بها: صدق. وكان أمرهم بالشهادة له.

فلما قيل ذلك من البئر قال: إن هذه البئر مطهرة مقدسة قد نزل إليها الملائكة، والمصلحة أن تلطم لئلا تقع فيها نجاسة أو ما لا يجوز، وألقوا فيها من الحجارة والتراب ما لطمها بمن فيها، وفعل بأهل الجبل من حضورهم بغير سلاح وقتلهم بعد ذلك ما دل على تزندقه. ووقائعه مع أمير المسلمين كثيرة.

[١٤٧] ـ ولما بعث جيشه وكسر سأل هل مات عبد المؤمن؟ فقيل لا، فقال إن الأمر باقٍ. وهو الذي فتح البلاد ووصى أصحابه باتباعه، وكان إذ ذاك مريضاً وحرضهم على اتباعه وتسليم الأمر إليه، وتوفي سنة (٥٢٤ هـ) أربع وعشرين وخمسمائة.

ولاية عبد المؤمن بن علي

[١٤٨] ـ واستقرَّ الأمر لعبد المؤمن ورجع بعد اللقاء لتينمَلّ وأقام بها يتألف القلوب ويحسن إلى الناس.

وكان جواداً مقداماً في الحروب، ثابتاً في الهزاهز، إلى سنة (٥٢٨ هـ) ثمان وعشرين وخمسمائة، فتجهز وسار في جمع كثير إلى أن وصل إلى تادلة، فمانعه أهلها وقاتلوه، فقتلهم وقهرهم وفتحها وسائر البلاد التي تليها.

[١٤٩] ـ وسار في الجبال يفتح ما امتنع عليه، وأطاعته صنهاجة، ووقعت بينه وبين أمير المسلمين حروب، فتارة له وتارة عليه، إلى أن نزل مراكش سنة (٥٤١ هـ) إحدى وأربعين وخمسمائة وبها يومئذٍ إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين وهو صبي، فضرب خيامه في غربيها على جبل صغير وبنى عليه مدينة صغيرة له ولعسكره، وبنى فيها جامعاً، وبنى له بناءً عالياً يشرف منه على مدينة مراكش ويرى أحوال أهلها وأحوال المقاتلين من أصحابه.

وقاتلها قتالاً شديداً وأقام عليها أحد عشر شهراً وافتتحها في أوائل سنة (٥٤٢ هـ) اثنتين وأربعين وخمسمائة، وقتل أعيان دولة المرابطين.

[١٥٠] ـ ولما استولى على إسحاق بن علي أخذ يرتعد ويسأل العفو رغبة في البقاء، ويدعو لعبد المؤمن، فقام إليه يسر بن الحاج الأمير ـ وكان إلى جانبه مكتوفاً ـ فبصق في وجهه وقال: تبكي على أبيك وأمك، إصبر صبر الرجال، فهذا الرجل لا يخاف الله تعالى ولا يدينه بدين.

فقام الموحدون إليه بالخشب فضربوه حتى قتلوه.

وكان من الشجعان المعروفين بالشجاعة.

وقدم إسحاق على صغر سنه وضربت عنقه.

وقيل إن إستيلاء عبد المؤمن عليها سنة ثلاث وأربعين من التاريخ المذكُور.

[١٥١] ـ وبموت إسحاق انقرضت دولة الملثمين. وكانت مدة حكمهم سبعين سنة، وولى منهم أربعة: تاشفين، ويوسف، وعلي، وإسحاق.

ولما فتحها عبد المؤمن أقام بها واستوطنها واستقر بها، وأمر بهدم الجامع الذي بناه يوسف بن تاشفين. وبنى بالقصر جامعاً كبيراً وزخرفه فأحسن عمله.

ولقد أساء يوسف بن تاشفين في فعله بالمعتمد بن عباد، وارتكب سجنه على الحالة التي ذكرنا أقبح ارتكاب، فلا جرم أن سلط الله سبحانه وتعالى على أعقابه من أربى عليه وزاد، فتبارك الحي الدائم الملك الحق الذي لا يزول ملكه، وهذه سنة الدنيا، فأف لها ثم أفّ، نسأل الله تعالى أن يختم أعمالنا بالحسنى، ويجعل خير أيامنا يوم لقائه بجاه محمد ﷺ وآله.

[١٥٢] ـ ولما استقر وأخذ بلاد بني حماد اجتمع العرب: بنو هلال، والأثبج، وعدي، ورياح، وزعب، وغيرهم من العرب من أرض طرابلس والمغرب، وقالوا: إن جاورنا عبد المؤمن أجلانا من المغرب، وليس الرأي إلا لقاء الجد معه، وإخراجه من البلاد قبل أن يتمكن، وتحالفوا على التعاون والتضافر، وألا يخون بعضهم بعضاً.

وعزموا على لقائه بالرجال والأهل والمال ليقاتلوا قتال الحريم.

[١٥٣] ـ واتصل الخبر برجار الإفرنجي صاحب صقلية، فأرسل إلى أمراء العرب وهم: محرز بن زياد، وجبارة بن كامل، وحسن بن ثعلب، وعيسى بن حسن، وغيرهم يحثهم على لقاء عبد المؤمن ويعرض عليهم أن يرسل إليهم خمسة آلاف فارس من الإفرنج يقاتلون معهم على شرط أن يرسلوا إليه الرهائن، فشكروه وقالوا: ما بنا من حاجة إلى نجدته ولا نستعين بغير المسلمين، وساروا في عدد لا يحصى.

[١٥٤] ـ وكان عبد المؤمن قد ارتحل من بجاية إلى بلاد المغرب، فلما بلغه

خبرهم جهز جيشاً من الموحدين يزيد على ثلاثين ألف فارس؛ واستعمل عليهم عبد الله بن عمر الهنتاتي، وسعد بن يحيى، وكان العرب أضعافهم، فاستخرجهم الموحدون وتبعهم العرب إلى أن وصلوا إلى أرض سطيف بين جبال. فحمل عليهم عسكر عبد المؤمن فجأة والعرب على غير أهبة، فالتقى الجمعان واقتتلوا أشد قتال وأعظمه فانجلت المعركة عن انهزام العرب ونصرة الموحدين.

وترك العرب جميع ما لهم من أهل، وأثاث ومال.

وأخذ الموحدون جميع ذلك، وعاد الجيش إلى عبد المؤمن بجميعه، فقسم جميع الأموال على عسكره، وترك النساء والأولاد تحت الإحتياط، ووكل بهم من الخدم والخصيان من يخدمهم، ويقوم بحوائجهم وأمر صبيانهم.

[١٥٥] ـ فلما وصلوا معه إلى مراكش أنزلهم في الأماكن الفسيحة، وأجرى عليهم النفقات الواسعة، وأمر ابنه محمداً أن يكاتب أمراء العرب، وأن يعلمهم أن نساءهم وأولادهم تحت الحفظ والصيانة، وأمرهم أن يحضروا ليسلم إليهم أبوه ذلك جميعه، وأنه قد بذل له الأمان والكرامة.

فلما وصل كتاب محمد إلى العرب سارعوا إلى مراكش، فلما وصلوا إليها أعطاهم عبد المؤمن نساءهم وأولادهم وأحسن إليهم وأعطاهم أموالاً جزيلة، فاسترقّ قلوبهم بذلك، وأقاموا عنده وكان بهم حفيّا، واستعان بهم على ولاية ابنه محمد، وكانت بيعة محمد سنة (٥٥١ هـ) إحدى وخمسين وخمسمائة.

[١٥٦] ـ وفعل ذلك عبد المؤمن لحيلة عظيمة، وذلك أن الأمر كان بيد عبد المؤمن وعمر الهنتاتي يلي الأمر من بعده، فلما تمكن عبد المؤمن من الملك وكثر أولاده أحب أن ينتقل الملك إليهم، فلما حضر أمراء العرب من هلال، وزعب، وعدي وغيرهم إليه، ووصلهم وأحسن إليهم، ووضع عليهم من يقول لهم: اطلبوا من عبد المؤمن وقولوا له: نريد أن تجعل لنا ولي عهد من ولدك ترجع إليه الناس بعدك، ففعلوا ذلك، فلم يجبهم إكراماً لعمر الهنتاتي لعلو منزلته في الموحدين، وقال لهم: إن الأمر لأبي حفص عمر، فلما علم عمر بذلك خاف على نفسه، فحضر إلى عند عبد المؤمن وأجاب إلى خلع نفسه، فحينئذٍ بويع لمحمد بولاية العهد، وكتب إلى جميع بلاده بذلك، وخطب له في جميعها، وأخرج

عبد المؤمن في ذلك اليوم من الأموال شيئاً كثيراً.

[١٥٧] ـ وفي هـذه السنة استعمـل عبـد المـؤمـن أولاده علـى البـلاد [بحيلـة عظيمة، وذلك أنه قد استعمل على البلاد] شيوخ الموحدين المشهورين من أصحاب المهدي بن تومرت وكانوا موجودين في مناصبهم، فكان يتعذر عليهم عزلهم، فأخذ أولادهم وتركهم عنده يشتغلون بالعلوم، فلما مهروا فيها وصاروا مقتدى بهم قال لآبائهم: إني أريد أن تكونوا عندي أستعين بكم على ما أنا بصدده، ويكون أولادكم في الأعمال لأنهم فقهاء عقلاء، فأجابوا إلى ذلك وهم فرحون مسرورون، فولى أولادهم، ثم وضع عليهم من يعتمد عليه، فقال لهم: إني أرى أمراً عظيماً فعلـتموه قد فارقتم فيه الحزم والأدب، فقالوا: ما هو؟ فقال: أولادكم في الأعمال وأولاد أمير المؤمنين ليس لهم منها شيء، مع ما هم فيه من العلم وحسن السياسة؛ وإني أخاف أن ينظروا في هذا فتسقط منزلتكم عنده. فعلموا صدق القائل، فحضروا عند عبد المؤمن وقالوا. نحب أن تستعمل على البلاد السادة أولادك، فقال: لا أفعل ذلك.

فلم يزالوا به حتى فعل ذلك بسؤالهم، فاستعمل ابنه أبا محمد عبد الله على بجاية وأعمالها، واستعمل ابنه أبا حفص على مدينة تلمسان، واستعمل ابنه أبا الحسن عليا على مدينة قابس وأعمالها، وولى ابنه سعيداً على سبتة والجزيرة الخضراء ومالقة، وكذلك غيرهم.

واستولى على أرض إفريقية وطرابلس والمغرب؛ والأندلس، وأزال منها دولة الملثمين. وتوفي [في العشرة الأخيرة من جمادى الآخرة] سنة (٥٥٨ هـ) ثمان وخمسين وخمسمائة، وكانت وفاته بسلا، لأنه سار من مراكش إلى سلا فمرض بها ومات.

ولاية يوسف بن عبد المؤمن

[١٥٨] ـ ولما حضره الموت جمع جميع شيوخ الموحدين من أصحابه وقال لهم: قد جربت ابني محمداً فلم أره يصلح لهذا الأمر وإنما يصلح له ابني يوسف فهو أولى به، فقدموه له ووصاهم به وبايعوه ودعي بأمير المؤمنين، وكتموا موت عبد المؤمن، وحمل بصورة أنه مريض إلى أن وصل إلى مراكش، وكان ابنه أبو حفص في تلك المدة حاجباً لأبيه، فبقي مع أخيه على مثل حاله مع أبيه، يخرج فيقول للناس أمر أمير المؤمنين بكذا، ويوسف يقعد مقعد أبيه، إلى أن كملت له المبايعة في جميع البلاد واستقرت قواعد الأمر له ثم أظهر موت أبيه.

[١٥٩] ـ وكانت ولاية عبد المؤمن ثلاثاً وثلاثين سنة وشهوراً، وكان عاقلاً، حازماً سديد الرأي، حسن السياسة للأمور، كثير البذل للأموال، سفاكاً للدماء على صغير الذنب، وكان يعظم أمر الدين ويقويه، ويلزم الناس في سائر بلاده بالصلوات، ومن رؤي في وقت الصلاة غير مصل قتل. وجمع الناس بالمغرب على مذهب الإمام مالك في الفروع، وعلى مذهب أبي الحسن الأشعري في الإعتقاد وأصول الدين. وكان الغالب على مجلسه أهل العلم والدين، والمرجع إليهم والكلام معهم ولهم، واستقر الملك بيد يوسف، ووقع له من الأتراك ما حكينا في شأن قراقش، وكذا من علي بن إسحاق ثم توفي يوسف سنة (٥٧٨ هـ) ثمان وسبعين وخمسمائة، فكانت ولايته اثنتين وعشرين سنة وشهوراً، وكانت وفاته بمدينة شنترين بعد أن حاصر أهلُها الإفرنجَ شهراً ثم مرض فمات في ربيع الأول وحمل في تابوت إلى أشبيلية.

ولاية المنصور أبي يوسف يعقوب بن يوسف

[١٦٠] ـ وتولى ابنه المنصور أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن في الوقت الذي مات فيه أبوه، فقام بالأمر أحسن قيام، وأقام راية الجهاد، وأحسن السيرة في الناس، وكان ديناً مقيماً للحدود في الخاص والعام. فاستقامت له الدولة، وانقادت إليه بأسرها مع سعة أقطارها.

[١٦١] ـ وكان أبو يوسف حسن السيرة، وكانت طريقته ألين من طريقة أبيه مع الناس، يحب العلماء ويقربهم ويشاورهم، وهم أهل خدمته وخاصته، وأحبه الناس ومالوا إليه، وأطاعه من البلاد ما امتنع على أبيه، وسلك في جباية الأموال ما كان أبوه يأخذه ولم يتعداه إلى غيره.

[١٦٢] ـ وقام على يعقوب محمدُ بن عبد الكريم بالمهدية، وهو رجراجي الأصل، وقبض على واليها من قبله وهو الشيخ أبو علي يونس بن الشيخ أبي حفص ابن عبد المؤمن، وكان ذلك سنة (٥٩٥ هـ) خمس وتسعين وخمسمائة، وأخذ يحيى ابن الميورقي طرابلس، وقابس، وتونس، فاتفق أن قتل بعضهم نفسه لما فعل بهم إسحاق بن إسحاق من تغريم المال والتعذيب عليه، ورأى ذلك أروح له، وقد ذكرنا تاريخ ذلك.

[١٦٣] ـ ولما بلغ الناصر بن يعقوب ما دهم أهل إفريقية من الميورقي وابن عبد الكريم، امتعض لذلك وأخذ في الحركة إليها، وكان يبلغ الميورقي ذلك فيدفع خبرها، إلى أن وصل الناصر إلى بجاية ووصله رجاله وأخبروه معاينة، فوجه ذخائره وأمواله إلى المهدية لتكون تحت يد ابن عمه علي بن الغازي، وخرج من تونس

وتوجه إلى القيروان ثم إلى قفصة، واجتمع بالعربان وأخذ مواثيقهم وأخذ رهائنهم معه على الخدمة، ثم إلى بلاد نقزاوة. وأطلق فيهم أيدي الجند، فقتلوا كثيراً من أهلها ونهبوا أموالهم وأطلقوا النار في بعض دورها. وذلك لما كان بلغه عنهم من المخالفة.

[١٦٤] ـ ثم انتقل إلى مطماطة، وبلغه أن الناصر نكّب عن طريق تونس، وأخذ عن طريق قفصة في اتباعه، فانتقل إلى جبل دمر متحصناً به. ووصل الناصر إلى قفصة مستفهماً عن أخبار يحيى، فعرف انتقاله إلى جبل دمر ورجع إلى تونس. وولى على البلدان حفّاظاً على الموحدين. وقدم في رجوعه على قتال يحيى الشيخ المقدس أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص، ووجه جيشاً عظيماً ضخماً، فأحب يحيى الفرار من الجبل إلى الصحراء. فشجعه أصحابه وحرضوه على الثبات فالتقيا فكانت الوقعة المعروفة بتاجرّا للشيخ أبي محمد عليه. فاستأصل فيها كثيراً من أصحاب يحيى. وفر يحيى في شرذمة قليلة، وكان قدم ولده وأهله أمامه بنحو خمس فراسخ. فلما فر أخذهم ولولا ذلك لسبُوا.

واستنقذ الشيخ أبو محمد من يده السيد أبا زيد حياً بعد أن ضربه الموكل به ضربات بسيف قصد بها قتله، فأعجل عن الإجهاز عليه. واستنقذ جماعة من الموحدين كانوا في يده، وأخذ رايته السوداء وأحاط الموحدون بجميع ما في عسكر يحيى من الأموال والإبل فانتهبوها، ورجع الشيخ أبو محمد بجميع ذلك إلى الناصر وهو محاصر للمهدية وبها علي بن الغازي الميورقي. وأركب الأمين الموكل بالشيخ أبي زيد على جمل شهرة له وبيده الراية السوداء فطيف به على المهدية.

[١٦٥] ـ وكانت الهزيمة في الثاني عشر من ربيع الأول سنة (٦٠٢ هـ) اثنتين وستمائة، وكتب حماد المالقي المشهور بالإبداع في قطعة ورق هذين البيتين مقطعين في الورق يهجو بهما يحيى، ويذكر الهزيمة وهما:

أرى يحيـى أمـامَ الخلـق يـأتـي ... ففـر أمـام مَـن وَافـى إليـه
فشبهـت الشقّـي بيـاء يفـري ... ولامُ الأمـر داخلـةٌ عليـه

[١٦٦] ـ وعرضت الغنائم على الناصر على ملاحظة من المحصورين بالمهدية وهم مع ذلك مكذبون بهزيمة يحيى مفحشون بالسب. وألح الناصر في قتالهم،

ونصب عليهم المجانيق على جهة واحدة في السور حتى كثرت الموتى والجراحات، وتحقق إنهزام يحيى فسُقط في أيديهم وطلبوا الأمان فأسعفوا به. ونزل عليّ بن الغازي وأتباعه وشيعته على أن يخلوا سبيلهم، ويسلموا البلد ويكونوا في أمان الموحدين إلى أن يصلوا إلى يحيى بن غانية. وكان ذلك في السابع والعشرين من جمادى الأولى فكان بين هزيمة تاجرّا وفتح المهدية أربعة وسبعون يوماً. وخرج عليّ ابن الغازي عن المهدية وجملته وحاشيته، فضرب أخبيته بقصر قراضة فبات هنالك تلك الليلة. ثم دعته نفسه إلى الدخول في طاعة الموحّدين وقال: أطعت بعد أن كنت في حكم نفسي. فاستحسن ذلك منه الناصر واستدعاه وأحسن إليه، ووافق ذلك وصول مملوك الناصر ناصح صاحب ديوان سبتة بالهدية العظيمة التي جمعها في المدة الطويلة. وكان فيها ثوبان قد نسجا بأنواع الجواهر وجعلت فيها أعلام من اليواقيت والحجارة النفيسة. فأمر الناصر بحمل جميع الهدايا إلى عليّ بن الغازي. فمات ناصح من أثر ذلك كمداً.

[١٦٧] ـ ثم انتقل الناصر عن المهدية في عشرين من جمادى الآخرة سنة(٦٠٢ هـ) اثنتين وستمائة. وأراد النقلة لأرض المغرب. فحينئذٍ أخذ يتحدث مع أشياخه ومدبري أمر دولته فيمن يترك بإفريقية فأجمع رأيهم على الشيخ أبي محمد بن أبي حفص ولم يختلف في ذلك اثنان، وكأنهم رأوا بذلك بعده عن الخلافة. فأمر الناصر بعض خدمه في الحديث معه في ذلك استحياء من مواجهته به، فامتنع ولم تسمح نفسه بمفارقة وطنه، ففاوضه الناصر في ذلك بنفسه فاعتذر له ببعد الشقة عمن خلفه بمراكش من أهل وولد، وبما استلزم ذلك من مفارقة الخليفة والبعد عنه. ونظر السلطان فلم يجد عوضاً عنه ولم يرد إكراهه على المقام، وعظم عليه أمر شرقي البلاد وما ناب أهلها من بعده عنهم، فأرسل إليه ولده ومعه ولد الشيخ أبي محمد من ابنة المنصور، وهو المعروف بالسيد أبي الحسن، وكان الناصر خاله قد رباه مع ولده يوسف المنتصر ولي عهده. واحتضنه كولده، فوجهه مع ولده في طرف من حاشيته ليلاً فدخلوا عليه. فقام الشيخ أبو محمد لولد الناصر وأجلسه معه وقال: ما حاجتك أيها الطالب؟ ولو كان عندي غير نعمتكم لقابلتكم به، فأجابه الحاشية: كرامته قضاء مصلحته، فقال: نعم تقضى.

فقال الولد: إن مولانا وسيدنا يخصكم بالسلام، ويقول لكم هذه البلاد من أول

هذا الأمرالعزيز وهي مع هؤلاء الثوار في أمر عظيم، وتحت ليل بهيم، وقد وصل إليها سيدنا عبد المؤمن وسيدنا أبو يعقوب، وسيدنا الناصر، وما منهم إلا من أنفق أموالاً، وأفنى في الحركة إليها رجالاً، والمشقة شديدة، والشقة بعيدة، وما عاد واحد منهم إلا وعاد الويل، وأظلم ذلك الليل. وهذه الدعوة كما يجب علينا القيام بها والذب عنها، كذلك يجب عليكم، وقد طلبنا في جميع إخوانكم السادة وأعيان أهل الجماعة من ينوب عنا في هذه البلاد فلم نجد عنك معدلاً، فانحصر الأمر إلينا وإليكم، فإما أن تطلع إلى حضرة مراكش فتقيم هنالك مقامنا ونقيم نحن بهذه البلاد، أو نطلع نحن إلى حضرتنا.

فقال الشيخ: يا بني أما القسم الأول فمما لا يمكن، وأما القسم الثاني فأجبت إليه على شروط.

فسر الولد بذلك وقبل يد الشيخ، وقبل الشيخ رأسه. وانفصلوا كأنما عندهم تلك الليلة فتح جديد بالسرور الذي عمّهم، والطمأنينة مما كان أهمهم. ثم خلا الناصر به مستفهماً عن شروطه.

فاشترط ألا يتولى إفريقية إلا بقدر ما تصلح أحوالها، وينقطع طمع الميورقي منها، ويتخير الناصر من رجاله من يوجهه عوضاً عنه، وجعل الغاية في ذلك ثلاث سنين، وأن يعرض عليه الجيش فيبقى معه من يقع اختياره عليه، وأنه إن فعل فعلاً كائناً ما كان لا يسأل عنه، ولا يعاتب فيه، إلى آخر الشروط. ومن رامها فليراجع محالّها، وكل ذلك والناصر مقبل عليه قابل للشروط.

[١٦٨] ـ وخرج الناصر متوجهاً لأرض المغرب. وكان لسبع خلت من شوال، وصحبه الشيخ أبو محمد ثلاثة أيام ثم رجع، واستقر ملكها وملك طرابلس في يد بنيه من بعده إلى أن اختلفوا واستعان بعضهم بالإفرنج.

استيلاء صاحب جنوة على طرابلس

[١٦٩] ـ وأخذ صاحب جنوة طرابلس سنة ست عشرة وتسعمائة، وأخذ حلق الوادي صاحب صقلية، ومكثت طرابلس تحت يد النصارى ثلاثة وأربعين عاماً وقيل خمساً وأربعين سنة، فيكون أخذهم لها سنة واحد وسبعين وثمانمائة، أو ثلاث وسبعين وثمانمائة.

وسبب أخذهم لها، أن أهلها بعد دخولهم في طاعة الموحدين، كثرت أموالهم وتجاراتهم، واطمأنوا ولم يشتغلوا بالحرب حتى لم تكن لهم به خبرة، فقدمت عدة سفن للعدوّ موسوقة بأنواع البضاعة وفيها من كل نوع كثير، فتقدم إليهم تاجرٌ من تجار المدينة فاشترى جميع ما فيها من سلع ونقد لهم ثمنها.

واستضافهم رجل آخر وصنع لهم طعاماً فاخراً وأخرج ياقوتة ثمينة فدقها دقاً ناعماً بمرأى منهم وذرها على طعامهم فبهتوا من ذلك.

فلما فرغوا قدم إليهم دلاعاً «بطيخاً» فطلبوا سكيناً لقطعه فلم يوجد في داره سكين، وكذا دار جاره إلى أن خرجوا إلى السوق فأتو منه بسكين.

فلما رجعوا إلى جنوة سألهم ملكهم عن حالها فقالوا: ما رأينا أكثر من أهلها مالا وأقل سلاحاً، وأعجز أهلاً عن دفاع عدوّ. وحكوا له الحكايتين. فتاقت نفسه لأخذها، وجهز لها أسطولاً فأخذها في ليلة واحدة بلا كثير مشقة واستولى عليها، ولم ينج من أهلها إلا من تسوّر ليلاً، وإنحاز المسلمون إلى تاجوراء وجبال غريان ومسلاتة. وصارت المدينة للنصارى.

وقيل إن دخولهم لها كان بموافقة البعض من أهلها، والله أعلم أي ذلك كان.

ولما انحاز المسلمون إلى تلك الأماكن انتدب جماعة من أهل تاجوراء وركبوا شينيًّا وتوجهوا لصاحب القسطنطينية يطلبون منه إعانة، وكانوا لا خبرة لهم بلغة الترك، فلما حضروا إلى القسطنطينية استغرب أهلها زيَّهم، وسألوهم من أي البلاد أنتم؟ فأخبروا أنهم من طرابلس الغرب قدموا لحضرة السلطان مستغيثين به، فأحضروا بين يديه.

وكان مراد علجاً خصياً للسلطان، ربي بأرض المشرق وتعلم العربية، فكان يعرب للسلطان عنهم، فأخبروه عن حال بلادهم وأخذ النصارى لها وتضييع ملوك دولهم، وأنهم يريدون منه إعانة على افتكاك بلادهم ووالياً يلي أمرهم.

ولاية مراد أغا

[١٧٠] ـ فاستعمل عليهم مراداً وقدموا به لبلدهم ودانوا له وبايعه أهل غريان سنة (٩٥٢ هـ) اثنتين وخمسين وتسعمائة. وبايعه أهل ريفها كلهم.

قيل وراسلته خود بنت شرومة بن محمد الفاسي صاحب فزان، فأرسل إليها طائفة من جنده سنة (٩٥٦ هـ) ست وخمسين وتسعمائة فملكوا أرض فزان.

والصحيح أن أخذ فزان إنما كان سنة (٩٨٥ هـ) خمس وثمانين وتسعمائة بعد فتح طرابلس وموت طورغود باشا بأيام، إذ كان أمر الجند شورى بينهم، وسيأتي إن شاء الله تعالى ذكر ذلك.

[١٧١] ـ ولم يزل مراد أغا يوالي الغزو على طرابلس ويضيق على من بها من الروم ومن ظهر منهم اختطفه المسلمون، وبنى بعضهم قصراً بين البلدين لاختطافهم إلى أن دخلت سنة (٩٥٨ هـ) ثمان وخمسين وتسعمائة.

فمرّ أسطول السلطان سليمان بالمدينة المذكورة مدداً لقلج علي باشا، إذ كان محاصراً لحلق الواد وبه طورغود باشا وهو قائده فخرج إليهم مراد ومعه أعيان بيعته من أهل تاجوراء في شينّي، وطلبوا منه الإعانة فأبى عليهم، وتعلّل بأنه لم يؤذن له فيها فهونوا عليه أمرها وصغروها بين يديه فأجابهم إلى ذلك بشرط أن يعطوه حجة على أن لا يكون عليه درك من السلطان لمخالفته أمره، وأنهم المؤاخذون بذلك، فأعطوه بذلك حجّة.

وحاصروها براً وبحراً فأخذوها، قيل عنوة، وقيل طلب أهلها الأمان لأنفسهم فأجابوهم لذلك وخرجوا عنها.

ولاية طورغود باشا

[١٧٢] ـ وتسلم طورغود باشا البلد وكاتبوا السلطان بذلك فسر به سروراً عظيماً. وكتب له بولاية البلد وبايعه أهل جربة وقابس وأهل عمالتها.

وقيل كان فتحها زمن ولاية سليم بن بايزيد.

والصحيح ما ذكرناه من أنها زمن السلطان سليمان [الأول بن السلطان سليم الأول] بن السلطان بايزيد [الثاني بن السلطان محمد الفاتح] بن السلطان مراد الثاني ابن السلطان محمد [جلبي بن السلطان بايزيد الأول بن السلطان مراد الأول] بن أورخان بن عثمان بن أرطغرل بن سليمان، وكان سليمان ملكاً في المشرق في بلاد ماهان بمقربة من بلخ.

واختلف في نسبه فقيل من التركمان الرحالة النزالة من فخذ التتر منهم، ويتصل نسبهم بيافث بن نوح عليه الصلاة والسلام. كذا ذكره القطبي.

وقال صاحب درر الأثمان في منبع ملوك بني عثمان: إن أهلهم من عرب الحجاز، وزاد جماعة من المؤرخين أنهم من أهل المدينة المشرفة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

[١٧٤] ـ وعلى أنه من التركمان كان سبب خروجه من بلاد بلخ إلى بلاد الروم تخريب جنكيزخان بلاد بلخ، فتوجه سليمان شاه هذا وصحبه في خمسين ألف بيت إلى أرض الروم، فلما جاوز الفرات غرق سليمان فدخل ولده أرطغرل أرض الروم فأكرمه السلطان علاء الدين السلجوقي سلطان الروم، ومات بالروم وخلف عدة أولاد أنجاد أشدهم بأساً وأعلاهم همة عثمان.

نشأ مولعاً بالقتال وجهاد الكفار، وأعجب ذلك السلطان علاء الدين السلجوقي سلطان الروم فأرسل إليه الراية السلطانية والطبل والزمر، فلما وصلته تلك الآلة وضربت بين يديه قام تعظيماً لأمر السلطان وفرحاً بإقباله، فصار شعاراً لآل عثمان، ومن بايعهم من المستحقين لذلك الوقوف عند ضرب ذلك إلى وقتنا، ثم مات عثمان وانتقل الملك لبنيه.

[١٧٥] ـ وقيل إن أصل عثمان هذا من عرب الحجاز وهاجر منها لغلاء كان بها واستقر ببلاد قرمان، واتصل بأتباع سلطانها.

وكانت رحلته لأرض الروم سنة خمسين وستمائة، وتزوج من قرينا فولد له سليمان وتسلطن وهو الذي فتح (بروسا) في حدود الثلاثين وسبعمائة.

ثم ملك بعده ابنه عثمان جواي الأصغر.

وقيل هو الذي افتتح (بروسا) وهو الذي استقل بالأمر بخلاف آبائه، فإنهم كانوا من أتباع السلاجقة.

[١٧٦] ـ ولم يزل الملك يتداوله بنوه إلى أن انتهى إلى بايزيد، وكان له عدة أولاد وكان يعدل بالملك لأكبر ولده أحمد، والعسكر يميل إلى سليم، ويدعو إلى الخروج عن الطاعة وخلع البيعة لما رأى من فعل أبيه بالعهد لأخيه بمن مال إليه من العسكر، فتحاربا ووقعت بينهما مقتلة، ثم آل الأمر بينهما إلى أن كتب العهد له لما رآه من ميل العسكر، فتولى الملك واتسعت مملكته بملك مصر والشام وسائر ممالك العرب.

وتولى الملك سنة (٩١٠ هـ) عشر وتسعمائة، فأقام في الملك تسع سنين وثمانية أشهر، وتوفي سنة ست وعشرين وتسعمائة.

وتولى ابنه سليمان في السنة المذكورة وعمره حينئذٍ ست وعشرون سنة، ولبث في الملك تسعاً وأربعين سنة.

وتوفي سنة خمس وأربعين وتسعمائة، وهو الذي افتك ممالك بني حفص من أرض إفريقية: طرابلس وتونس لابنه سليم، خلافاً للشيخ مرعي مؤرخ ملوك بني عثمان وأبي سالم العياشي، وذلك أنه اتفق على أن فتح طرابلس كان سنة ثمان

وخمسين وتسعمائة، وفي ذلك الوقت كان الأمر لسليمان، وقد ذكر غير واحد أن أخذها كان من المدد الآتي لحلق الوادي نصرة وهو يقتضي حصر الجيش له.

[١٧٧] ـ وقد ذكرالشيخ مرعي أن المحاصر لذلك قلج علي باشا وسنان، ولم يل قلج على الوزارة لسليم، وإنما وليها لأبيه سليمان، وكانت ولاية سليم بعد موت أبيه سنة (٩٧٥ هـ) خمس وسبعين وتسعمائة، وولاية قلج علي باشا الوزارة لسليمان سنة ست وخمسين وتسعمائة (٩٥٦ هـ) وأقام بها أربع سنين وستة أشهر.

[١٧٨] ـ وكان سليمان بن سليم سيداً فاضلاً جواداً ممدوحاً مجاهداً في سبيل الله، ناظراً إلى الرعية بالعدل لم يل الأمر من بني عثمان قبله أو بعده مثله.

وصلت سراياه إلى أقصى المشرق والمغرب، وغزا بنفسه ثلاث عشرة غزوة عظيمة، وكان مفتوحاً على يديه أيان سلك ملك، وأنى توجه فتح وفتك، مؤيداً في حروبه، مسدداً في رأيه، مسعداً في وقائعه، ولم يزل مذ ولي قائماً بأمور الدين وإظهار العدل، وتأييد الشريعة وتجديد الأمة، في القرن العاشر إلى أن توفاه الله. وكانت أيامه من غرر الزمان.

[١٧٩] ـ وقتل أول أمره أولاده خوف الفتن والخروج عليه، خنق ولده مصطفى بعد توجيهه إلى تبريز لأخذ العجم، وتحايل في تحصيل ولده بايزيد فلم يمكن بعد ذلك إلا بعد فتن قتل فيها نحو الخمسين ألفاً، وحصل بقية أولاده محموداً وعبد الله وعثمان، وبذل مالاً كثيراً حتى ظفر بهم فخنقهم وخنق أولادهم.

ولما مات رثاه الشعراء بكل لسان، ومنهم أبو السعود المفتي صاحب التفسير رثاه بقصيدة، قال رحمه الله تعالى:

أصوتُ صاعقةٍ أم نفخةُ الصور ... فالأرض قد مُلئت من نقْر ناقور
أصاب منها الورى دهى وداهية ... وذاق منها البرايا صعقةَ الطور
تهدمت بقعةُ الدنيا لوقعتها ... وانهدّ ما كان من دُور ومن سور
فمِن كئيبٍ وملهوف ومن دنفٍ ... عانٍ بسلسلة الأحزان مأسور
فياله من حديث مُوحشٍ نكرٍ ... يعافه السمعُ مكروهٍ ومنفور
تاهت عقولُ الورى من هَول وحشته ... فأصبحوا مثل مجنون ومسحور
تقطعت قطعاً منه القلوبُ فلا ... يكاد يوجدُ قلب غيرُ مكسور

أجفانهم سُفن مشحونة بدم … تجري ببحر من العبرات مسجور
أتى بوجهِ نهارٍ لا ضياء له … كأن غاراته شُنَّت بدَيجور
أم ذاك نعيُ سليمانِ الزمان ومن … قضت أوامرُه في كل مأمور
وقي ومن ملأ الدنيا مهابتُه … وسخّرت كلَّ جبَّار وتَيمور
له وقائعُ في الأكناف شائعةٌ … أخباره وجدت في كلِّ طامور
ورايةٌ رُفعت للمجد خافقةٌ … تجري على علَم بالنصر منشور
يا نفسُ مالك في الدنيا مخلَّفةً … من بعد رحلته من هذه الدور
وكيف تمشين فوق الأرض غافلةً … أليس جثمانُه فيها بمقبور
فللمنايا مواقيت مقَدرة … تأتي على قدَرٍ في اللوح مسطور
وليس في شأنها للناس من نظر … ومدخلٍ مَّا بتقديم وتأخير
يا نفس فاتَّئدي لا تهلكي أسفاً … فأنت منظومة في سلك مقدور
إذ لستِ مأمورة بالمستحيل ولا … بما سوى بذل مجهودٍ وميسور
إنَّ المنايا وإن عمَّت مُحرمةٌ … على شهيد جميل الحال مبرور
مرابطٍ في سبيل الله مقتحم … معاركَ الحتف بالرضوان مأجور
ما مات، بل نَال عيشاً باقياً أبداً … عن عَيش فإن بكل السِّتر مغمور

[١٨٠] ـ ولم يزل طرغود باشا والياً بها ومراد أغا بتاجوراء محبُوساً مكفوف اليد عن التصرف إلى سنة (٩٦٧ هـ) سبع وستين وتسعمائة، فتوفي مراد، وفي مدة طرغود اشتغل بغزو أرض الروم وعمارة الشواني وجلب الناس من أطراف البلاد لعمارة المدينة فعمرت.

[١٨١] ـ وقصده أسطول النصارى سنة ست وستين ليفتّك البلد منه فرجع خائباً، ولم يزل منصوراً مؤيداً في حروبه ناظراً للرعية بالعدل، لم يفرض عليهم خراجاً ولم يطالبهم بشيء إلى أن دخلت سنة (٩٧٢ هـ) اثنتين وسبعين وتسعمائة.

فوجه السلطان سليمان أسطولاً كبيراً لأخذ جزيرة مالطة، لأنه بعد أخذه جزيرة رودس استأمنه أهلها فأمنهم، وخرجوا منها وعمروا جزيرة مالطة ولحق المسلمين منهم أذى كثير إلى وقتنا هذا ملكها الله للإسلام آمين.

فلما بلغه ذلك ندم على تركهم وأمانهم، ووجه إليهم الأسطول سنة اثنتين وسبعين وتسعمائة، فلما حاصروها أرسلوا إلى طورغود يطلبون منه مدداً فخرج إليهم

في اثني عشر شينياً فلما حاصروا بعض قلاعها أصابته رحمه الله كورة، قيل لم يصبه جسمها وإنما أصابه حرها ـ فنزل من حلقه دم كثير حتى استفرغ فمات، وقيل أصاب جسمُها جوفَه، فقطعت أمعاءه فدفنت هنالك، وصبَّر بير على قائدُ الأسطول باقيه وأرسله إلى طرابلس فدفن بها، وقبره الآن مشهور بمقربة من البحر بإزاء مسجده الذي ابتناه بها بنكباء شرقيها والشمال. ولما أرسلوه وقع بين أهل الأسطول خلف أدى إلى انكسارهم فأقلعوا عنها ولم ينالوا المراد منها.

ولما بلغ الخليفة سليمان بن سليم الخبرُ اغتم لذلك، وعزم على تجهيز جيش عرمرم لها ليريح المسلمين منها فعاجله داعي الموت.

ولاية يحيى باشا

[١٨٢] ـ ولما مات طورغود أرسل إلى طرابلس الخليفة سليمان والياً من قبله يقال له يحيى، يلي أسطول شوانيها وتدبير أمرها وأمْرِ الجند الذين بها، فأقام بها إلى سنة (٩٧٣ هـ) ثلاث وسبعين وتسعمائة فمات ودفن خارجها بقصر قراقش الأرمني [غربي طرابلس] على ستة أميال أو أقل من ذلك.

وتغلب الجند على أمر البلد فلم يكن لواليها من قبل السلطان تصرف، واضطرب أمرها، وفسد نظام الملك وكثر الهرج في الرعية، فتغلب على غريان رجل يقال له حجاج سنة (٩٨٢ هـ) اثنتين وثمانين وتسعمائة، ومنعها الطاعة، فلما كانت سنة خمس وثمانين وتسعمائة راسلت خود بنت شرومة بن محمد الفاسي، زوج المنتصر صاحب فزان العسكرَ بمدينة طرابلس أن يقدموا عليها لتملكهم البلد، ووعدتهم بالعطاء الجزيل إن وصلوا إليها.

[١٨٣] ـ وسبب ذلك أنها كانت تحت ابن عمها المنتصر بن الناصر بن محمد، وكانت له زوجة أخرى من أهل مرزق، ولم يكن له منها سوى ابنة، وكان له من المرزقيّة عدة أولاد، وكان أكثر إقامته بمرزق، وكانت تسكن القصر الأحمر بسبهة، وكان قصراً منيعاً، فداخلها ما داخل النساء من الغيرة ففعلت ذلك، فوجهوا إليها طائفة من الجند.

واتفق أن قدم عليها زوجها المنتصر من مرزق، فسدت أبواب القصر عنه وأحسنت لحاشيتها وقاتلته، فحاصرها ثلاثة أيام فمات كمداً ودفن بالجامع الجديد.

فلما مات زال ما بها من الحقد وحدثتها نفسها بالملك، فندمت على مراسلة

الترك بالقدوم ندامة كسعية، وفكرت في نفسها حيلة تستعد بها لهم إن قدموا عليها، ففاجأها قدومهم بالقرب من موته، فلما رأيهم قصدت إلى حجارة على جبل بمقربة من القصر فألبستها أقبية الرجال وعمائمهم حتى ظنوا أنها رجال، وانقطعت بهم الأرض، فراسلوها أن تفي بما وعدت بعد أن سدت القصر بغلق أبوابه وامتنعت، تظن أن ذلك يقيها. فلما أيقنوا أن تلك الحيل حجارة هجموا على القصر فملكوه وأخذوها وعذبوها عذاباً شديداً ثم أحرقوها. وتوجهوا إلى مرزق بعد أن ملكوا سبهة، وكان بمرزق الناصر بن المنتصر بن محمد الفاسي، وكان أكبر أولاد المنتصر. فلما بلغه الخبر وتيقن ألا طاقة له بقتالهم لعدم استعداده لهم فر بخزانته وإخوته ومن تبعه من أعوانه لأرض كاشنة من أرض السودان، واستقر بمدينة كاشنة، وملك الترك البلد وجعلوا عاملاً عليها منهم يقال له مامي وأقاموا معه طائفة من الجند ورجعوا قافلين.

[١٨٤] ـ فلما قفلوا من أرض فزان وبلغوا البلد ودخلت سنة تسعين وتسعمائة قام أهل البلد على مامي ومن معه من الجند فقتلوهم عن آخرهم، ولم يفلت منهم إلا طائفة من أولاد علوان كانوا عوناً للجند، وأرسلوا إلى الناصر بأرض السودان فقدم عليهم وبايعوه واستقر معهم إلى سنة ثمان وألف فمات بها مريضاً.

واشتغل جند البلد بما لا يعنيهم وجاروا على الرعية فقدم رجل من أهل المغرب يقال له يحيى السويدي، وأظهر العلم والورع. وفي نفس الرعية من الجور ما الله به عليم.

[١٨٥] ـ وحكي أن رجلاً من الجند كانوا نفوه لأرض الجزائر إذ كانت لجند طرابلس وهم الذين افتتحوها، فقدم مع رجل له قدم في الولاية والصدق مع الله فاستشارهم على أن يمكث بالبلد ويمشي صحبته للحج، فأمنوا عليه وأمروه بإدخاله فأدخله، فلما نزل الركب تاجوراء قتلوه، فبلغه الخبر بذلك مع شكاية الرعية جورهم وفسادهم، فدعا الله عليهم، فانتدب لذلك يحيى بن يحيى السويدي، فدعا الله أن يذيقهم على يديه الحتف.

فقام يحيى عليهم سنة (٩٦ هـ) ست وتسعين وبايعه أهل تاجوراء سرّا، وخرج ونزل بمسلاتة. وكان لسناً فصيحاً جواداً مقداماً فأكرمه أهلها وبايعوه، وتسامع به الناس فأتاه حاضر الوطن وباديه، فخرج الجند إليه وهو بها فالتقوا بمسلاته، فكسر الجند وقتل منهم نحو الألف، وأكثر من قتلهم أهل يزليتن ومن حولهم، وقويت

نفوس الناس معه، ودها الجند ومن تابعهم بداهية لم يسمع بمثلها. ثم جند وقدم تاجوراء، وانتقل منها وحاصر المدينة حصاراً شديداً حتى قارب الإستيلاء عليها، فخذله شيخ العرب ابن نوير ومن تابعه، وقاموا عليه ومسكوه وأمكنوا الجند منه فقتلوه سنة (٩٩٨ هـ) ثمان وتسعين وتسعمائة، وأرسلوا إلى السلطان مراد وأخبروه بما فعل ابن نوير، فكتب لهم في خراج البلد وجعل لهم منه سهماً وافراً وأمر بتعظيمهم حين القدوم لدار الملك بطرابلس، فلم يزالوا عليها، وفيهم بقية من ذلك إلى وقتنا هذا. ولم تزل طرابلس ـ لتولى جندها الأمر، وطرحهم له شورى بينهم ـ في تضعضع وتعبٍ شديدٍ، والثورة قائمة في كل ناحية.

فقام بعد يحيى سنة اثنتي عشرة بعد الألف في تاجوراء رجل يقال له نيَّال، وقام قبله عبد الصمد وخلع البيعة سنة تسع وألف.

ولاية سليمان داي

[١٨٦] - ثم بايع الجند رجلاً منهم يقال له سليمان داي سنة (١٠١٢ هـ) وتسميه العوام صفر داي ليتولى أمر الخزانة والخراج، فأحسن السيرة في ذلك، وتقوت شوكته وقتل بعض رؤساء الجند.

وفي سنة (١٠١٥ هـ) خمس عشرة وألف خلع بيعته أهل تاجوراء، وبايعوا رجلاً يقال له أويس، وتبعهم على ذلك بنو رُقيعة ونزلوا حوالي بلد تاجوراء بأهاليهم، وخرج لهم سليمان داي براً وبحراً وقاتلهم، فلم يفد فيهم شيئاً لقوة الأعراب وشجاعتهم. فاتفق - لإرادة الله تعالى خراب تاجوراء - أن وقعت دابة لبعض رؤوساء بني رقيعة في زرع لبعض أهل تاجوراء فقتلها، وأثار أهل تاجوراء - لبخلهم - لبني رقيعة مخاصمة أفضت إلى ملاكمة، فارتحل عنهم بنو رقيعة فدخل الجند البلد وقتلوا كثيراً من أهلها، وهتكوا الحريم ونهبوا الأموال، وزادت بذلك شوكة سليمان داي، فتجاوز الحد في الجور على الرعية، وأطلق يد الجند. ولم يزل على ذلك إلى سنة (١٠٢٠ هـ) عشرين وألف، فتاقت نفسه لطلب المنصور بن الناصر بن المنتصر ابن محمد الفاسي صاحب فزّان بالإتاوة، فراسله بذلك فامتنع عليه فوجه إليه جنداً، فلما بلغ المنصور ذلك جند قومه واستعد للقائهم، فجمع عشرة آلاف مقاتل ولقيه بمحل يقال له كنير بين أم العبيد والرملة خارجاً عن أرض فزان من جهة الشمال على مسيرة يوم من قرية الزيغن، فالتقوا هناك واقتتلوا قتالاً شديداً ظهرت فيه شهامة المنصور وشجاعته، حتى هزم عسكر سليمان وأكثر فيهم أهل فزان القتل، ثم ردوا بعد الهزيمة، وكسر المنصور وأثخن بالجراح. ولما علم عدم سلامته بعث رسولاً إلى أخيه الطاهر ليفر بالحريم والخزانة ففر لأرض السودان كما أمره، ومات المنصور

من جراحته، وقتل أكثر عسكره واستولوا على أثاث العسكر وسلاحه؛ وتوجهوا إلى أرض فزان فملكوها وجعلوا عليها عاملاً تركياً يقال له حسين النعَّال ومكث بها إلى سنة (١٠٢٢ هـ) اثنتين وعشرين وألف، وجعلوا معه طائفة من الجند، فقام أهل البلد عليهم فقتلوهم عن آخرهم واستأصلوهم، وأرسلوا إلى الطاهر بأرض السودان فقدم عليهم وبايعوه.

[١٨٧] ـ ولما رجع جند سليمان من أرض فزان أمر بخراب قرية تاجوراء لما كان يبلغه عنهم. ثم رفع أهل تاجوراء به الشكاية، بواسطة الجند للسلطان أحمد بن السلطان محمد بن السلطان مراد بن سليم بن سليمان، وأخبروه بما فعل، فأشكاهم منه، وأرسل أسطول شوانيه فدخلت طرابلس سنة ثلاث وعشرين وألف، فاحتال قائدها في أخذ سليمان داي، فأرسل إليه حتى أتاه داخل السفينة، فصلبه في محل القلع من السفينة.

واختلف فيمن تولى أمرها من جهة السلطان أيام سليمان داي: قيل الشريف باشا وقيل بصدرمج باشا. واتفق على توليهما أمر البلد من جهة السلطان. وبصدرمج ـ بباء موحدة مفتوحة بعدها صاد ثم دال مهملتان ثم راء ثم ميم وجيم ـ لقب له وهو اسم القديد بلغة الترك، غلب عليه اللقب حتى لا يعرف إلا به. وسبب تغلبه عليه كثرة مهاداته السلطان بقديد الغزال.

ولاية شريف باشا

[١٨٨] - ثم بعد موت سليمان داي بايع الجند رجلاً شريفاً كان من أهل القسطنطينية قدم طرابلس زمن سليمان داي حكيماً يداوي المرضى، ثم انتقل منها إلى تونس وانتقل منها إلى الجزائر وأقام بها مدة، ثم أناب إلى طرابلس فوجد سليمان داي قتل وكان معه لطافة وظرف، فولاه العسكر أمر البلد وبايعوه على ذلك، ولم يزل والياً لأمرها وتفريق رزق الجند وضبط الخراج إلى سنة (١٠٣٥ هـ) خمس وثلاثين وألف، وقيل إلى سنة أربعين وألف، فقام عليه الجند. فلما أحس بذلك أغلق القلعة واستعد لقتالهم بمن معه فيها، فكبر عليهم ذلك فاستنزلوه منها بحيلة وذلك أنه كانت له عقيدة بالغة في الشيخ العارف بالله سيدي محمد الصيد اليحياوي، نسبة ليحيى بن محمد من بني رقيعة القبيل المشهور بالبلد. وقد كان فاضلاً متنسكاً منقطعاً لله تعالى عازفاً به دالاً عليه، له كرامات ظاهرة. كان في ابتداء أمره في ديوان الجند فبعثوه في بعض الخدم إلى جهة الشرق، فلما مر بقرية الفواتير وجد بها رجلاً مهدوياً منجذباً فلحظه، فانتقل عن حالته وتوجه بكليته إلى الله تعالى. توفي رحمه الله تعالى لست بقين من رمضان سنة خمسين وألف. فألبس الجند بعضهم شبه الشيخ واستنزلوه عن إذن الشيخ، فامتنع إلا أن يرى الشيخ، فلما رأى من أُلبس شبهه لم يشك في أنه هو، فألقى السلم ونزل إليه فقطعوه قبل أن يصل الأرض. فسبحان من لا يحول ملكه ولا يزول.

ولاية رمضان داي

[١٨٩] ـ ثم بعد موته بايع الجند رجل منهم يقال له رمضان داي يدبر أمرهم، وكان ضعيف النكاية، وبذلك تقوت شوكة الأعراب حتى أرادوا أهل البلد على الإتاوة، وكانوا يأخذون اللحم من المجزرة إذ كانت خارج باب هوارة من جهة الغرب.

[١٩٠] ـ وفي أيامه قدم محمد باشا الساكسلي ـ نسبة لساقس وهي جزيرة مشهورة من جزر الروم، ومنها تجلب المستكي البلدي وهي على دين النصرانية ـ نوتياً في بعض سفن النصارى، فحضر فجلس أخذ الفأل بالحصباء خارج باب هوارة فأخبره الآخذ أن ملك البلاد يصير إليه، فأعادها فأخبره بذلك، فعجب في نفسه من ذلك وهو على دين النصرانية، وهي قضية اتفاقية كقضية عمرو بن العاص رضي الله عنه حين قدم الإسكندرية في جاهليته مع بعض أساقفة النصارى بسبب معروف كان صنعه فيه عمرو لما قدم الشام تاجراً، وكان عليه رعي الإبل، وكان الأسقف من العباد، فأصابه العطش واشتد به، فمر بعمرو فاستسقاه فسقاه، ثم نام بإزائه فجاءته حية لتنهشه فقتلها عمرو دونه، فلما أفاق وشاهدها سأل عمراً عن ذلك، فأخبره الخبر، فقال: كم دية الرجل عندكم معشر العرب؟ فقال مائة بعير، فقال كم يساوي البعير عندكم؟ فقال عشرة دنانير، فقال هل لك أن تقدم معي الإسكندرية فأعطيك ديتين لإحيائك لي مرتين؟ فأجابه عمرو إلى ذلك، وقدم على أصحابه فأخبرهم بذلك ووعدهم إن انتظروه إلى قدومه أعطاهم إحدى الديتين، فأجابوه إلى ذلك، وانتقل معه حتى وصل الإسكندرية، فبينما هو بها إذ وافى مجلساً يلعب فيه أولاد الملوك بكرة يترامونها بينهم فمن خرجت من كمه تولى أمر مصر، فرموها بمحضر عمرو

فأصابت كمه فخرجت منه فتعجبوا من ذلك فأعادوها فأصابته، فكان أن تولاها عمرو في خلافة عمر رضي الله عنهما، ففتحها وكتب له العهد عليها.

[١٩١] ـ ثم انتقل محمد باشا إلى الجزائر وهو على دين النصرانية فأقام بها ثم أسلم، وعمّر شينياً واشتغل بغزو أرض العدو، ثم قدم بشينية على طرابلس وأحب الدخول في جندها فأتى رمضان المذكور وأعلمه أنه يحب الدخول في جنده فرتبه في ديوان رؤساء السفن فغزا أرض العدو وأصاب غنائم.

ثم تاقت نفسه لمصاهرة رمضان، فعقد له على ابنته مِنا ودخل بها.

[١٩٢] ـ وكان الغالب على دولة رمضان امرأة يقال لها «مريم بنت فوز الشبلية» لنفوذ كلمتها عند الأعراب الغالبين على أمر البلد، وهي التي تتوسط بينهم وبين الجند بالخير، فلذلك عزت كلمتها وارتفع كعبها في البلد حتى كان الديوان يأتيها لبيتها، وكانت تحت بعض رؤساء الجند.

فلما رأى محمد ساكسلي ذلك وضعف رمضان وخوره، راوده على تسليم الأمر إليه، فأجابه إلى ذلك، ودبر حيلة في ذلك خشية ألا يرضى الجند، فأمره أن يخرج غازياً وأن يعلم طائفته بذلك، ويدخل ليلاً ويستأذن في دخول القلعة، ففعل ودخل البلد ليلاً واستأذن في الدخول فأبى عليه الجند المرتب بها للحراسة حتى يستأذنوا له، فاستأذنوا رمضان فأذن في دخوله فدخل بمن معه، فلما استتموا بالدخول بطش بمن بالقلعة من الجند، واستولى على الخزانة وأصبح يبايعه الناس.

ولاية محمد باشا الساكسلي
سنة (١٠٤٠ ـ أو ١٠٤٢ هـ)

[١٩٣] ـ فلما تمت له البيعة وظف على دور البلد في كل شهر شيئاً لضعف الخزانة وأجرى بالباب مكساً على الخارج من المدينة والداخل إليها، وكان عدة ما يأخذ من استلزام البابين في كل سنة ألفين وخمسمائة ريال، وقدر على الشجر من النخل والزيتون وظيفاً قليلاً يعطونه في كل سنة.

[١٩٤] ـ حكى من يوثق بخبره قال: حُدِّثت ممن أدرك ذلك أنه كان يأخذ على النخلة الواحدة بيضة، وكانت جباية ذلك عند تمام السنة.

وكان عثمان الساكسلي علجاً لبعض الجند، وقيل للشريف داي الذي تقدم ذكره، فاستعمله قائداً بساحل الأحامد لأخذ العشر وما فرضه على الشجر، وكان اكتسب من أخلاق العرب وشجاعتهم فظهرت منه نجابة.

[١٩٥] ـ وكان محمد المذكور أراد أن يبطش بمريم بنت فوز، فمرض زوجها فأتاه يعوده واستصحب معه دواء مسموماً ودفعه له، فلما تناوله خرج محمد من عنده فما بقي إلا يسيراً حتى قضى نَحبه، ولما خرجت مريم من العدة خطبها، قيل لنفسه وهي رواية الأكثر، وقيل لبعض علوجه وأمر بدخولها للقلعة، فهُيىء لها بيتٌ، ورفعت ما كان بيدها له، فلما استقرت بها أمر بها فقتلت، واستولى على ما بيدها.

[١٩٦] ـ ثم دبَّر مع أحمد بن رقيعة حيلة في قمع محاربي الأعراب، فأشار عليه بترتيب جند بريّ وأن يركبهم الخيل، فرتب جنداً وأركبهم الخيل وولى قيادة جيشهم عثمان الساكسلي لما ظهر منه من نجابة وشجاعة وصار يغزو أهاليهم

فيأخذهم، ويحتال على رؤسائهم فيأخذهم بالأمان فيقتلهم حتى كسر شوكتهم، وضرب الخراج على من استضعفه ودان له منهم.

[١٩٧] ـ ولم يزل هذا دأبه معهم إلى أن دخلت سنة (١٠٥٩ هـ) تسع وخمسين وألف، فمات في ذي القعدة ليلة الجمعة لليلتين خلتا منه. وقيل سنة ستين وألف والأول أصح. وكانت ولايته سنة (١٠٤٠ هـ) أربعين وألف. وقيل سنة (١٠٤٢ هـ) اثنتين وأربعين وألف وهي رواية الأكثر. وكان موته بِسُمٍّ سحق له ووضع في تفاحة وأعطاه إياها طبيب إفرنجيّ كان أسيراً عنده ـ كما تدين تدان.

ولما أكل التفاحة اشتد به الألم وصاح بخازن داره رمضان حتى أحضره بين يديه فلم يسمع منه كلمة سوى لفظة «أوغلوم أولدم» ومات. ومعنى هذه اللفظة التركية يا ولدي مت.

[١٩٨] ـ ولما مات أغلق رمضان المذكور دونه باب الدار ولم يدع أحداً من الغلمان الحاضرين يخرج إلا غلاماً يقال له محمد أرنؤوت، وأوصاهم بعدم الصياح وألا يخبروا أحداً من الخارج، ونزل فأرسل خلف محمود كيخية فحضر فأخبره بموت الباشا واستفهمه عن وجه الرأي في ذلك، فأجاب محمود: الرأي عندي أن تلي الأمر أنت وأبايعك على ذلك وأنا بمحلي، وعليّ ضبط البلاد أحسن مما كانت في مدته، ولا أدع مشوشاً علي بشيء. فقال: لا طاقة لي بهذا، ولا أتحمل هذا الخطب العظيم، والرأي أن تتولى أنت مكانه، إذ كذلك القانون، فقال محمود لا أفعل.

وكل هذا وليس معهم إلا غلامان أو ثلاثة لهما، فلما تطارحا الأمر بينهما وأباه كل منهما.

قال رمضان: كان الباشا يقول في حياته: سئمت من هذا الأمر وكبر سني ومات ابني، وأريد أن أسلم لعثمان باي وأستريح ـ وكان ابنه مات ليلة السابع والعشرين من رمضان من سنة موته. فلم يكن بينهما إلا نحو الخمسة والأربعين يوماً ـ هكذا سمعت منه.

فلما سمع ذلك محمود كيخية نهض لنداء عثمان باي لذلك الأمر، واستصحب معه أرنؤوت تابع رمضان خازندار، فلما أتيا داره وصاحا به أشرف عليهما وسأل ما

الخبر؟ فأخبروه فامتنع قليلاً، فأقسما له، فلما تحقق نزل وسار معهما إلى القلعة، ففتح لهم رمضان خوجة الباب وأدخلاه وحده، ومنعوا الأربعة نفر الذين أتوا معه من الدخول، وأغلقوا الباب دونهم.

فلما استقر بهم المجلس قال لرمضان: تول الأمر وأنا خادمك كما كنت مع سيدنا لأني أعرف محبة أهل البلد لكم، وكذا رعيتها وحاضرها وباديها، وأعلم ثناءهم الخير عليكم، فامتنع وقال: لا طاقة لي بهذا الخطب، فرغبه عثمان ومحمود في هذا الأمر كثيراً وتكفلوا له بتمهيد البلد وضبط خراجها وجندها وحالفاه على ذلك، فأبى عليهم وقال: سمعت من الباشا في حياته يريد تسليم الأمر إليك.

ولاية عثمان باشا

[١٩٩] ـ فأخذه محمود كيخية وأجلسه على الكرسي وبايعه، وتبعه على ذلك رمضان الخازن، ثم أرسلوا خلف مصطفى شلبي وأحضروه وأخبروه الخبر فرضي وبايع، وأرسلوا إلى محمد باي فأحضروه فرضي وبايع، وجعلوا يصيحون بأهل الحصار فرداً فرداً، وكل من أتى أخذوا بيعته حتى بايع أهل القلعة كلهم، واشتغل بعد ذلك بالكتب للعمال وأهل الطاعة يخبرهم بموت محمد وتوليه ويهنئهم.

فلما أصبح فتح القلعة والمدينة، وأمر المنادي بالنداء للأول بالرحمة، وللثاني بالنصر.

فلما سمع أهل البلد ذلك دخلوا فبايعوا كلهم ولم يختلف عليه أحد من أهل البلد والعسكر، فأقبلت الرعية للبيعة أفواجاً، وفرَّق في العسكر لكلٍّ عشرة ريالات، ثم أخرج محمد باشا ودفنه بإزاء تربة رمضان داي على السكة النافذة للبحر من شرقي المدينة، وبنى عليه بناية عظيمة ووقف عليه أوقافاً، وغرس في التربة غرسة كرم ألبست المحل أنساً وبهاء، وأسقط عن دور البلد الوظيف الذي كان وضعه عليها محمد باشا تؤديه كل سنة للحراسة.

وأسقط عنها وظيف القضاة الذين كانوا يأخذونه من الميت.

[٢٠٠] ـ كان القضاة إذا مات الميت أرسلوا لوارثه وطالبوه بدفع سدس ماله، وسموا ذلك فريضة، وهو ظلم وجور لم يقل به مسلم ولا ملة من الملل، إلا ما حكي بعض الأخباريين عن فرعون في ابتداء أمره من أخذه مكساً على الميت، فإن عنوا بالفريضة فريضة فرعون فالإسلام نسخ ما قبله، على أن ذلك لم يكن شريعة

وإنما هو ظلم، وإن عنوا أنها فريضة إسلامية واعتقدوا حلها فهم كفار ملحدون، إذ الإجماع والكتاب والسنة على حرمة مال المسلم ودمه بغير حق شرعي.

أما الكتاب فقد قال تعالى: ﴿**ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل**﴾ عطفاً على ما قبله من تبيين حدود الله فهو منها، والآية محكمة.

وأما السنة فحديث الصحيح: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله» والإجماع على ذلك.

وكانوا من حرصهم على هذا السحت يُقوّمون على وارثه جميع ما خلفه من عقار وغيره بأغلى ثمن ويأخذون سدسه، وزيادة فوق ذلك، فحمد أهل البلد على ذلك وأثنوا عليه الجميل.

[٢٠١] - ثم راسل السلطان محمداً الرابع في طلب الإمارة، فكتب إليه السلطان بذلك وولاه أمر طرابلس وعملها وعمارة السفن والغزو في البحر، فغنم من الكفار سفناً كثيرة وأموالاً غزيرة، وكان جمَّاعاً للأموال بكل وجه أمكن، واستمر على ذلك.

وفي كل سنتين يجدد له السلطان تشريفاً، وكلما جاءه رسول من قبل السلطان أحسن إليه الإحسان الكلي.

[٢٠٢] - فلما تمكن اشتد ظلمه ومنع التجار المسافرين لأرض فزان من التجارة في النحاس والخرز والكاغد، ونادى ألا يتجر بذلك أحد غيره، وحجز على الناس شراء السلع المهمة القادمة من البحر، وأقام رجلاً لشرائها، ودفع لرجل مالاً يشتري كل سلعة تأتي من بلاد النصارى أو غيرها، ولا يستطيع أحد أن يشتري سلعة من أربابها غيره وهو يبيع لأهل السوق، فبذلك ضعف تجار أهل البلد والمسافرون لأرض فزان، وضعف الجالبون حيث لم يصادفوا ربحاً بسبب الحجر عليهم.

[٢٠٣] - قال حسين بن أحمد البهلول فيما كتب ومن خطه نقلت: كان ذا حزم وعزم وشجاعة، وطالت دولته، واشتهر خبره في مشارق الأرض ومغاربها. وكان قبل ولايته وهو قائد الجيش عند محمد باشا له فتكات في مغازيه، وأحواله قل أن توجد في الأكثر من أمثاله، وكان شديد العزم في غزوه على الأعراب، وربما بقي الستة الأيام والسبعة لم يترجل عن فرسه إلا لضرورة ليلاً ولا نهاراً، وربما علق على الفرس العلف وركب فرساً آخر غيره.

جبر بن موسى التاورغي

[٢٠٤] ـ وكان في أيام محمد باشا خلع بيعته جبر بن موسى التاورغي، ولم يدخل يداً في الطاعة، واجتمعت عليه قلوب أهل تاورغاه لكرم كان فيه لم يسمع بمثله إلا لحاتم، وأحبه الأعراب.

[٢٠٥] ـ يحكى أنه نحر في عيد أربعين جزوراً وثلاثمائة شاة، ومدحه الشعراء. فوجه محمد باشا إليه عثمان بك في جند فحصره بتاورغاء بلده، وهو بلد وخيم له حمى، شديد الحر، على مسافة ست ساعات من مصراته أو أزيد بقليل، وبه عين ماء عذب يشبه النيل ماؤها في الغزارة، ومنها تتفجر الأنهار والجداول الجارية في البلد لسقي النخل، وبه من شجر النخل وضروب أنواعه مالا يحصى كثرة. وأرضه سبخة ينقلب بها طعم الماء إلى الملوحة، فإذا ركد تمرر، صعب المسالك لا يكاد يهتدى لمنازلها الخبير من صعوبة ذلك، فحاصره بها ودخلها، وقطع نخل بعض جهاتها. فالتقى الفريقان، فوقعت الهزيمة في جند عثمان، فلما رأى ذلك ترجل عن فرسه وأسند ظهره إلى نخلة واخترط سيفه وأقسم لا يزول من محله إلا أن تكون الكرة عليهم أو يموت، وصاح بالجند وهو يحرضهم على الثبات ويقلل القوم في أعينهم ويقول: اثبتوا وأنا أكفيكهم، حتى رد عليه الجند، فوقعت الهزيمة على جبر وانهزم بمن معه وخرج من البلد، واستولى عثمان على حريمه وبعض أولاده.

[٢٠٦] ـ فاستصحب الأولاد والحريم حتى نزل مصراته، فترك الحريم بها وقتل أولاده بمحل السوق القديم بالبلد بقرية أولاد شوشان. وهي قرية صغيرة غربي مدفن الشيخ زروق، ودفنوا بموضع يقال له مسيد ابن دخان ـ بميم وسين مهملة

بعدها مثناة تحتية ودال مهملة آخر الحروف ـ خارج البلد بنحو ميل عنها لجهة الشمال، ولم يتركهم يدفنون بمقابر المسلمين.

[٢٠٧] ـ قال وكان مؤيداً بالنصر والظفر، ما توجه لناحية إلا ظفر بها، وكان في عداد جند محمد باشا وصهره رمضان.

[٢٠٨] ـ وكان أهل فزان قتلوا حسيناً النعال كما ذكرنا سنة (١٠٢٢ هـ) اثنتين وعشرين وألف وبايعوا الطاهر، ولم يزل بها معتدل الحال إلى سنة (١٠٣٢ هـ) اثنتين وثلاثين وألف، فطغى الطاهر وتجبر وزاد في الخراج على الخرمان أهل وادي الآجال، وهو وادٍ متسع كثير النخل وبه من شجر العذباء كثير، وعرضه نحو الثمانية عشر ميلاً، تكتنفه من جهة الغرب رمال، ومن القبلة والشرق جبال شواهق، وفيه مراتع الإبل قل أن توجد، وأهله يشربون من الآبار، وماؤه عذب فرات، وهو وادٍ مخصب في الزرع والتمر، وكل الفواكه. وأهله من الشمال الخرمان، ومن الجنوب طائفة من العرب يسمون الحجاج وإليه يأوى التوارق. وأكثر أهله بيض، وبالرملة التي غربيه قطع ماء يكتنفها الرمل من كل جهة، وهو ملح أجاج أشد ملوحة من البحر ونتنه يشبهه، ولا يعلم له عمق. وقد عرف والرمال تنهال فيه، ولم يظهر لها فيه أثر.

[٢٠٩] ـ وأعظم تلك القطع القطعة المسماة بقبر عون، يسكن حولها قوم من أهل الوادي يسميهم أهل تلك البلاد الدوّادة لاصطيادهم من ذلك البحر ديداناً طوالاً حمراً تشبه الدود الكبير.

وأكثر ما يمكن اصطياده زمن الربيع والخريف، ويقل في الصيف، ولا يمكن اصطياده في الشتاء لصعوبة البحر، وهو مسهل نافع جداً مخرج للصفراء.

[٢١٠] ـ وهي من أطيب البلاد هواء، وأهلها لا أرض عندهم تزرع، لإستيلاء الرمل عليها، ولهم غرس نخل بجنب البحر، وبإزائه أحساء ماء عذب لا نظير له، ويأتي لذلك البحر من به علة فيغتسل به فيبرأ بحول الله وقوته كائنة ما كانت علته، وماؤه ساخن، وأهل تلك النواحي يستشفون به، وهو على مسيرة نصف يوم من الوادي.

[٢١١] ـ والقطعة الأخرى تسمى مندرة، وهي مثل الأولى في النتونة والملوحة، وليس بها من الديدان شيء، ويكتنفها من كل جهة النخل، وبها أنواع

عجيبة وثمرتها تتباطأ بالطيب، الباكورة منه تكون بآخر الخريف، وباقيه يكون في الشتاء، وبه رجل صالح يسمى زائد بن رزق يقصده أهل تلك النواحي بالزيارة وحوله ناس، وبينها وبين قبر عون نحو الستة الأميال.

[٢١٢] ـ والقطعة الأخرى تسمى الأطرون لاستخراجه منها زمن الصيف.

فانتقلوا فارين إلى طرابلس، فأحس الطاهر بخبرهم، فراسل مرابطي سبهة بالتعرض لهم وإرضائهم، فتعرضوا لهم واسترضوهم فلم يرضوا، وراسل عامله على سوكنة أبا نوح المصراتي بالتعرض لهم فلم يقدر، فقدموا على رمضان داي وصهره محمد الجزائري وهو الغالب على أمره فأكرمهم ووجه معهم جيشاً لأرض فزان، فلما سمع الطاهر بذلك فر إلى ابن نوح وكان ملكه إذ ذاك الأمير عمر المقدسي وكان في نفسه من الطاهر شيء بسبب سَمْله عَيْني ابنَي أخيه محمد المنصور: المنتصر ومحمد، وإرسالهما لدار ملكه، وكان ذلك سبب تغير المقدسي عليه. فتغير تغيراً شديداً حتى عزم على التوجه إليه، فأخبره بعض منجميه بأن سيقدم عليك الطاهر أرضك، فلما فرّ هو وأعوانه وبلغوا قرية يقال لها بلد المرأة ـ ومنها افتراق طريقي السودان وابن نوح ـ ولم يكن لأرض السودان طريق إلا من هنالك، والطريق المارة عليه على قرية غات حديثة عهد.

[٢١٣] ـ فلما بلغوا تلك القرية أراد أعوانه التوجه لأرض السودان، وأراد هو ابن نوح، فافترقوا من هنالك بعد أن كابد أعوانه معه شدة في عدم التوجه إليها فأبى عليهم إلا التوجه، فتوجه وكان معه اثنا عشر حملاً ذهباً.

فلما بلغ الأمير عمر خاط عليه وعلى من معه من أولاده ومن توجه معه من أعوانه شكاير وأغرقهم في البحر وتولى العسكر البلد وجعلوا أحمد بن هويدي الخرماني عاملاً عليه، وأبقوا معه طائفة من الجند لحراسة البلد وضبط خراجها، فلم يزالوا بها إلى سنة (١٠٣٦ هـ) ست وثلاثين وألف، فتوجه إليهم الأمير محمد بن جهيم ابن أخي الطاهر، وكان قد فرّ معه، فلما توجه عمه لأرض ابن نوح كره ذلك وتوجه لأرض كاشنة ومات ولده جهيم بها. فراسل ولده محمد أهل فزان خفية فتوجه إليهم بمن معه.

[٢١٤] ـ فلما سمع بذلك الخرماني جند من معه ومن وافقه وخرج للقائه،

فالتقيا بحمّيرة ـ بلد بين زويلة وتراغن ـ وأوقع محمد بهم ففروا إلى مرزُك، فقفا أثرهم وحاصرهم بها حصاراً شديداً حتى فني طعامهم، وأكلوا ما معهم من الدواب حتى اكلوا الحمر، وراسلوا ـ وهم محصورون ـ محمد باشا يطلبون المدد، فوجه إليهم مدداً، ولم يكن للأمير محمد بن جهيم علم بالمراسلة.

[٢١٥] ـ وكان سلطان بن مرعي الغيباني ـ نسبة إلى قبيلة الغيبان فخذ من بني مقرح ـ محصوراً معهم، وكانت له صداقة مع عبد الله دباش الحسناوي، وكان عبد الله المذكور مع الأمير محمد بن جهيم، وكان مواصلاً لصديقه سلطان المذكور وهو محاصر، وكان يضع له الطعام بمخلاة ويأتي به قبالة القصر فيما يستطيع أحد أن ينزل إليها غير السلطان، فإذا جن عليه الليل نزل إليها وأفرغ ما فيها ووضعها محلها ورجع، فكان هذا دأب عبد الله معه، فلما جاءهم الخبر أن المدد قرب منهم أراد سلطان بن مرعي مكافأة صديقه بإعلامه به خوفاً أن يستولي عليه إذ لا علم للأمير محمد ومن معه بهم، فأعلمه تلويحاً بأن خاطبه: بأن العَوْدة ولدت مهراً، فكنى عن أنفسهم بالعودة وهي المسنة من إناث الخيل لأنها لا تقدر على الكر والفرّ، كما أن المحصور كذلك، وعن المدد بالمُهْر وهو الصغير من ذكور الخيل لقوته على الكر والفر، ففهم عبد الله أنه أتاهم مدد، فأخبر محمد بن جهيم بذلك فأفرج عليهم الحصار وانتقل عنهم، وفر أمامهم متقلباً في أرض فزان إذا دخل أرضاً دخلوا فيقاتلهم حتى سئم الجميع من ذلك.

[٢١٦] ـ فحضر مرابطو فزان من كل قطر، وعقدوا بينهم صلحاً على أن يكفوا عن بعضهم ويقفوا عن القتال إلى أن يراجعوا محمد باشا، فراجعه سيدي علي الحضيري المعداني الفقيه الشهير وأخوه كلالة سيدي حامد الحضيري وجعلوا صلحا بينهم على أن يخرج الترك من أرض فزان ويدَعوها بيد صاحبها، ويؤدي إناوة كل سنة أربعة آلاف مثقال ذهباً: ألفين منها تبراً وألفين يعطون قيمتها عبيداً وإماء، وجعلوا ثمن كل عبد ذكر خمسة وعشرين مثقالاً، وثمن الأمة ثلاثين مثقالاً، وثمن الخصي ثمانين، وتحملوا بنفقة الرقيق، وأن من مات منهم عليهم إلى أن يبلغوا سوكنة، ومنها إلى المدينة على السلطان؛ وكراء رواحل الرقيق على السلطان صاحب طرابلس وكل ما ذكرنا للخزانة. واشترطوا لآغة العسكر ثلاثة عشر مثقالاً وثلثاً ذهباً، ولكتبة دار الملك سبعة مثاقيل إلا ثلثاً، ولسعي النوبة والي أمرها ثلاثاً وثلاثين مثقالاً وثلثاً

وخصيًا، وانعقد الأمر بينهم على ذلك، وبعث محمد باشا لجنده بالإنتقال إن التزم محمد بن جهيم بذلك.

[٢١٧] ـ فلما بلغ محمداً ما فعل الشيخان التزم بذلك وسلم له الجند في بلده.

وإنما ذكرنا القصة هنا مع ما فيها وإن كان محلها عند ذكر محمد باشا لما اشتهر من أمر كبير جنده البري عثمان المذكور فلعله يُظن أنها كانت على يديه، ولم أقف على من ذكر أنها كانت على يديه، ولم يزل محمد بن جهيم متولياً أرض فزان إلى أن دخلت سنة تسع وستين، فتوفي وتولى ابنه جهيم موضعه بعهد منه.

[٢١٨] ـ قال حسين بن أحمد فيما كتب في شأنه: كان عثمان هذا داهية حازماً له من الرأي والتدبير وكتمان السر ما لم يكن لغيره. كان إذا ورد عليه كتاب قرأه بنفسه ثم وضعه في جيبه، وإذا أمر بكتاب كتب ثم عرض عليه فقرأه بحيث لا يستطيع أحد الزيادة عليه. وكان ذا مكر وخداع لا يرقب في مؤمن إلاّ ولا ذمة.

ولما عقدت له البيعة رآه بعض الأعراب مشرفاً من أعلى برج القلعة فقال: الآن استراحت الأعراب واطمأنت وحق لها السرور حيث سجن هذا الرجل نفسه، فقال من سمعه: الرجال كثير غيره يقومون مقامه.

فقال: ما أظن أحداً يقوم مقامه، هيهات هيهات أن يكون أحد مثله.

خيانته لأهل أوجلة

[٢١٩]ـ ولما كان عثمان في خدمة محمد باشا كان أحمد بن عبد الهادي صاحب أوجلة له نحو العشرين رامياً بالبندق أتى بهم من مصر ملك بهم الجبل الأخضر كله، ودان له بذلك أهله، فأتى عبدُ الله بن سيدي أحمد بن حمودة عثمان وكانت بينهما صداقة وأخبره بذلك وهوَّن عليه أمر أوجلة والجبل، فعرض ذلك على محمد باشا وطلب منه الإذن فأذن له في ذلك، فخرج بطائفة من الجند معه في البر وأمده محمد باشا بطائفة أخرى من البحر.

فلما بلغ عثمان باي أوجلة خرج إليه أحمد بن عبد الهادي وجنده وأهل البلد في قوة عظيمة لا يقدر عليها، فلما رأى ذلك ذهب إلى الخديعة على عادته، فأظهر لهم الأسف والندم على تعبه إليها، وقال: لو علمت أن أوجلة هكذا بليدة في صحراء ليس لها ضياع تقوم بساكنها ولا كثرة نخل ولا مياه ولا غيرها لما كنت قدمت إليها، ولا أزعجت هؤلاء المساكين، والله ما بي غير ذلك، وأما أنا فلا يهمني التعب. لأن خادم السلطان معد لذلك وجعل يتأسف ويتأوه ويظهر الندم على ما فعله مع هؤلاء الفقراء المساكين المنقطعين في هذه الصحراء، حتى لم يشك أحد منهم في ندمه.

وأخذ يقول لهم: ضعوا سلاحكم أيها الفقراء وأريحوا أنفسكم، واجعلونا في حل مما نالكم بقدومنا عليكم، وأنا إن شاء الله أستريح يومين هنا وارتحل عنكم، ولن تراعوا بعد اليوم إن شاء الله.

فراحوا إلى بلدهم ووضعوا سلاحهم واطمأنوا، ولم يبق في قلب أحد منهم شك أنه نادم على صنيعه.

فلما كان الغداة أتاه كبراؤهم وسألوه أن يأخذ له من البلد شيئاً يعوض عنه ما صرف على جنده، فقال: الأمير في غنى عنكم لا يطمع فيكم، وأنا إن شاء الله أمضي إليه وأخبره بحالكم، غير أني أطلب منكم أن تجعلوه في حل من فزعكم وروعكم بسبب قدومنا عليكم.

ثم التفت إلى الشيخ وقال: يا أحمد يا مسكين استوص بهؤلاء المساكين خيراً، وأما أنا فلا أطمع فيكم، ثم سألهم أن يتركوه يدخل البلد يصلي الجمعة، وعلّل لهم ذلك بأن قال أراها وأخبر الأمير بحالها داخلاً وخارجاً، وانقطاعها في الصحراء وقلة نخيلها وعمارتها وحالها، لأنه سمع بها، وربما ظن أنها من أمهات الضياع، وليس الخبر كالعيان، فأجابوه: حباً وكرامة ادخل. فدخل وصلى بها الجمعة، وأدخل معه بعض أصحابه، وأمر الباقين بالإحداق بها فأحدقوا.

[٢٢٠] ـ ولما استتم أصحابه بالدخول وجلس، شكى إليه أهل البلد حالهم مع شيخهم وظلمه لهم وأخذه أموالهم، فقبض عليه وسجنه وجعل يتتبع تجار البلد وبسلب أموالهم ويسجنهم ويسجن من النساء كل من لها مال حتى تؤديه، وبالغ في نهب أموالهم حتى نهب أقراط الصبيان من آذانهم وهي لا يزيد وزن الواحدة منها على مثقال، ولم يترك فيها ذهباً ولا فضة إلا أخذه، وجمع ما فيها من رقيق، وقيد الشيخ أحمد وأتى به وبنسائه وحريمه وبنيه وإخوته ومن له به تبع إلى حضرة محمد باشا.

وكان ما جمعه من فضة شيئاً كثيراً، فضرب ذلك محمد باشا سكة زنة كل قرميل نصف درهم وأجراه في الصرف بأربعة طرانش، واستمرت تلك السكة بطرابلس إلى أن ضرب خليل سكة، وكانت لم تستمر في غير طرابلس وعملها في البلدان، وكان له من الرأي وكتمان السر ما لم يكن لغيره، وكان إذا أتاه كتاب لم يأمن عليه كاتباً وتولى قراءته بنفسه.

[٢٢١] ـ قال البهلول: ومن عظيم ظلمه الفاحش أنه كان إذا باع أحد الشركاء عقاراً ولو جزءا لا يتجزأ أغرم البائع وغير البائع مكس العقار كله، ولو بيع قيراط واحد أخذ صاحب المكس مكسه كله ممن باع ومن لم يبع، وربما كان من لم يبع

يتيماً أو أرملة فظلمهم بأخذ المكس، وهذا شيء لم يسمع بمثله في ملة من الملل، فلذلك كان المكس أولاً ثلاثة من المائة فترقى إلى أن بلغ مكس العبد عُشْرَ ثمنه وأكثر، وجعل على مطلق العبد القادم من فزان ريالاً وثمناً، وسمى ذلك غفراً وإن كان الآتي به لم يَسْلَم له إلا هو، أو كان ضعيفاً.

ولم يزل يترقى المكس بسبب ذلك إلى أن بلغ استلزام البائعين أربعة وعشرين ألفاً، بعد أن كان ألفي ريال وخمسمائة.

[٢٢٢] ـ وكان جباراً على الرعية لا يرقب فيهم إلاً ولا ذمة، زاد في الخراج على القانون القديم شيئاً كثيراً، وسلط عليهم القواد ولم يقبل منهم شكوى، فإن كثر عليه اللوم قال: إن القواد استلزموا بكذا، فهل لكم أن تتحملوا بذلك ولا أخرج لكم قائداً، فيتحملون بذلك لضرر القواد، وسماع قولهم في الأهالي وعدم سماع شكوى الأهالي فيهم.

فبذلك لزم البلد الذي كان وظيفه أربعة عشرة آلاف: أربعة في الخراج المعهود وستة استلزام القواد؛ حتى أضر الرعية وأجلاهم وشتت شملهم، ومن فر منهم لم يتعرض له ولم يرضه بشيء، ومن بقي منهم يغرمه ما لزم البلد كله، إذ عنده ما ذكر عليهم بدفتره آية محكمة لا يجوز عليها الفسخ، حتى أنه يوجد بدفتر تونس من الطرابلسيين المؤدين للخراج شيء كثير.

[٢٢٣] ـ وكان إذا أتاه شيخ كبير هرم لا يستطيع خدمة ولا مال له ولا ولد، يطلب إزالة ما فرضه عليه ألزمه، ولم يقبل منه في ذلك. وكان يأتيه أهل القرى ويتحملون باستلزام القواد؛ فإذا دفعوا ذلك أمهلهم عاماً ثم باعهم من قائد آخر وسلطه عليهم، ولا يقبل منهم فيه قولاً ولا حجة، وكان ما فرضه مَنْ قبله من العشور على أهل الفلاحة، ومن جرى عليهم الخراج مضبوطاً على كل بلد قدر معلوم يأخذون ذلك بمكيال مراد لا يزيدون شيئاً ولا ينقصون من ذلك.

فجعل هو كل سنة يزيد في المكيال ويرسل لكل بلد كيلاً يكيلون به الوظيف حتى بلغ كيله ثلاث كيلات بالمرادي.

[٢٢٤] ـ واحتال في زيادة الخراج عليهم من جهة العشر ليضعف أهل الإسلام ويهدم أركانه، ففرض عليهم المطيرة زيادة على العشر وعم بها كل أهل البلد من عليه

ضريبة الخراج ومن لم تكن عليه من أجنبي وغيره. وجعل هذه المطيرة في القدر تعدل السكة القديمة، وربما أعطى الرجل في المفروض الذي زعم أنه عشر جميع ما بيده ويبقى هو وعياله يسألون الناس، حتى أضر بالخلق الضرر الشديد.

[٢٢٥] ـ ولم يول من حاشيته متأصلاً في الإسلام منصباً، وإنما يُولّى المناصب: مثل قيادة الجيش، ومنصب الكاهية أحداثَ العهد بالإسلام: ولى قيادة الجيش ابن أخته رجب بك، وولى الكاهية أولا محمد ابن اخته، ثم مات بالطاعون فأقام بعده ابن بنت أخيه سليمان، وكان قدم عليه أبناء ابن أخيه، وهم على دين النصرانية، فختنهم كرهاً، وقيدهم على البلدان، فظلموا ظلماً شنيعاً، ولم يستطع أحد أن يشكوهم.

[٢٢٦] ـ وتعدى ظلمهم إلى أن أحيوا سنة عملوق بن طسم، فكان أحدهم إذا زفت عروس إلى بعلها، بدأ بها ظلماً وافتض بكارتها ثم يتركها لزوجها.

وإذا أخبر بامرأة جميلة في بلده الذي هو به قائد أرسل إليها وأتى بها كرهاً وفعل بها ما أراد، ولا يستطيع زوجها ولا غيره دفعاً ولا منعاً، ومن أراد الشكوى منع الدخول إلى الأمير عثمان، وهذا شيء لم نسمع بمثله إلا عن عملوق الأكبر ابن طسم الحميري.

[٢٢٧] ـ فقد ذكر المؤرخون أن قبيلتي طسم وجديس ـ وكانا أخوين ـ لما كثر عددهما أجمع رأيهم على أن يجعلوا ملكاً منهم يرجعون إليه في مهمة أمرهم فملكوا عليهم عملوقاً، واتخذ قبيله أعواناً وحاشية، ولم يزل يأخذ من جديس الإتاوة ويقوي بها قومه، ويزيد في الظلم إلى أن وقع لهزيلة بنت مازن الجديسية واقعة، وذلك أنها كانت تحب ابن عم لها، ولها منه ابن طلقها قبل فطامه، فلما تم فطامه أراد أخذه منها فأبت عليه ذلك فحاكمها إلى الملك عملوق، فلما حضرت بين يديه قالت: أصلح الله الملك، إن هذا الولد حملته تسعاً ووضعته دفعاً، وأرضعته شفعاً، ولم أنل منه نفعاً.

فلما اشتدت أوصاله وحان انفصاله أراد أخذه مني كرهاً ليتركني برماً ـ أي ذاهبة العقل ـ وقال الرجل: «أيُّها الملك أخذت مني المهر كاملاً، ولم تنلني طائلاً، إلا ولداً جاهلاً، فافعل ما أنت فاعل».

فأمر بالرجل فبيع وأعطى المرأة عشر ثمنه، وباع المرأة وأعطى للرجل خمس ثمنها، واسترق الولد ووضعه في جملة غلمانه فأنشدت هزيلة أبياتاً:

أتينا أخا طسم ليحكم بيننا   فأنفذ حكماً في هزيلة ظالما
لعمري لقد حكمت لا متورعاً   ولا فهماً عند الحكومة عالما
ندمت ولم أقدر على متزحزح   وأصبح زوجي عاثر الرأي نادما

[٢٢٨] - فلما بلغت عملوقاً الأبيات أقسم ألا تدخل امرأة على رجل في جديس إلا أن يبدأ بها قبل زوجها، فإن كانت بكراً افترعها وفضّ بكارتها وبعث بها إلى زوجها وإلا أمسكها ثلاثة أيام، وصبيحة الدخول يعمل الولي الوليمة ويحضرها بين يدي السلطان ويقف على رأسه ليعلم من يحضرها أنه الولي زيادة في النكال لهم.

ولم يزل على هذه الحال إلى أن تزوجت سعدى بنت غفار أخت الأسود بن غفار ابن عمها، وكانت يقال لها الشمس لفرط حسنها، فلما سمع عملوق بذلك أرسل إليها قينات زيادة في التعظيم، وكانت تظن أن فعله ذلك بعامة جديس لا بخاصتهم فأحضروها بين يديه فافترعها، وكانت تزعم أنه زوجها فلما فض بكارتها أمرها باللحاق بزوجها، فقالت ألست زوجي؟ فقال بلى أنا الملك عملوق، فلطمته وشقت ثيابها وخرجت على أخيها وقومها وهم على باب الملك ينتظرون هل وجدها بكراً أو لا، ويتشاورون في شأن الوليمة وما هو اللائق بها، ففاجأهم أن خرجت عليهم ثيابها مشقوقة ودمها على فخذيها وأنشدت:

لا أحدٌ أذلَّ من جديس   أهكذا يُفعل بالعروس
يرضى بهذا يا لقَومي حرّ   أهدى وقد أعطى وسيق المهرُ
لأخذةُ الموتة للعروس   أجملُ مما حل بالعروس

فلم يأخذ فيهم ذلك، فلما استقرت بالبيت أنشدت لهم قصيدة وهي هذه:

أيُجمل أن يؤتى على فَتَياتكم   وأنتم رجال فيكُم عددُ النمل
وتمشي سعاد في الدماء غريقةً   سِفاحاً وقد زُفّت عروساً إلى بَعْل
فإن أنتمُ لم تغضَبوا بعد هذه   فكونوا نساءً نائلات من الكُحل
ودونكم طيبَ العروس وإنما   خُلقتم لأثواب العرائِس والغسل

فلـــو أننـــا كنّـــا رجـــالاً وكنتـــمُ نســـاءً لكنـــا لا نقُـــر بـــذا الفعـــل
فقُبحـــاً وشيكـــاً للـــذي ليـــس دَافعـــاً ويَختـــالُ يَمشـــي بيْننـــا مِشيـــة الفَحـــل
فمُـــوتـــوا كِـــراماً واصبـــروا لعـــدوِّكـــم بحـــرَبٍ تَلظَّـــى بـــالضِّـــرام مـــن الجـــزل
وإلاَّ فحلـــوا ظهـــرهـــا وتحمَّلـــوا إلـــى بلـــد قَفْـــر وهـــزل مـــن الهـــزل
فلَلبيـــنُ خيـــر مـــن مقـــام علـــى أذى وللمَـــوت خيـــر مـــن حيـــاة علـــى الـــذل
ولا تَجزَعـــوا قَـــومـــي مـــن الحـــرْب إنهـــا تقـــومُ بـــأقـــوامٍ كـــرام علـــى رِجْـــل
ويهلِـــكُ فيهـــا كـــلُّ نكـــس مُـــواكِـــل ويسلَـــمُ فيهـــا ذُو النَّجـــابـــة والفَضـــل

فأخذتهم الحال وشق أخوها الأسود ثيابه حنقاً، وساعده قومه فيما أراد، فغدروا بطسم بعد أن حثتهم سعاد على ذلك، ولم يفلت منهم إلا رباح بن زيد الطسمي لحق بحسان بن تبع مستغيثاً فأغاثه وظفر بجديس وقصتهم مشهورة.

[٢٢٩] ـ وزاد ذلك الأمر حتى اشتغل به أكثر قواده لما رأوا من تعاميه على ذلك حتى تعدوه إلى الفاحشة اللوطية.

فقد ذكر البهلول: أن أحد قواده بساحل الأحامد جمع الرعية لخدمة بستان له هنالك فاجتمع أهل البلد كلهم فرأى فيهم غلاماً أمرد جميل الصورة، فقبض عليه بمرأى من الناس وفعل به على أعين الأشهاد الفاحشة العظمى، وكان أبوه من أعيان البلد فجعل يستغيث ويصيح، فأمر القائد المذكور غلمانه فقبضوا عليه وصرعوه وما زال يضربه بالسياط إلى أن مات في موضعه ذلك، وحملوه ميتاً ودفنوه، ولم يستطع أحد رفع شكاية لعلمهم المنع في الوصول وعدم قبولها إن وصلوا.

[٢٣٠] ـ وكان الأمير عثمان لم يدخل يداً في الصلح في أكثر الأوقات مع أجناس النصارى، وكان مفتوحاً على يديه وأبلى في جميع أجناس النصارى بلاء لم يعهدوه من مثله، وأخذ أساطيل غزوهم المعدة له، وسنذكر ذلك عندما يناسبه من أبيات القصيدة إن شاء الله تعالى.

[٢٣١] ـ وكان إذا غنم غنيمة وبها بضائع، رمى تلك البضائع على التجار بأغلى ثمن بل ولحق التجار والفقراء وغيرهم من أهل الصنائع حتى أن ما قيمته أربعون باعه مَن أخذَه بثمانية عشر، وكلما أتته غنيمة بها بضائع فعل بها ذلك، وعمم حتى لحق ذلك الحطابين والبقالين والحجامين والنساجين وغيرهم، ولحق بعض أئمة المساجد، وكان بعد فعله بأهل البلد ذلك أراد نهب أملاكهم، فصار إذا سمع بملك

بيع بعث إليه وأخذه، حتى إذا دفع إليه وضع على البائع ـ بعد أن يشهد العدول بالقبض ـ من يأخذ منه الثمن.

[٢٣٢] ـ ولم تكن أملاك أهل المدينة تؤدى خراجاً إلا زكاة ما عمر من السواني فإن عليه نصف العشر، وأكثر أهل البلد لا يؤدي شيئاً، وربما لم يأخذ محمد باشا ممن له نحو القفيز عشراً.

ولما رأى محمد باشا تكاسل أهل المدينة على تعمير أرضهم، أُحصي سوانيهم وترك العشر وفرض على كل سانية أربعة ريالات وربعاً كانت كبيرة أو صغيرة، فليم على ذلك فأجاب: فعلت ذلك ليشتغل الناس بخدمة سوانيهم فيحصل النفع لأن أكثرهم يترك سانيته من غير عمارة كسلاً فيضر بنفسه، وإذا كان عليها شيء للمخزن لا يتركها دامرة بل يعمرها وينتفع وتكثر العمارة والغلة.

[٢٣٣] ـ وقد أحصى محمد باشا النخيل وفرض على كل نخلة عشرين عثمانياً في العام وفرض على أجنة العنب شيئاً خفيفاً.

فلما تولى عثمان أعاد الزمام في الجميع فزاد شيئاً كثيراً في النخيل والآبار والأجنة، ولم يترك لأحد شيئاً، وكذلك أجنة العنب حتى ربع الجابية في سانية أو غيرها كتبه. وجعل الأجنة صنفين سمى صنفاً مرصداً وهو القوي الشجر، وسمى الضعيف غير مرصد، ووظف على كل جابية ريالين إلا ربعاً وعلى غيره نصف ذلك، وربما كان المرصد في بعض السنين لا يفي بما عليه، وربما أعطى صاحبه الوظيف ولا يبقى له شيء.

واحترق العنب في بعض السنين بحيث استأصله الحر ولم يبق منه كثير ولا قليل، وطمع الناس ألا يطالبهم بذلك فأخرج لهم شاوشاً لأخذ الوظيف قبل الإبان تأييساً لهم من الطمع فرفع إليه بعض الناس الشكاية فلم يقبل شكوى شاكٍ ولا عذر معتذر.

[٢٣٤] ـ وزاد على الزيتون النصف على ما كان موظفاً عليه، إذ كان وظيفه قبل ذلك في العام قرميلاً فأنهاه إلى قرميلين، وألزمهم ذلك أثمرت أو لم تثمر، وربما بقيت الخمس سنين والست سنين والسبع لم تثمر شيئاً.

وكل سنة يغرمون خراجها بلا وجه ولا شبهة في كل ثلاثة أشهر ولم يضع

عنهم شيئاً، وأعاد إحصاء النخيل الذي أحصاه مَن قبله وظهرت له الزيادة الكثيرة، بحيث لم يترك حُبساً لمسجد ولا لغيره، فبذلك كثرت الزيادة ومن علم أنه نقص من شجره شيء أقره ولم يحصه عدًّا، ولم يلتفت لمدعي النقص ولو نقص نصف شجره وأدى ما تناوله الزمام القديم رغماً عن أنفه، وكان نخيل تاجوراء لم يؤد خراجاً لأن أهلها كانوا يرون جَعلَ ما طولبوا به من الخراج على الرؤوس أولى منه على النخيل، فكانوا يفعلون كذلك، ويرون أن في ذلك صلاحهم. كذا قال البهلول.

قالت: وهذه نزعة يهودية، إذ لا تضرب على الرقاب إلا الجزية، ولا يرضى بها إلا يهودي.

[٢٣٥] ـ وقال البهلول: وكان نظرهم في ذلك أن الرجل منهم إذا مات وترك أولاداً صغاراً أكلوا ملكهم بلا خراج حتى يبلغوا مبلغ الحلم وليس عليهم حرج في ذلك، فإذا بلغوا حسبت رقابهم وأدوا عليها ما كان مفروضاً، وإذا أراد الرجل النقلة باع ملكه بأغلى قيمة لسلامته من الخراج، فهذا نظرهم الذي لم يره عاقل إلا استقبحه في الصورة بالجزية بل هو أخوها أو هو هي.

فلم يزل عثمان يحتال عليهم إلى أن أحصى نخلهم كله وفرض على كل نخلة في العام قرميلاً ونصفاً نكالاً لهم وأبقى رقابهم ملزمة بما كان مفروضاً عليها، ومفروض النخلة في غيرها قرميل سنوياً لا غير، فضعف بذلك أهلها، وتفرقوا في الأوطان شَغَرَ بَغَر.

[٢٣٦] ـ وكانت له عدة سفن معدة للجهاد في غاية من الإتقان والقوة والسلاح، ولم يضِعْ منها شيء مدة ولايته ـ وكانت أربعاً وعشرين عاماً ـ سوى سفينة غلبها الريح وهي بأرض العدو، فانكسرت وأسروا من كان بها حياً. وكانت سفنه لأهلها اليد الطولى في الغنائم بحيث لم تخرج سفينة إلا أتت بغنيمة أو غنائم، وقل أن رجعت بغير غنيمة، وكلما أتته غنيمة حصلها في حواصل وبيوت وأعطى للمجاهدين ما أراد ولم يبال بهم إلى أن أوغر بفعله ذلك صدورهم، وسعى بذلك على حتفه بظلفه، وكل ذلك من عظيم ظلمه الذي لم يسمع بمثله إلا منه. قال: ولو تتبعنا ذكر ظلمه ونوادره لجمعنا من ذلك شيئاً كثيراً.

نهاية عثمان الساكسلي

[٢٣٧] ـ فلما أراد الله سبحانه وتعالى انقضاء دولته خرجت سفن الغزو للجهاد فغنمت أربع سفن وفيها من الأموال والجواهر شيء كثير، فأجرى ذلك على عادته السابقة مع الغزاة فلم ترض نفوسهم بذلك، فأجمع رأيهم على خلع بيعته، فخلعوها أول يوم من شعبان سنة (١٠٨٣ هـ) ثلاث وثمانين وألف.

[٢٣٨] ـ وكان سبب ذلك السفن الأربع المذكورة، أن الجنود الذين أخذوها اتفقوا وهم بالبحر على أنه إن أعطاهم خمسة ريالات لكل واحد منهم وإلا حاصروه وخلعوا بيعته، فلما دخلوا بها وطلبوا ذلك أبى عليهم وأعطاهم ريالاً لكل واحد في حصته، ولهم حصص يختلفون فيها على ما اصطلحوا عليه في البلد في تقسيم الغنائم على خلاف ما هو مقرر عند الفقهاء في قسم الغنائم، وكان قبل خروجهم لهذه الغزوة وهم في الأهبة لها أعطاهم ريالين لكل واحد للإستعانة، فلما أتوا وأراد محاسبتهم على ما فرض لهم مما ذكرنا أمر الكاتب أن يقاصّهم بما دفعه لهم قبل الغزو وهم مختلفون في السهام، فمنهم من له عشرة، ومنهم من له اثنا عشر، ومنهم من له ثمانية، وغير ذلك، فصار لصاحب العشرة ثمانية بعد المقاصّة في الريالين وجعل السهم ريالاً فأخذ البعضُ وأبى البعض، فأخبر بذلك فبعث للكاتب من أخذ فذاك ومن أبى فائتني بسهمه وليمدد بسبب إلى السماء، وما عساه أن يفعل؟ فلامه بعض الخاشية على صنيعه ذلك وعلل ذلك بأنك أوغرت صدور الجند عليك فأبى، وراجعه رجب بك فأبى، فكان من جوابه لهم: وما عساهم يفعلون.

[٢٣٩] ـ فلما كانت العشي من ذلك اليوم وهو يوم السبت التاسع والعشرين

من رجب سنة (١٠٨٣ هـ) ثلاث وثمانين وألف ملأ أحدهم بندقيته وأطلقها بفم القهوة بسوق الترك وهي ملأى بالخلق، فراجعه عثمان وكيل خرجه وأخبره بما شاهد، وأنه تفرس فيهم أنهم خالعون بيعته، وأنهم مثيرون فتنة بهذه الليلة، وإن أثاروها عسر ردها، فلما تحقق ذلك أمر بالمسير إلى الفندق المعروف بسكنى عزاب الجند، وأن يأتيه بمائة منهم يبيتون معه، فأتاهم وكلمهم في ذلك، فلم يجبه إلا نحو الثمانية، فرجع إليه وأخبره، فأمر بالرجوع إليهم ووعدهم بالعطاء فرجع فلم يجبه أحد، وكان ذلك قبل الزوال، فغلق باب الحصار واختفى عثمان الوكيل في الفندق، وبذلك كانت سلامته وسلامة عياله وأخوته من المصائب النازلة بالأمير عثمان.

[٢٤٠] ـ ولما مضى طرف من ليلة الثالث من الشهر المذكور، خرج مصطفى بهلوان جلبي في سبعة نفر ولبسوا آلة حربهم وطافوا على محل سكنى عزاب الجند من الفنادق، وتبعهم من أجابهم إلى أن انتهى بهم الأمر إلى الفندق المعروف بفندق الباشا، فاجتمع به نحو الأربعين واتفقوا على خلع بيعته وخرجوا وأطلقوا بنادقهم اتجاه الحصار ليظهروا له ما عزموا عليه، وخرجوا من الفندق وأتوا دار علي قبطان فأخرجوه، وذهب جميعهم إلى دار عثمان رئيس المرسي فأخرجوه، وجعلوا يطوفون على بيوت الأكابر والرؤساء من الجند المتأهلين، وأخرجوا القاضي وقرعوا باب سيدي محمد بن مقيل لتوليه الفتيا يومئذٍ، فاختفى عنهم بحيلة. فلما استتموا أمرهم أتوا إلى السوق وأمروا بإيقاد الشمع والقناديل، وفتحوا الحانوت الذي بإزاء فندق الباشا، وأجلسوا القبطان ورئيس المرسي بها، وجعل الجند وأهل البلاد كلهم يأتون لذلك الأمر.

فلما أحسّ عثمان بذلك وتحقق خلعهم له خرج إلى الرحبة خارج باب القلعة ومعه كاهيته وجماعة، وأمر الكاهية بالمضي إلى رجب بك إذ هو ببيته الذي هو يرأس شارع البلدية الكبير بإزاء المدرسة العثمانية، فذهبوا. فلما حاذوا حوانيت الطباخين وسمعوا كلام القوم وكثرتهم رجعوا للأمير ودخلوا الحصار وأغلقوا الأبواب.

حصار عثمان الساكسلي

[٢٤١] ـ ولما أصبح جعل يرمي على البلد الكور والرصاص من الأبراج والحرائق فهدم غرفة عثمان رئيس المرسي، واستعد القائمون للرمي على القلعة، فرتبوا بالبرج المعروف ببرج التراب مدافع ورئيساً، وجمعوا من البارود ما يكفيهم، وكذلك كل برج، وجعلوا يرمونه، فلما رأى ذلك أمسك عن الرمي، ولما أمسك أرسلوا عثمان رئيس المرسي المذكور إلى رجب يطلبون منه أن ينزل على الأمان ووعده القبطان أن يلي الأمر، فلم يتركه علي الجربي ينزل إليهم وخاطبهم: لا ترفعوا أصواتكم فقد أرعبتم الباي بعلو صوتكم، فرجعوا من عنده وأوعدوه شراً. فلما أصبح تعلقت العساكر بجدران بيته وصعدوا فوق أسطحة الدور التي بقرب دار رجب، وجعلوا يرمون دار رجب بالرصاص، فمات من حاشيته نحو الخمسة ومات من الجند رجل، ثم مضوا فرتبوا مدافع تجاه دار الباي من ناحية الكنيسة وضربوها فانفلق بعضها وقتل رجل بالقرب منها، وانهدَّ ركن كشك رجب، ثم رتبوا مدافع أخرى من ناحية طرغود فلم يمكنهم ذلك، فأتاهم بعض الأسارى من الإفرنج وحفر لغماً حتى قرب من الدار، فأحس به علي الجربى فحفر حتى لاقاه فهرب الإفرنجي وبطل صنيعه.

[٢٤٢] ـ ولما ضاق بعثمان الحال راسلهم بطلب الأمان، فأتاه بعض الفقهاء وغيرهم فأنزلهم على الأمان، وهم رجب وحرب الزياني، وإبراهيم جلبي، وأحمد السعد، وعلي الجربي فقتلوهم عن آخرهم، وجعلوا كل اثنين بسلسلة وتركوا جثثهم تأكلها الكلاب، وأخرجوا محلة للقاء محلته فهزمتها محلة الجند. فلما عاين عثمان ذلك شرب سماً فمات تاسع شعبان سنة (١٠٨٣ هـ) ثلاث وثمانين وألف.

قال البهلول: ولو استقصينا ظلمه لجمعنا من ذلك شيئاً كثيراً. انتهى باختصار.

ولاية عثمان ريّس الشوهلي

[٢٤٣] ـ ولما مات عثمان الساكسلي خرج من القلعة حسين ريّس وأخبر الجماعة بموته، فلما أصبح قاموا ذاهبين إلى القلعة وقدموا عثمان ريّس أميراً، وجعلوا علي قبطان كاهية وأجلسوا عثمان ريس على تخت الملك وبايعه الحاضرون. وكان إبراهيم بن المصري المسمى مصرلي أوغلى في المحلة يقاتل، فلما دخل بمن معه من الجند لم يرض ببيعة عثمان وقال: إنما قاتلنا لنزع الملك من أيدي الروم وتمكين الترك منه فتابعه على ذلك كور محمد وأجمعوا على بالي شاوش والياً وبهلوان مصطفى كاهية، وكان ذلك لعشر مضت من شعبان سنة ثلاث وثمانين وألف، فمضى كور محمد ومعه طائفة من الترك، وأخرج عثمان وقتله وأجلس بالي موضعه.

وعثمان هذا شوهلي نسبة لشوهلة جزيرة منقطعة في البحر تجاه خانية، ثم قتلوا عثمان هذا ونفوا كاهيته علي قبطان الملقب قريقو في سفينة كانوا أعدوها لاستبدال من بدرنة من الجند عند الحاج محمد باي، ثم بدا لهم فبعثوا له رسولاً فقتله بالجزيرة التي بالمرسي.

ولاية بالي شاوش

[٢٤٤] ـ ولما استقر بالي شاوش على تخت الملك وقعت بينه وبين سيدي عبد الحفيظ بن سيدي محمد الصيد وحشة كان سببها كثرة توجه الشيخ إليه في الشفاعة فيمن يريد البطش بهم فاتهمه، فخرج الشيخ من محله إلى جربة فاراً ولما تم له الأمر [نقض الصلح الذي عقده عثمان الشوهلي مع الإنجليز] وجهز أسطولاً نحو خمس سفن إلى الجهاد، وكان قائده مصطفى الكبير الإستنكولي ـ نسبة إلى استنكو ـ وإبراهيم مصرلي أوغلى وعمر قازداغلي، وأحمد ريّس درغتلي، فأخذت سفنهم سفينة حرب لبعض أجناس النصارى على جزيرة كاربة ـ وهي جزيرة بين رودس وبسير لونق ـ

فلما دخلوا مرسي قصر أحمد من مصراته أخبروا أن بالي شاوش توفي مريضاً، وكانت وفاته ليلة الثلاثاء لثمان بقين من صفر سنة (١٠٨٦ هـ) ست وثمانين وألف.

ولاية مصطفى بهلوان

[٢٤٥] ـ وتولى موضعه مصطفى بهلوان وجعل كاهيته سليمان توكتيلي ـ نسبة لتوكلة بلد كبير من عمل قاردنقز ـ تحت ولاية صاحب القسطنطينية، به من أنواع الخيرات والشجر والحيوانات مالا يحصى، جمع من أنواع بني آدم أصنافاً مختلفة الأديان، وشيئاً لا يحصى كثرة من كل، ومنه يجلب الساج والخيرات إلى القسطنطينية. ومنها يتفرق إلى سائر البلاد ـ

فلما سمعوا بذلك أضمر الرؤساء عدم بيعته، وكان قد مضى لبيعته قبل دخول السفن عليه خمسة عشر يوماً، وقيل أربعة عشر يوماً، فلما دخلوا أظهروا خلع بيعته في ليلتهم.

ولاية إبراهيم مصرلي أوغلي

[٢٤٦] ـ وبايعوا إبراهيم مصرلي أوغلي على تولي أمر المسلمين والخزانة وتفريق رزق الجند، وجعلوا كاهيته عبد الفتاح الرميلي. وكان بينه وبين بالي شاوش قرابة. وكان بالي في حياته نقض ما كان من صلح بين الإنكليز والأمير عثمان.

ولما تولى إبراهيم المذكور الأمر استمر على ذلك الفساد، وجهز من أسطوله ست سفن وتوجهت نحو الإسكندرية، فأصابوا ثلاث سفن للإنكليز موسوقة ببضاعة ثمينة، فدخلوا الإسكندرية وباعوا غنائمهم وأظهروا ما للسلطان على حدة، وكان إبراهيم مصرلي أوغلي ألزم العسكر أموراً شرعية ضيق بها عليهم، منها: عدم حلق ذقونهم تشبها بالمجوس، ومنها عدم لبسهم الحرير والذهب، ومنعهم من المجاهرة بالزنا والخمر، فاضطغنوا ذلك عليه فظن بهم شراً، فأرسل معهم طليعة يأتيه بخبرهم وهو أُزن حسن شاوش الرميلي.

[٢٤٧] ـ ولما قفلوا من ذلك: أجمعوا على خلع بيعة إبراهيم مصرلي أوغلي، وبايعوا مصطفى الكبير الإستنكويلي ـ نسبة لإستنكوى ـ جزيرة بها عدة قرى تجاه كارباغ لار، ومعناه بالتركية البساتين السود ـ سميت بذلك لكثرة ما بها من العنب والأشجار، وهي على ساحل الأناضول، ومعناه بر الإسلام، كما أن الروميلي أرض الروم، وكتب الطليعة كتاباً لإبراهيم المذكور يخبره بما فعل الجند من خلع بيعته، وأرسل به رسولاً في البر، فقدم عليه في مدة قليلة فقرأه وعزم على الخروج من البلد، وكان له ابن ولاه أمر المرسي، فاستشار كاهيته في أمر الخروج فأشار به، فدبر لذلك حيلة فأظهر إبراهيم أن ابنه فسق وارتكب مالا يليق من الزنا والظلم مما نهى عنه غيره وأظهر للجند أنه يريد نفيه، فاجتمعوا بمحل الندوة ـ وهو بيت معد لسكنى

الجند باتجاه الداخل من باب هوارة يعني قفاه ومفتحه تجاه القلعة لناحية الشرق بسوق الخضرة، وقد بني الآن جامعاً على يدي أحمد باشا قرمللي ويسميه الجند: أُوضْ‌لار، ومعناه بالعربية جمع الديار، فراسلوه يشفعون عنده في عدم نفيه فأبى، فأجابه الجند لذلك وأرسلوا من أخذه وبلغه لسفينة بالمرسى للرايص عمر الميتشو المصراتي كانت بالمرسى متوجهة إلى الإسكندرية.

وأخذ في بعث أثاثه من داخل القلعة، ويخرج الصناديق مملوءة مالا والقلال شبه العوين وهي مملوءة نقداً حتى أفرغ الخزانة، وأوصل ذلك للسفينة والناس في غفلة من هذا، وكان يومئذٍ مشتغلاً ببناء البرج الشرقي الذي بساحل البحر المعروف ببرج الشعاب اليوم وببناء المرسي، فلما قضى وطره من الخزانة أظهر أنه يريد النظر في بناء البرج، فأعد خيله وأسرجها وخرج براً وأمر الكاهية أن يركب شينياً ويأتيه في البحر ففعل.

فلما اجتمعا بالبرج لامه الحاشية على ما فعل بابنه فأَبى عليهم، ثم رَكب الشينيّ ومعه خاصته، فلما دخل السفينة أمرها بالإقلاع فأَقلعت، وأخبر توتية الشيني بما فعل الجند من خلعهم بيعته بالإسكندرية ومبايعة مصطفى الإستنكويلي، وكان ذلك ضحوة الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقين من المحرم سنة (١٠٨٧ هـ) سبع وثمانين وألف، فرجع الشينيُّ وأخبر بذلك فغاظ ذلك أهل البلد والجند وتكدّر عيشهم.

ولاية إبراهيم شلبي أنبلي

[٢٤٨] ـ ثم أجمع الجند على بيعة إبراهيم شلبي أنبلّي ـ نسبة لأنبل: مدينة بأرض المورة كثيرة الخير واسعة الخصب ـ وجعل كاهيته أحمد باي أندرلي ـ نسبة لباي أندر قرية من عمل أزمير ـ فما مضت على بيعتهم إلا خمسة أيام حتى قدمت السفن، وكانت تلك السفن جمعت جلّ العسكر فراسلهم الجند الذين بها بأن إبراهيم مصرلي أوغلي هرب وفعل ما فعل، فكذبهم أهل السفن وأرسلوا رجلاً من جهتهم ليعاينوا الامر، فلما عاينوا صدق الخبر نزل العسكر على عين الفضة، فقال مصطفى: البلد بها والٍ غيري بايعه أهلها وأنا لا أريد شغل الناس، فأَجبره الجند الذين معه على ذلك، فاشترط عليهم شروطاً إن التزموا بها أسعفهم وإلا فلا. منها تنقيص رزق الجند الثلث، وكان رزق الجندي في كل يوم نصف ريال فنقص له ثلث ذلك ونصف سدسه وهو قرميلان ونصف القرميل، والتزموا بذلك، فصار رزق أعلى الجند أربعة قراميل في اليوم لا يزاد عليها وإن علا، وكل قرميل عشرون عثمانياً فلوساً صغاراً من نحاس، إلا رئيس كبيرة السفن المسمى قبطاناً فإن له ريالاً وربعاً في اليوم رزقاً، ولمن تحته المسمى بترونة ريالاً كاملاً، ولمن تحته ريالاً إلا ربعاً، وهذا بشرط أن تكون سفنهم أسطولاً لاشوانيَ، فوافقوه على ذلك ودخلوا البلد وأخرجوا الأنبلّي والأندرلي من التخت وأبقوهم في مناصبهم لكبر سنهم، واستقر عليه مصطفى لسبع بقين من المحرم سنة (١٠٨٧ هـ) سبع وثمانين وألف.

ولاية مصطفى الكبير الاستنكويلي

[٢٤٩] ـ ولما استولى على البلد والخزانة ووفوا له بما شرط. وكان من شرطه عليهم أن يتصرف في مفسد الجند من غير تروٍّ ولا مشورة في شأنه. فتصرف في الكثير منهم بالقتل، ولم تكن له عشيرة يأوي إليها، وعظمت هيبته على الجند حتى إنه يبعث للعصابة من الجند رجلا من طرفه وهم بأسلحتهم فيأخذهم وينفيهم حتى نفى منهم في يوم واحد ثلاثمائة.

[٢٥٠] ـ وكان مصطفى هذا رؤوفاً بالرعية محباً لأهل البلد، لا يحب من يسعى إليه بشر في الخلق. أسقط عن الرعية بعض الوظيف المخزني المرتب من عشور وغيرها.

ولما عاد ابراهيم المصرلي أوغلي إلى البلد من القسطنطينية صحبة محمد بن مراد الحفصي والياً على البلد من قبل السلطان محمد وصحبته ثلاثة مدافع نحاس، خرج الرعية وأهل البلد لرسول السلطان وكادوا يمزقونه محبة فيه، وأخذوا المدافع وتركوه رجع مع الحفصّي لتونس.

وكانت ولاية مصطفى عاماً كاملاً وثمانية أيام وكانت وفاته غرة صفر سنة (١٠٨٨ هـ) ثمان وثمانين وألف مريضاً بالطاعون.

ولاية عثمان وكيل الخرج

[٢٥١] ـ ولما مات مصطفى الكبير بايع الجند رجلاً كبير السن يقال له عثمان، علجاً لبعض الجند الجزائري، كان بيده تفريق عيش الجند المفروض لهم، وبينه وبين الأسطى مصطفى العلج قرابة، واستقرّ أمره بالبلد عاماً ثم مرض فمات في ربيع الأول سنة (١٠٨٩ هـ) تسع وثمانين وألف.

ولاية آق محمد الحداد الأناضولي

[٢٥٢] ـ وبايع الجند آق محمد الحداد الأناضولّي في الشهر المذكور. وآق لقب بالتركية معناه الأبيض، واستقر على تخت الملك سنة وستة أشهر، وكان سيء الخلق رديئاً، راكباً هواه جباراً.

وفي أيامه كان بالبلد باشا من قبل السلطان يقال له خليل أرنؤود نسبة للقبيل المشهور بأرض الروم، وهم عرب في الأصل من غسَّان تروَّموا بالمجاورة.

[٢٥٣] ـ وسبب نقلتهم من أرضهم على ما ذكر غير واحد أن ملكهم جبلة بن الأيهم وفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خمس مائة فارس من قومه بالخيل المسوّمة، والعدد الثمينة، والسلاح العظيم، وأسلم بمن معه، وسر بهم عمر رضي الله عنه سروراً كثيراً. واتفق مع ذلك أن خرج أمير المؤمنين للحج، فخرج معه جبلة بمن معه وقدموا على مكة وتعلم المناسك فطاف، فزاحمه رجل فزاري فيه، فوطىء الفزاري برده فلطمه جبلة بكف، فرفع الفزاري به الشكاية إلى أمير المؤمنين، فأحضره وأخبره بما قال الفزاري فأَقرّ به، وطلب أن يرضي الفزاري بما أحب، فأبى عليه الفزاري إلا القصاص.

فقال: أنستوي يا عمر؟ فقال: الإسلام سوى بينكما، فطلب الإمهال فأمهله عمر برضاء خصمه، ففر بمن معه من ليلته ولحق بقيصر وتنصر، وأقطعه وقومه أرضهم المعروفة بهم الآن بالروميلّى، وأقام قيصرُ جبلةَ بالقسطنطينية، وأجرى عليه جرايات واسعة وأتحفه بتحف لم يُر مثلها، ولم يزل بها إلى أن قدم رسول عمر يدعو قيصر إلى الإسلام، فأدخله قيصر عليه فرأى ملكاً عظيماً، وسأله جبلة عن عمر

وحسان بن ثابت ومن له به معرفة من الصحابة، فلامه الرسول على ما فعل، فأظهر له الندم عليه وأنشده لنفسه:

تنصرت الأشرافُ من عارِ لطمةٍ ... وما كان فيها لو صبرتُ لها ضرر
يُعنِّفني فيها لجاجٌ ونخوة ... وبعت بها العينَ الصحيحةَ بالعَوز
فياليت أمي لم تلدني وليتني ... رجعتُ إلى القول الذي قاله عمر
ويا ليتَ لي بالشام أدنى معيشة ... أجالس قومي فاقدَ السمع والبصر
ويا ليتني أرعى المخاض بقفرة ... وكنت أسيراً في ربيعة أو مضر
أدينُ بما دانوا به من شريعة ... وقد يصبر العَود الكبير على الدبَر

فقال له الرسول هلم ترجع، فقال بشرط أن يزوجني عمر ابنته، وأن يكتب لي العهد من بعده، فرجع الرسول وأخبر عمرَ بذلك فالتزم عمر بالشرط؟ فلما عاد مات يوم دخوله مدينة قيصر وبقي قومه بأرضهم. ومنهم اليوم مؤمن وكافر.

[٢٥٤] ـ وقد طالت أيام خليل في البلد وليس له تصرف بسبب حجر ولاة العسكر علي واليها من قبل السلطان، فتاقت نفسه إلى القيام ليستقل بالتصرف، وكانت بينه وبين أُزْن أحمد كاهية آق محمد الملقب الدباغ وعلي قبطان منيكشالّي ـ نسبة لمنيكشة بالتصغير قرية صغيرة على شاطىء البحر من أرض المورة قد أحاط البحر بها من ثلاث جهات ويدخل لها على قناطر، وأهلها يشربون من ماء السماء ولا آبار بها.

[٢٥٥] ـ وانضم إليهما محمود خازن دار كان علجاً بلنسيان أسلم وحسن إسلامه، دلت على ذلك آثاره، بنى من المساجد نحو الخمسة بداخل المدينة وخارجها منها المسجد الذي بقصر أحمد بالشرق منها، وهو مسجد حسن متقن الصنعة، ومنها المسجد الذي غربي الزندانة الكبرى بمقربة منها بحومة أولاد نوير، وسليمان داي المعروف بصفر داي ومصلى العيد الذي بإزائه وغيرها، ودبروا حيلة جمعوا بها الناس عليهم، فجمع كل منهما من يأوى إليه من أولاد البلاد، فاتفق معهم جماعة منهم ومعهم ولد الفقيه الصالح سيدي أحمد بن عيسى وتعاقدوا على ليلة يكون بها قيامهم ووافقهم الجند على ذلك.

فاتفق رأيهم على عقد مجلس بمحل ندوتهم أُوض لار وأن يبعثوا لآق محمد ليحضر عندهم ويعقبه خليل على القلعة، فلما خرج ليحضر صاح به أحد الناس إن

خليلاً سيعقبك على تختك، فرجع بمن معه وضرب بعض الجند خليلاً بحجر كاد أن يرميه من على فرسه، فرجع خليل واتصل آق محمد بالقلعة واجتمع إليه أكثر الجند، وفشى أمر قيامهم بالبلد ووشى بمن فيها من أولاد البلد لآق محمد فبعث في طلبهم ابنه في جماعة، فأول ما بدأ به أن هجم على بيت الفقيه سيدي أحمد بن عيسى يطلب ابنه، وكان ذلك بعد أذان الفجر؛ فوجدوا الفقيه أخذ الإبريق يتوضأ، فنزلوا من سطح البيت وبحثوا على الولد فلم يجدوه، فأخذوا الفقيه حتى أحضروه بين يدي آق محمد فوبخه وأراد البطش به ثم حماه الله فأمر بربطه فربط.

[٢٥٦] ـ وكان محمد سيء الخلق، قبيح المنطق، وظفر بنحو الثمانية من أبناء البلد ممن وشى بهم إليه فقطعهم من خلاف، إلا اثنين أحمد الحامدي ومحمد المرابط الدمنهوري المسلاتي فإنه قطع أيديهم وأرجلهم.

[٢٥٧] ـ وكان مصطفى بهلوان جلبي لما نفي لجربة خرج المحاميد وخلعوا بيعة اق محمد وظهر خلافهم، وكان قائد جيشه حسن عبازة وفي نفسه منه شيء، وكان بعث آق محمد بقتل مراد المالطي، وكان إذ ذاك قائداً بغريان، فلما جاءهم الرسول بذلك أخذه آغة الجند الذي بالعسكر وربطه يرجو قتله بالليل، فاحتال حسن لما سمع ببعثه إليه في استخلاصه ليستعين به عليه، فأشار عليه بعدم قتله، فقال أخشى أن يكون فات. فقال ابعث رسولاً وأكد عليه في المسير فإن أدركه استعنّا به وإلا عوّضنا الله فيه خيراً، فبعثوا الشاويش أبا العيد المسلاتي [وأوصوه] بعدم قتله، وكانت الأعراب تشوفت إلى الخلاف، فاحتال حتى بلغ إليهم في مدة قليلة وكان الأكثر من أهل غريان أظهر الخلاف.

[٢٥٨] ـ وسبب ذلك اتهام مراد حتى بعث على قتله، فلما بلغ الرسول القصر وجدهم أحضروا له آلة الخنق فناولهم كتاب العفو وأن يحضروا صحبته إلى المدينة، وأنه جعل كاهية لقائد الجيش حسن عبازة فأخبروا مراداً بذلك، فخشي إن خرجوا بياناً وتوجهوا إلى المدينة اتبعهم من خالف من أهل غريان وظفر بهم فقتلهم، فدبر لهم حيلة في خروجهم بأن يدخلوا عليه آلة الخنق قبالة من وافقهم من أهل غريان، فلما فعلوا ذلك رقى بعض أهل غريان ممن معهم في القصر وصاح بأهل غريان المظهرين الخلاف بأن مراداً قد قتل. فلما سمع بذلك مراد بعث لآغة القصر يقسم على من عنده من أهل غريان أن لا يمكثوا معه في القصر، فلما خرجوا أعدوا خيلهم وساروا حتى صبحوا المدينة ومكروا بآق محمد ومن معه.

ولاية حسن عبازة

[٢٥٩] ـ وبايعوا حسناً موضعه وكان ذلك لثلاث بقين من شعبان سنة (١٠٩٠ هـ) تسعين وألف وجعل مراد باي قائد الجيش، وأقام حسن عبازة يدير أمر الناس والخزانة وتفريق الرزق ثلاث سنين وتسعة أشهر وخمسة عشر يوماً، وكانت بيعته سنة تسعين وألف.

وكان في تلك المدة الغالب على دولته مراد باي، وعظمت شوكته، وتوجه في سنة ثلاث وتسعين وألف إلى فزان.

[٢٦٠] ـ وموجب ذلك أن صاحبه النجيب بن محمد بن جهيم امتنع من أداء الخراج زاعماً أنه أداه، وناكره فيه متولي الخزانة وزور عليه بقاءه، فراجع في ذلك فلم يجب إليه، فتوجه إليه مراد وأظهر أنه يريد الجبل الأخضر حتى نزل بالجديد من أرض سرت ـ قصر للحسون مستقرون به وحوله بساتين يضعون به أثاثهم وما لا يمكنهم الظعن به ـ ولم يظهر ذلك لأحد من خواصه حتى بلغ المحل المذكور أخبرهم، وجردت خيله فصبحت سوكنة وودان بعد ثلاثة أيام.

[٢٦١] ـ وودان هذه على خمس مراحل من مدينة سرت لجهة الجنوب، وكان بها قصران بينهما رمية سهم، فالذي يلي الساحل خلاء والذي يلي البرية عامر، ولهما آبار كثيرة يزرعون بها الذرة ويقربها غابات نخل، وحولها من شجر التوت وشجر التين والنخل كثير، وتمر غابتها كثير لين حلو، وهي وإن كانت أوجلة أكثر منها نخلاً فتمرها أطيب طعماً، كذا ذكره صاحب نزهة المشتاق.

وأما الآن فالقصر الأعلى منها عامر كثير العمارة يسكنه قوم من الأشراف

وطائفة من البربر كالخدم لهم، وفيه جنات من نخيل وعنب وتين، وليس بها من التوت شيء، وماؤها خبيث الطعم مسهل. وبينها وبين قرية سوكنة نصف يوم أو أزيد من ذلك، وهي قرية قريبة من جبل طنطة ماؤها عذب فرات طيبة الهواء، بها من النخل والتين والعنب شيء كثير، يسكنها أخلاط من البربر والعرب، يمر إليها من ودان ما بين الجنوب والغرب.

وبينهما قرية أخرى يقال لها هون متوسطة، نخلها أجود من نخل البلدين وأقوى، وهي في الكبر دون سوكنة وفوق ودان، وماؤها خبيث مثل ماء ودان سواء.

[٢٦٢] ـ وخرج مراد من أرض ودان عاجلاً ولم يعلم أحد خبره حتى أتى سبهة وأحاط بها فلم يفلت منها إلا فارس واحد فر منها لجهة مرزك. فلما أحس بذلك ارتحل من وقته ولم يبت بها ليدخل مرزكا على حين غفلة من أهلها فسبقه الفارس إليها فأخبر أهل مرزك بدخوله سبهة، فخرج النجيب بما تيسر له من الجند فالتقى الفريقان بدُليم ـ قرية صغيرة بينها وبين مرزك نحو ست ساعات أو خمس ـ واقتتلوا قتالاً شديداً، فكانت الهزيمة لمراد عليهم وقتل النجيب واستأمن إخوته، وقاتل ابن أخيه عليٌّ عند أبيه لما أثخنته الجراح وكسر حتى ماتا، وجرح محمد الناصر وأثخنته الجراح. وكان مراد أوصاهم عند اللقاء ألا يضروه، وتوعد من يضره بالقتل، فلما أثخن مسكوه ورفقوا به، وقدموا مرزكاً واستولى على خزانتها فألفى فيها من المال كثيراً، وطبب الناصر وأظهر الأسف عليه، وبعد سبع من دخوله ولاه البلد وأقام بها واحداً وعشرين يوماً ولم يغير على التجار والرعايا بشيء لامتلاء يده بالخزانة، ثم ارتحل عنها، وأسقط عن الناصر خراج ثلاث سنين إلى أن يستقر حال البلد.

[٢٦٣] ـ ولما وفد على طرابلس من سفرته تلك وعظم أمره ـ وكان في نفسه من حسن شيء ـ تاقت نفسه لخلع بيعته، وكان يسكن بالمنشية خارج المدينة، فراسل العسكر الذين بداخلها بخلع بيعة حسن فأجابوه لذلك، وأرسلوا حسناً بذلك وهو بالقلعة فألقى السلاح، وكان ذلك في منتصف جمادى الآخرة سنة (١٠٩٤ هـ) أربع وتسعين وألف ونفوه إلى جربة.

ولاية يلك محمود

[٢٦٤] - وبايعوا رجلاً منهم يقال له يُلك محمود يومين، ويُلك بالمثناة التحتية المضمومة بعدها لام مضمومة وكاف، معناه بالتركية مجرى الماء.

ولاية علي الجزائري

[٢٦٥] - وبايعوا عليًّا الجزائري - نسبة لمدينة الجزائر بأرض المغرب لترتبه بجندها وهو روميلي الأصل - لثلاث عشرة بقين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة، فمكث لتدبير الأمر سنة وثمانية عشر يوماً، والغالب على الأمر مراد باي وأحكامه نافذة في البر والبحر، وله أعوان من الجند ورؤساء وغيرهم، فمن الرؤساء حسين قبطان الملقب كلايجي - نسبة لصَنْعتِهِ وهي تلبيس النحاس القصدير - وكلاي بكاف مفتوحة بعدها لام بعدها ألف لينة وياء تحتية آخر الحروف، بالتركية القصدير، ومراد الغوشلّي - نسبة لغوشة قرية بالأناضول، بلد فلاحة، وبها أجنة كثيرة الخصب بينها وبين ازمير نحو العشرين ميلا، وبها بئر ماؤها يشبه الثلج في كل الفصول بخلاف غيره من آبارها، ويسميه أهل البلد بماء الثلج فيقولون: كرتل سُئي.

وكرتل بكاف مفتوحة بعدها راء ساكنة ومثناة فوقية مفتوحة بعدها لام، بالتركية الثلج، وسُئي بسين مضمومة وهمزة مكسورة، بالتركية الماء، إلا أن لغتهم تقدم المضاف إليه على المضاف، وماؤها عذب مفرط العذوبة - فلما تم عامه أراد مراد وأعوانه خلع بيعته واجتمعوا ليلاً على خلعه ولم يكن له علم وأعلموا أهل الديوان بذلك، فلما أصبح وجلس للحكومة جاء مراد وأصحابه والديوان ومعهم عبد الله الأزميرلي - نسبة لأزمير مدينة عظيمة بالأناضول كثيرة الخصب والتجارة براً وبحراً، ويجتمع فيها خير البرين الأناضولي والروميلي، وتجلب إليها الخيرات من كل الأراضي والبضاعة الثمينة والجواهر، ومنها تجلب إلى القسطنطينية ومصر وإفريقية وطرابلس، وغير ذلك من بلاد الروم - فأخذوه وهو على كرسي الحكومة ونفوه إلى بلاد الترك، وكان ذلك يوم الإثنين لخمس خلون من رجب سنة (١٠٩٥ هـ) خمس وتسعين وألف.

ولاية الحاج عبد الله الأزميرلي

[٢٦٦] ـ وأجلسوا الحاج عبد الله مكانه وبايعوه في ذلك اليوم، وتولى الخزانة وتفريق رزق الجند، وتصرف في الولاية والعزل بمشورة مراد عامين وتسعة أشهر إلا أحد عشر يوماً.

وفي أيامه سنة (١٠٩٦ هـ) ست وتسعين وألف أواخر جمادى الآخرة أتى الإفرنج بالبونية لأخذ البلد ورموها بالمدافع، وكان عبد الله هذا ضعيف النكاية أصفر الفؤاد، والغالب على تدبير أمر المدينة عبد الله ومراد بنو فشلوم يزليتن: عمر ومحمود، فحضر عندهم أعيان البلد: عبد الله الرجيبي وبنو المُكنَّى وغيرهم من الأعيان، واتفق أمرهم على أن يعطوا مالاً للإفرنج ويكفوا عن الرمي فردوا الأمر على عبد الله فوافقهم، وكانوا أتوا البلد على حين غفلة من أهلها، ثم ردوا الأمر على مراد فأبى عليهم، فراجعوه فرد عليهم رأياً هو أنكم تتركون البلد وأنا أبني لكم مدينة بالهاني عظيمة القدر أحسن منها، لا يلحقها أذى الإفرنج، واستعمل لغزوهم أسطولاً ويكون بناؤها من مالهم، وفعَلتها هم، فأبوا عليه وألحوا فوافقهم على ذلك، وقدروا ما أعطوه على دور البلد.

ولقد أخطأوا، ومنشأ خطأهم استبدالهم الحياة الدنيا بالآخرة فأهانوا البلد بتلك الفعلة، فمن يومئذٍ تقوَّى أمر الإفرنج في البلد وعلا شأنهم، واشترطوا في صلحهم ذلك أموراً لا يتلزمها مؤمن بوقن بلقاء الله ووعده، منها: دخول طاغيتهم كائناً ما كان بنعله على ملكها يطأ بها بساط ملك خليفة الله ورسوله في الأرض، ومشيُ كبيرهم شاهراً سلاحه بين يدي الملك، وأن لا يحاكموا مسلماً في خصومة إلى الشريعة المطهرة، وإما تكون الحكومة بدار كبيرهم. أيقظ الله لهم ملك الإسلام

وأعانه حتى يردهم إلى الصغار. وكل هذا ومراد خارج المدينة.

[٢٦٧] ـ وكان مراد يستقبح فعل الأتراك وتجبرهم وأذيتهم ويكره محاربي الأعراب فلذلك كان لا يستقر بالمدينة إلا قليلاً، أذهب شوكة بني محمود بن طوق ابن بقية، واستعان عليهم بمنصور بن خليفة الترهوني، وفرقهم في البلاد شغر بغَر حتى راودوه على الإتاوة فلم يرض، واستعان على طغاة الأتراك بمراد الغوشلي صهره وحسين قبطان كلايجي حتى ردهم لرجعاء أمهم. ثم أراد المكر بهما فاحتال على مراد الغوشلي وكان بترهونة، واستعان على ذلك بحسين كلايجي وعبد الله داي وبني فشلوم وراسلهم ببعثه إليه فوجهوه إليه مع رسل منه. فلما خرجوا به وأبعدوا قتلوه قبل وصوله إليه وكان إذ ذاك نازلاً بعين تسمى عين الوزغة بأرض ترهونة ينزلها جابي عشورهم، ماؤها عذب على مرحلة ونصف من المدينة. ولما بلغه الرسل قتلهم مراد وأرسل بني فشلوم وعبد الله في بعث حسين كلايجي، فاحتالوا عليه حتى حضر عندهم، فمكنوه من رسله بكرة وخرجوا به.

فلما مر بالمقبرة التي هي خارج باب المدينة تجاهه، المعروفة بالشيخ حمودة وجد بعض الجند بها. على عادة أهل البلد في خروجهم ضحوة لذلك المحل يستروحون ويشترون ما يحتاجون إليه من حطب وتبن وغنم، فصاح بهم الكلايجي مستغيثاً فافتكوه من أيديهم بالحجارة وأدخلوه المدينة وغلقوا بابها، وكان ذلك لخمس عشرة بقين من ربيع الثاني سنة (١٠٩٧ هـ) سبع وتسعين وألف، ووافقه الجند وخلعوا بيعة عبد الله وقتل ابني فشلوم: عمر ومحمود، وأمر بوضع رأسيهما على حربتين خارج باب المدينة، ليراهم نصراؤهم خارج السور، فيكفوا عن نصرة مراد، وحبس عبد الله داي، وكان ذلك لست بقين من ربيع الأول من سنة (١٠٩٨ هـ) ثمان وتسعين وألف.

ولاية إبراهيم الترزي

[٢٦٨] ـ وفي ذلك اليوم بايع الترزي إبراهيم وتبعه الناس على ذلك، وراسل المحاميد الموتورين من مراد، فأصبحوا عنده يطلبون ثأرهم، وأخرج الجند لقتال مراد خارج المدينة وجعل قائد الخيل ورئيسهم محمد الملقب صكال دلسي ـ وصكال بصاد مهملة بعدها كاف مفتوحة وألف لينة بعدها لام، معناه بالتركية شعر اللحية ودلسي بدال مهملة مفتوحة ولام وسين مهملة ومكسورتين، معناه بالتركي قلة العقل ـ والتقى الفريقان بعرقوب تاجوراء، وهو تل ينبت الديس والمرعى كثيراً به مزارع لأهل المدينة وتاجوراء. فكانت الوقعة على مراد لمحمد لخذلان مَن مع مراد من الأعراب له، شبليّين وغيرهم، واستولوا عليه وقتلوه وأكل بعض الجند من لحمه، وبقي إبراهيم الترزي متولياً أمر الخزانة ـ والغالب على الدولة حسين كلايجي ـ سبعة أشهر، فلما تمت له تلك المدة خلع حسين بيعته وتابعه الجند، وكان ذلك أواخر ذي الحجة سنة (١٠٩٨ هـ) ثمان وتسعين وألف.

ولاية محمد باشا الإمام
شايب العين

[٢٦٩] ـ وفي ذلك اليوم قدموا محمداً الإمام فبايعوه، وهو قازدغليّ النسبة، وتولى الخزانة وتفريق رزق الجند والغالب على الأمر حسين، بحيث لا يُصدر تصرفاً ظاهراً أو باطناً إلا عن رأيه، وأقام على ذلك سنتين. فلما تمت سنة مائة وألف وتجهز حسين للسفر مجاهداً في خمس سفن كبيرة يفضل بعضها بعضاً، وكان ذلك في عشرين من جمادى الآخرة سنة (١١٠١ هـ) واحد ومائة وألف، فما مضت لهم مدة حتى التقوا بسفينة للعدو موسوقة ملحاً فأخذوها وقفلوا راجعين، فلما كشفوا بر «يزليتن» أرسلوا طريدة للبر ليأخذ لهم علم ما حدث بعدهم، فأخبروا أن محمداً الإمام استعمل كبير الخيل المسمى ببا أحمد الفرطاس الأناضولي، فوقع في نفس حسين شيء من إقدامه على ذلك من غير مشورته.

[٢٧٠] ـ وسبب إقدام محمد الإمام على ذلك أنه عرضت له حاجة عند حسين قبل سفره فبعث إليه فيها، فأبى عليه، ثم راجعه فيها بنفسه فقضاها حسين حياء، وطلب منه محمد كتاباً بذلك، فاستعجل عن أمر الكاتب به فدفع الختم لمحمد الإمام وأمره أن يكتب بنفسه فختم الكاغد ومضى، وكان حسين قبل أن يسافر فرق رزق الجند عليهم وأعطاهم خمسة ريالات لكل، فطلبوا الإتمام فأبى عليهم وتعلل لهم بضيق ذات يده، ووعدهم بإعطاء ذلك إن قدم. فلما سافر كتب محمد الإمام على لسان حسين فيما ختم من كاغد خطاباً لمحمد الإمام أن يجعل رزق أعلى الجند اثني عشر ريالاً، فأوغر بذلك صدور الجند عليه حتى وافقوه على قتله إن قدم، وفعل ما فعل من التولية من غير إذنه، فلما رئيت السفن بعث إلى أهلها محمد الإمام يطلب حسيناً كلايجي ومن وافقه من الرؤساء الذين معه، فإن سلموا له ما أراد وإلا ذهبوا

أين أحبوا، وكان من طلب معه مصطفى صرك ـ بصاد مهملة مكسورة وراء مفتوحة وكاف ـ لقب لمصطفى، معناه بالتركية شجر السرو، لقب بذلك لطوله في استقامة، وإبراهيم صغجكلي ـ نسبة لصغجك بصاد مهملة مكسورة وغين مفتوحة وجيم مكسورة وكاف ساكنة ـ قرية على ساحل البحر بمقربة من كارباغ لار.

[٢٧١] ـ فاتفق الجند الذين بالسفن على تسليمهم، وأعلموا بذلك محمد باشا الإمام، فأرسل من تولى قتلهم فمكنوهم من ذلك وقتلوا بالجزيرة التي بالمرسي وأخذوا رؤوسهم ودخلوا بها المدينة، وأمر محمد بوضعها بإزاء رأس ابن كنبانة. وكان قد قتل يومئذٍ، وكان وضعها على أعلى البرج المحاذي لباب هوارة على يسار الداخل من جهة الغرب. فلما ظفر بهم استقل محمد الإمام بالملك، وعزل أحمد الفرطاس عن رئاسة جند الخيل وولاها الحاج عثمان الأناضولي مدة، ثم عزله عنها وولاها كنعان، وكان كنعان هذا علجاً يجيد العربية لأنه ربي بأرض المشرق وأقام بها مدة.

[٢٧٢] ـ وبمقربة من استقلال محمد الإمام بالملك حركت مصطفى شرباني همه لخلع بيعة محمد الإمام ووافقه على ذلك بعض الجند، فلما أحس بهم خليل قازداغلي تسلح ودخل عليهم وقتل مصطفى وبعض من وافقه، ولم يكن لمحمد الإمام علم بذلك، فلما أخبر بذلك سرّ بذلك وقرب خليلاً، وأركبه أسطولاً للجهاد، وأخذ يغزو فأصاب غنائم.

وعقد له محمد الإمام على ابنته زينوبة، وقبل دخوله بها حركت محمد الإمام همته لنقض الصلح الذي كان فعله عبد الله وأصهاره بنو فشلوم مع الإفرنج فنقضه، فلما بلغ ذلك ملك الإفرنج وجه إلى البلد أسطولاً نحو الخمس عشرة سفينة كبيرة ومعهم البونية، فأتوا البلد لليلة بقيت من رمضان سنة (١١٠٢ هـ) اثنتين ومائة وألف، واشتغلوا بالرمي على البلد، واستعد الناس لهم.

[٢٧٣] ـ وظهرت شجاعة محمد الإمام وحزمه حتى كان يطوف على الأبراج بنفسه، ولم يعتمد على أحد، ويعد الرماة بالعطاء الكثير فرمى بعضهم هوان البونية بكرة فتفرقع الهوان فقتل من حوله من النصارى نحو الخمسة عشر وتأخروا، فلم يفد رميهم فيها شيئاً ورجعوا خائبين.

فلما رجعوا لملكهم وأخبروه بعدم إفادة رميهم لها جهز أسطولاً كبيراً لأخذ سفن الجهاد بالمدينة المذكورة، فاتفق أن التقى أسطوله بسفينتين من سفن الجهاد بالمدينة المذكورة رئيس إحداهما خليل المذكور، فجاهدتا جهاداً كبيراً لم يعهد مثله حتى لم يبق لهما من الذخيرة شيء فأسروا من وجدوا بها حيًّا، وكان فيمن وجد حيًّا خليل مجروحاً شماله معدومة وأقلعوا بهم نحو بلدهم، وراسلوا محمداً الإمام بالصلح فكان أخذ خليل سبب صُلْحهم، فانعقد الصلح بينهم وبين محمد باشا على أن جعلوا فداء كل من المسلمين والنصارى مائة وخمسين ريالاً، ويقابل الرجل بالآخر، فمن زاد عنده أسير أعطى ذلك ولم ينقضوا من صلحهم الأول شيئاً، فكانوا يدخلون عليه كما كانوا يفعلون بمن قبله، غير أنه لقوة إيمانه لم يدخلهم محلاً به فراش يطئونه بأقدامهم المنعلة قط.

[٢٧٤] ـ وطالت أيامه وغلبه على أمره قواده والترك، فكان القواد يغرونه بمنصور بن خليفة لما كان منه من إعانة مراد، فكان يغض من حقه، فتوحش منصور من ذلك وامتنع من المثول بين يدي محمد الإمام، وبلغه عنه أشياء استغلظها وكرهها، فجمع أمره واستشار أرباب دولته في تجهيز جند إليه فلبوا أمره، فشرع في تجهيز الجند، فبعث إليه جيشاً كبيراً فيه عامة قواده ورؤساء أخبية عسكره، وكان قائده يومئذٍ يوسف بك، وانضم إليهم أكثر العربان لعلو نفس منصور عليهم. فلما بلغ منصوراً الخبر فر أمامهم متوجهاً لأرض برقة، فلحق بنجع سرت وأعرابها بتاورغاء وتوجه معهم، فلما نزل محلاً يقال له أم اللّجن بين تاورغاء والهيشة، على مسافة ساعات من كل، لناحية الجنوب من تاورغاء، ولناحية الغرب من الهيشة. وهما بُلدان من ناحية الجنوب من مصراتة.

وبين تاورغاء ومصراتة أقل من نصف مرحلة، وهو بلد متسع الساحة ليس به نبات ولا شجر إلا النخل، وبه منه مالا يحصى كثرة، وهو أنواع مختلفة، وبه عين ماء عذب لا نظير لها في القوة ومنها تتفجر أنهار تاورغاء.

والهيشة بلد صغير بين القبلة والجنوب من تاورغاء، وكل منهما في أرض سبخة لا تنبت سوى النخل، ويسقى نخلها من العيون؛ غير أن عيون الهيشة صغيرة قليلة النفع عكس تاورغاء.

[٢٧٥] ـ ولما التقى الفريقان بذلك المحل كانت الوقعة لمنصور عليهم وقتل من رؤساء الجند والقواد كثير، وفي تلك الوقعة مات رجب قصعة. ولما وقع رجب عن فرسه أحضر بين يدي منصور بن خليفة مكشوف العورة، فاستغاث به فلم يغثه وباشر قتله بنفسه، وهذه الفعلة منه دلت على صغر نفس. وكان إيقاعه بهم سنة ثمان ومائة وألف بأواخر رجب أو في شعبان.

ولما بلغ محمد باشا الخبر اغتم لذلك غماً شديداً وعزل يوسف عن قيادة الجند وولاها خليلاً يوم الجمعة لست بقين من ذي القعدة من السنة المذكورة، وبنى بزينوبة، وطغى منصورٌ وتجبر، وأكل مواشي الرعايا وأفسد زرعهم، وتوجه إلى أرض برقة، وأرسل الأمير محمد باشا إلى عامله على الجبل الأخضر محمد بن محمود ليأخذه، فجمع من جَنَّده من أهل البلدين: درنه وبنغازي ممن ولد بهما من أهل مصراتة يزليتن، وبنى الجند المسمون القول أوغليه، وأضاف إليهم أعراباً أطاعته من أهل الجبل الأخضر: جبارنة، وبراغيث، وأولاد برعوص، وأولاد علي.

فاجتمع عنده اثنتا عشرة مائة فارس وتوجه إليه، وبعث الأعراب المذكورين طليعة، فالتقى الفريقان ببرقة فهزمهم منصور حتى بلغت هزيمتهم أخبية محمد باي ومن معه من جند البلدين، فردوا عليه وهزموه هزيمة منكرة حتى أفاتوه أهله واستولوا على حريمه ولم ينج له إلا ذودُ إبل، فرجع إلى وطنه واجتمع إليه من يحبه من إخوانه وأصحابه، ورجع لما كان عليه، وثارت بينه وبين عبد الله بن عبد النبي الصّنهاجي حروب أدت إلى موته وذهاب شوكة أعوانه، ومات سنة (١١٠٩ هـ) تسع ومائة وألف على يد عبد الله بن عبد النبي الصنهاجي، ومن انضم إليه من أولاد عبد الرحمن الجبالي وأولاد زيان وأولاد سلطان التاورغيين، وبني معدان وأولاد الجند من أهل مصراتة في أرض تسمى «قرارة ابن جُديّ» بالتصغير: محل حرث لأولاد على العمائم بين يزليتن ومصراتة، مسافتها من كل نحو ثلاث ساعات، ومن مصراتة بين الجنوب والغرب.

[٢٧٦] ـ وفي أيامه سنة (١١٠١ هـ) إحدى ومائة وألف امتنع الناصر صاحب فزّان من إعطاء الخراج وأعجب بكثرة باديه وحاضره، فوجه إليه جنداً كبيرةُ يوسف بيك ومشى على جهة تاورغاء حتى نزل على مرزك، فخرج له الناصر واقتتلوا قتالاً

شديداً خارج البلد، وكانت الواقعة ليوسف على الناصر، وكانت في اليوم الثاني للناصر على يوسف، وفي الثالث تكافآ.

[٢٧٧]- وكان بالمحلة أولاد المُكنَّى: علي ومحمد الغُزيِّل وهم المغرون بالناصر محمد الإمام والمحسنون له الخروج إليه، فلما فهم يوسف ذلك توعدهم بالشر، فراسلوا خفية إخوة الناصر وأبناء إخوته وأكابر جندهم، ووعدوا كلا بالملك بحيث لم يدر كل بما روسل به الآخر، فأصبحوا بالمحلة من غير علم من أحد بالآخر. فسُقط في يدي الناصر، وعلم أن ملكه هُدَّت أركانه، فراسلهم بطلب الأمان له ولوزيره المسعودي ولمن معه من حاشيته بادٍ وحاضر. فراسل يوسف قاضي الناصر حماد بن عمران وأعطاه الأمان على يديه، فخرج من قصره حتى أتاهم.

فلما أتاهم دخلوا البلد وتولى يوسف خزائنه، ثم لم يوف للناصر وللناس بالعهد، فعذب الناصر والقاضي وابنه والتجار، ونهب أموال الناس وهتك حريمهم، واستولى على من ظن به المال ليعذبه، وكان من جملتهم تاجر من برنو.

ووكل بتعذيب الناس مصطفى البسكري الملقب بأبي خشيم، وكان شديد العداوة للمسلمين.

فلما رأى ذلك التاجر ما حل بالناس من العذاب بالنار، سأل رجلاً بإزائه مكتوفاً من أقارب القاضي المذكور يلقب «البحباح» بباء موحدة وحاء مهملة ثم باء موحدة بعدها ألف لينة بعدها حاء مهملة: هؤلاء الخلق نراهم يفعلون هذا، أهم من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة؟ فزجره عن ذلك خشية أن يسمع منه ذلك من يفهم فيزيدون في العذاب. فلما سمعهم الموكل بالعذاب يتكلمون سأل البحباح عما قال فأَبى أن يخبره، فتوعده إن لم يخبره، فأَخبره أنه سأله عن القيامة، وقال إني لم أسمع بهذا العذاب إلا في زبانية جهنم، أهؤلاء هم الزبانية ونحن متنا ونشرنا؟ أم الزبانية تأتي الخلق قبل موتهم؟ فلما أخبره بذلك رفع عنهم العذاب، وراجع يوسف برفعه وكانت تلك الكلمة سبب النجاة.

وهذه مثل كلمة بعض أصحاب ابن الأشعث لما ظفر بهم الحجاج بن يوسف الثقفي وجعل يقتلهم عامة النهار، ولما كان العصر أخرج بعضهم للقتل فقال: إن أسأنا يا حجاج في الذنب فما أحسنت في العفو. فعفا عنهم الحجاج وقال: أفّ لهذه

الجيف، أما فيهم من قال هكذا؟ ولكن أين المقام من المقام؟ ! ذلك رجل عربي فهم فذاق فعمل.

[٢٧٨] ـ ولما أراد يوسف النقلة عنها أراد أن يستخلف عليها محمداً الملقب بالغزيّل ـ بالتصغير ـ فأخرجا له كتاب الأمير محمد الإمام بتولية محمد الغزيل أرض فزان فانكف عما أراد، ورحل عنها واستصحب معه الناصر ووزيره المسعودي، فلما بلغ المدينة سجنهما بها وأجرى عليهما من الرزق ما يكفيهما ومكثا بالسجن خمس عشر شهراً، منها خمسة [كان] محمد المكنَّى مقيماً بفزان والياً، فلما تمت الخمسة شهور قام عليه أهل البلد بعد أن أخرج منها من سلم من أولاد جُهيم وحاصروه بقلعتها ثلاثة أيام، ثم جُرح وهو بها وأنفذت مقاتله، فلما علم أصحابه ذلك طلبوا الأمان فأمنوا وفتحوا القلعة ودخلها أهل البلد، ووجدوا بمحمد رمق الحياة، فربطوا برجله حبلاً وجذبوه إلى خارج القلعة، وكان وقت ولايته قطع يد رجل من أهل البلد فأحضروه وأمروه بقطع يده، فقطعها ومثلوا به.

[٢٧٩] ـ وراسلوا تمام بن محمد ومحمد بن جهيم بأرض السودان، فقدما عليهم وبايعوا تماماً وراسلوا محمد باشا بأنهم التزموا بالخراج، فحثه أولاد المكنى على الأخذ بثأرهم، ودبروا له رأياً وهو أن يرسل النوبة ويجعل واليها علياً المكنى ويعين معه جماعة من الجند شبه تجار حتى يقدموها ويخدع من بها من أولاد محمد وأعوانهم، واستعان بأهل ابن وليد من أورفلة وأتباعهم، فلما قربوا من البلد لم تخف حيلتهم على محمد بن جهيم ومن معه من كبراء جنده، فخرجوا وراودوا تماماً على الخروج معهم، فأبى عليهم، اعتماداً على مراسلة علي وأخيه المصري له بأنهم أتوه بالخلع والتجديد من حضرة الأمير محمد باشا الإمام، وبعثوا له بلقائهم بمن معه من كبراء جنده وأولاد الملوك، وأمر أصحابه بالتأهب لقتلهم إن قدموا، ظناً منه أن ما احتال به خاف عليهم، فخرج للقائه تمام وحده، فلما رأى ذلك سقط في يده فدخل عليّ وأخوه البلد وأقاموا بها سنة ويده مرفوعة عن التصرف.

[٢٨٠] ـ ولما بلغ محمد بن جهيم وادي الخرمان، بايعه من معه على قتالهم، وكان عليّ خرج في غازية في أثرهم وليس عنده خبر وصولهم الوادي، فلما نزل بإزاء قلعة بالوادي، هجم محمد وأصحابه عليهم وأخذوا أسلحتهم ومتاعهم وقتلوا بعضهم، ولم يفلت علي إلا في نفر قليل، وخرجوا في أثرهم حتى أدخلوهم مرزكاً،

فدخلها محمد بن جهيم وأصحابه ليلاً، وأخرجوا تماماً وأحاطوا ببيت علي. فلما أصبح طلب الأمان فأعطيه على شرط أن يرد ما أخذ من خزانة الناصر، فردَّ ذلك وراسل أخاه يوسف بالقدوم عليه بعد أن أخرجوه منها وأخوته إلى القصر الأحمر بسبهة. وكان قتل محمد المصري من البوادي أيامه، وولوا رئيساً عليهم جبراً القلفاط السليماني، فحاصروه بالقصر إلى أن أدركهم يوسف في خمسمائة فارس من الجند صرف عليهم من نفسه.

فلما قدم بهم طرابلس استخرجوا الناصر من الحبس، وكساه محمد الإمام ووجهه إليها والياً، وولى محمد الإمام قيادة جيشه خليلاً قازدأوغلي، وكان ذلك يوم الجمعة لست بقين من ذي القعدة سنة ثمان ومائة وألف، وعزل عنها يوسف وعقد له على ابنته زينوبة.

[٢٨١] ـ ولما تولى ذلك كان عبد الله بن عبد النبي تقوت شوكته، وحارب بعد أن كان متورعاً على طريقة آبائه، وانتمى إليه أولاد سلطان التاورغيون وكل مفسد مثلهم من الأعراب، وأغروه بخراب البلدان ونهب أموال الناس، فحاصر تاورغاء ولم يكن من أهلها بها إلا أولاد محرز. وبعض أولاد قاضي، فقاتلوه قتالاً شديداً نحو الستة الأيام. وكان مع أولاد محرز بعض من بني الجند من أهل مصراتة، وكثر عليهم الناس ممن أعانوا عبد الله بن عبد النبي على الفساد، وأحدقوا بهم.

فقاتلوا قتالاً شديداً وقتل منهم كثير، وكانت الوقعة لعبد الله عليهم، فأخرب تاورغاء ونهب حريمها، وتوجه منها إلى مصراتة، فخادعه صاحب أمرها يومئذٍ أحمد ابن ضيف الله، وأظهر له الصداقة وهاداه [وكان] في خلال ذلك يراسل خليلاً، وكان عبد الله قبل ذلك نهب بعض بيوت يزليتن وأخرب بلد الفواتير ولم ينج إلا القليل.

ولما نزل بمصراتة ورحل عنها خرج له خليل في شرذمة من الجند حتى نزل عليه بوادي حسَّان ـ وهو محل حرث أهل تاورغاء على مرحلة منها إلى جهة الغرب والشمال ـ فالتقيا فكانت الوقعة لخليل على عبد الله، واستولى على أكثر نعمه وحريمه، وخرج فارًّا بنفسه ومن سلم من خيله، وكان ذلك سنة (١١١١ هـ) إحدى عشرة ومائة وألف.

[٢٨٢] ـ ولما استولى عليه عظمت شوكته، وهابه أهل النواجع من سكان

البوادي، وازدادت هيبته في أعين الجند، ولما دخلت سنة (١١١٢ هـ) اثنتي عشرة ومائة وألف، توجه خليل في محلة جمعت راكب الجند، وراجلهم إلا قليلاً لحراسة الجهة الغربية لما أحس من أهلها من التشوف للخلاف، وسار حتى بلغ شكشوكاً - قرية صغيرة بسفح جبل نفوسه، بها قوم مرابطون يهادون العرب من أولاد محمود، و [أولاد] جارية قليلة الشجر، بها من النخل قليل ثم رجع حتى نزل بمحل يقال له «غدير عائشة» فأحسّ من العسكر القيام عليه، فظفر بهم في ذلك المحل وقتل أكثر رؤسائهم، وقفل منه حتى نزل - جبالة - على مسيرة ساعة ونصف من زانزور، فبات هنالك ووجه أكثر الجند للمدينة، فلما دخلوها قاموا من ليلتهم تلك بخلع بيعة محمد الإمام وراسلوا من بالقلعة من الجند بمسك محمد باشا إن لم يجبهم إلى الطاعة. فلما علم بذلك أجابهم وفتح لهم باب القلعة، وكان ذلك ليلة الأربعاء لإحدى عشرة خلون من ذي الحجة سنة (١١١٢ هـ) اثنتي عشرة ومائة وألف.

وكانت مدة ولايته (١٤) سنة و (١١) يوماً.

ولاية عثمان القهوجي الدرغوتلي

[٢٨٣] ـ وفي تلك الليلة بايعوا عثمان القهوجي الدّرغوتلي ـ كان يطبخ القهوة بسوق الترك ـ فنفي محمد الإمام وأهله وأولاده لبلاد الترك، وتولى عثمان الخزانة وتفريق رزق الجند ثلاثة أشهر وخمسة وعشرين يوماً. وكان فظاً غليظاً، وفر خليل لتونس ولحق بصاحبها يومئذٍ مراد بن محمد بن مراد الجبار، وأقام بها مدة ثم انتقل منها إلى بلاد الترك واجتمع بها بصهره محمد باشا وعمَّر شينياً من نفسه وممن فر معه، وكان من له به صداقة من الأعراب يكاتبونه وهو بتونس وكان ممن كاتبه عبد الله ابن عبد الله بن أحمد بن حمودة الجبالي الملقب بأبي طرطور، فخرج بشينيه عليه.

ولاية الحاج مصطفى غليبولي

[٢٨٤] ـ وقد بايع الناس بعد أربعة أشهر من بيعة عثمان الحاج مصطفى غليبولي أول يوم من ربيع الأول سنة (١١١٣ هـ) ثلاث عشرة ومائة وألف، نسبة لغلبول مدينة على ساحل البحر الأسود من أرض الرميلّي، بلد فلاحة وبها أودية ماء يسقون منها زرعهم إن احتاج، وبذلك أخصبت جوانبها ـ واستقر على تخت الملك أول يوم من ربيع الأول من سنة (١١١٣ هـ) ثلاث عشرة ومائة وألف. وأقام في تدبير أمر الناس وتفريق رزق الجند أحد عشر شهراً.

وفي مدته مع أشْهُر عثمان اتصل خليل بتونس وبلاد الترك كما ذكرنا، وكان نادَى بجعل الريال عشرين قرميلا ليرضى الجند بذلك، فحصل للرعية ضرر كبير وزاد عليهم في الخراج الثلث وزيادة؛ إذ قد كان الريال ثلاثة عشر قرميلا، واشتد على الناس الأمر. فلما بلغهم أن خليلاً نزل بالزعفران، وراسل أبا طرطور وبايعه تشوف الناس للخلاف. وهذا المحل الذي نزل به، به أحساء ماء عذب لا نظير لها في العذوبة يقوم للحيوان مقام العلف. وإذا خرجت الديدان بأذناب الإبل [من] لسع الذباب لها أوردوها ماءه، فإذا شربته تساقط ما بها من دود، وهو مشهور بذلك. [وهو] على مسافة أربعة أيام من مصراتة يقصده آتيه منها بين الجنوب والشرق.

ولما استقر خليل عند عبد الله راسل الرعية وإخوانه من العرب والجند، فلم يختلف عليه اثنان إلا ما كان من الجند الذين كانوا مع مصطفى وسعيد بن المنتصر المرموري في شرذمة قليلة كان استعان بهم غليبولي على غريان لما خرجت عن بيعته.

خروج غريان عن بيعة مصطفى غليبولي

[٢٨٥] ـ وكانت غريان خرجت عن بيعته بعد خمسة أشهر منها، فلما أحس سعيد ببيعة الناس خليلاً وإقبال الرعية عليه، وإعراضهم عن مصطفى اتخذ يداً مع خليل وأظهر لصاحبه الإعانة، فلما سمع مصطفى بزحف خليل إليه، جند الجند وفرق فيهم عشرة ريالات لكل، وأبقى في البلد خليفة كاهيته مصطفى شنار، وكانت عنده مودة لخليل يخفيها، وظهر ليلقاه بنفسه، وراسل خدنه سعيداً المذكور، وخرج إلى ناحية غريان يظن أنه يأتيها لما بينه وبينهم، حتى نزل «وادي السمارة».

[٢٨٦] ـ فلما نزل الوادي المذكور بلغه أن خليلاً سابقه على البلد من جهة الساحل، وكان قد وضع بعض الجند من أعوانه بتاجوراء، فسبقه خليل عليهم فقتل منهم من استحق القتل ودخل المدينة بواسطة كاهية البلد وأهلها، وكان خليل قد وعد الجند بإعطاء كلِّ جندي عشرين ريالاً جنويًا وزيادة «تركة»، والتركة عندهم زيادة ربع قرميل كل يوم في الجند، فخذلوا مصطفى ومسكوه، وأعلموا خليلاً بذلك، فبعث به إلى تاورغاء، فقتل بها بعد الإهانة على يد محمد بن علاق التاورغي.

ولاية خليل باشا

[٢٨٧] ـ واستقر خليل على الملك يوم الجمعة من ربيع الآخر سنة (١١١٤ هـ) أربع عشرة ومائة وألف. ولما تمت له الأمور بعث لصهره وعياله سفينة أتت بهم من بلاد الترك، فوافق دخولهم عليه صبيحة أول ليلة من المحرم سنة (١١١٥ هـ) خمس عشرة ومائة وألف.

وكان صهره محمد باشا حليماً لين الجانب حسن السّيرة لم يتخذ أعواناً لخاصته غير عبد زنجي كان له قبل أن يَلي الملك، لم ير مستعملاً لحرير ولا ذهب، ولا مرتكباً لمحرم في غير القانون المخزني، وأما هو فقد غلبه فيه العمال والجند حتى أنهم يغلبونه في إحداث الخوارق وهو لا يريدها، وربما صرح بذلك وتظلم، وكان ملازماً للخمس في الجماعة يؤم الناس إن غاب من عينه للإمامة بالقلعة، كثير التوقير للعلماء، يقف لأدناهم منزلة، ويتنحى لكبرائهم عن سرير ملكه، سهل التناول، يطرق بيته جليل الناس وحقيرهم، ويخرج إليهم بنفسه ويسمع الشكاية من الكل، فإذا أتاه الشاكي وقت أكله أخرجه إليه وأكل معه جبراً لخاطره، لم يتأنق في مأكل ولا فرش ولا بناء سوى مسجده الذي بناه بسوق الترك المعروف به، فإنه بذل فيه وسعه، وبناه من مفروضه في الغنائم، وكان بناؤه على يد ثقته مصطفى قاربطاق التونسي سنة (١١١٠ هـ) عشرة ومائة وألف وقد أشار إليه حسين بن سيدي أحمد الفقيه في أبيات فقال:

جـامـع أنـس قـد بنـا ... ه ذو العطـا وحبّسـا
محمـد البـاشـا كفـا ... ه الله شـر مـن أسـا
وكـان للنـاظـم عـو ... نـاً ولمـن قـد هندسـا

إن قيـــل مـــا تـــاريخـــه   قلـــت: بتقـــوى أسســـا

وهو كما أشار، انتفع الناس به انتفاعاً كبيراً جعله الله له جُنَّة من النار.

وفي سنة إحدى عشرة ومائة وألف جدد بناء السوقين المحدقين بمسجده من جهتي الغرب والشمال بناءً لم ير مثله في سعة السَّاحة وحسنْ الشكل.

وكان في مدة ولايته وقع بينه وبين محمد باي صاحب تونس وحشة أدت إلى أن محمداً الإمام راسل صاحب الجزائر شعبان خوجه ليساعده على تونس.

[٢٨٨] ـ وسببها أن محمد بك بن مراد جند نحواً من أربعين ألفاً مرتزقة من الترك، ومن أبناء الترك سوى مرتزقة العرب، فبعث إلى محمد الإمام يطلب منه من بطاعته من أهل الخراج ممن هو من أهالي تونس: كأهل جربة وصفاقس وسوسة وقابس وغيرهم ولو رفضوا سكنى تونس، فأجابه لذلك مسالمة إلى أن يستعد، وراسل شعبان صاحب الجزائر يطلب منه الإعانة، فأمره بالتأهب إليه، واتفق معه على اللقاء بعنابة ـ بلد من عمل الجزائر به من أنواع الخيرات كثير ـ فأرسل محمد الإمام أسطوله، وجهز فيه من جنده مرتزقة ألفاً ومائتين وخمسين غير النوتية. وكان ذلك في ربيع الأول سنة (١١٠٦ هـ) ست ومائة وألف.

ولما بلغوا عنابة والتقى الجندان وانضما لبعضهما كانت الوقعة للجندين: الطرابلسي والجزائري عليه، وفر أمامهم ودخل تونس، وقفوا أثره حتى نزلوا به وحاصروه حصاراً شديداً. وفي مدة حصارهم له أرسلوا طائفة من الجند لمدينة غار الملح فحاصروها وأخذوها، وهمَّ خليل المذكور ومن معه بحصار البلد حصاراً عظيماً، ووقعت بينهم أمور كثيرة يطول شرحها، وقاتلوهم قتالاً شديداً لم يعهد مثله لأمثالهم، وظهر من شجاعة خليل باي المذكور وقوته مالا يوصف إلى أن افتتحها قهراً.

ثم إن أهل الجزائر دخلوا مدينة تونس وجعلوا بها أموراً شنيعة من القتل والنهب والفسق وغيره. ثم إن خليلاً المذكور قدم تونس بمن معه وأتى بما كان من مراكب بغار الملح كالقبطانة وغيرها، فأعطاه شعبان خوجة تلك السفن فشتمه لكونه لم يسهمه مما أخذ من تونس. فاحتال شعبان في قتله وأرسل يطلبه فعلم به خليل

وأقلع من حينه فرموه بالمدافع من حلق الوادي فلم يفد، وقدم إلى طرابلس مسروراً.

[٢٨٩] ـ ولما استقر خليل في الملك وقدم إليه صهره وعياله من بلاد الترك وسلم لمحمد باشا في الأمر، ولزم شأنه تشوف أهل غريان للخلاف وخلعوا بيعته فخرج إليهم، وحشد الأعراب، وبنى الجند الساكنين خارج المدينة في سائر المملكة، وحاصر غريان وقطع شجرها، وكان ذلك سنة (١١١٥ هـ) خمس عشرة ومائة وألف. ودخلها من وادي الأرباع ونهب أكثر بلادها وقتل منهم كثيراً.

ولما دخلت سنة (١١١٦ هـ) ست عشرة ومائة وألف، قدم عليه الشريف صاحب تونس ليفتكَّ البلد من يده، واستصحب معه عثمان القهوجي وشعبان بن قار يوسف آغة الكرسي، كانا نفياً عنده ظناً منه أن أهل طرابلس يوافقونه إذا رأوهما معه، وقدم في جند كبير نحو الثمانية عشر ألفاً ونزل برملة المنشية من جهة طرّة، وخرج خليل للقائه. فلما التقيا أخبر خليل بخلاف الجند الذين بالمدينة عليه، وأن بعضهم أدخل يداً مع الشريف، فكرّ راجعاً إلى المدينة وترك أثاث المحلة ودخلها وغلق الأبواب، ودخل الشريف المنشية، وأفسد جنده بها وحاصر البلد، وكان نزوله بالرملة لخمس عشرة بقين من شعبان سنة التاريخ وقطع نخيل الأجنة والسواني التي بالقرب من المدينة وجعله أبراجاً ليحاصر المدينة بذلك ويرمي عليها الكور.

[٢٩٠] ـ وكان من السواني المشهورة التي أخرجت إذ ذاك سانية الفقيه العالم، الصالح سيدي عبد الله بن أحمد بن غلبون التي كانت تسمى «إرم ذات العماد» لحسنها وما حولها من الأجنة.

وراسل أهل الطاعة. وأقام على الفساد ومحاصرة البلد نحواً من أربعين يوماً. وقرب من المدينة بأبراجه، واشتغل بحفر سرب من تحت الأرض ليضع فيه باروداً كي يخرب المدينة. فلما أحسَّ به أهل البلد فتحوا باب البحر وخرجوا إليهم بكرة وحملوا عليهم حملة منكرة، فلم يفلت من جنده المحتمى بأبراجه إلا قليل، وصاحوا بهم فوقعت الهزيمة عليهم وقتل منهم كثير فتم الأمر لخليل وعظم في أعين الرعية والجند، وازدادت هيبته، فكان إذا أرسل السرية القليلة من جنده وأتباعه فرت الأعراب أمامها.

وهو أول من اتخذ الحجاب من ملوك طرابلس، وأول من لبس الحرير والذهب وأكثر المماليك من الروم، وتأنق في المأكل والملبس، ولم يكن لملوك طرابلس الذين قبله اعتناء بمثل هذا، ونحا في ذلك نحو ملوك تونس.

[٢٩١] - وسبب الوحشة بينه وبين إبراهيم الشريف أن خليلاً كان بينه وبين مراد صاحب تونس صداقة، ولما حلّ بجواره فارًا من طرابلس أحسن إليه، وكان إبراهيم غرر به، فبقي في نفس خليل من ذلك شيء، فمرت به خيل لإبراهيم في الركب فأخذها ممن هي بيده بصورة بيع أكرهه عليه، فبلغ ذلك إبراهيم، فبعث إليه يهدده إن لم يردها، فأغلظ له خليل في الجواب.

[٢٩٢] - وكان خليل جباراً ذا نخوة لم يؤثر عنه شرب مسكر مذ وُلّي، وفيًا بالعهد، لم تثبت عنه فلتة بخيانة قط، قوي العزم محباً لأهل العلم، يكرمهم ويعظمهم، كثير التعليق بالأسئلة. فإذا أتاه آت ينتسب إلى العلم ألقى عليه مسألة يعسر فهمها على مثله، فإن أجاب زاد في تعظيمه واحترامه، وإلا غض عنه، وإذا كتب توقيعاً في شيء لا يمكن الرجوع فيه، يتحاشى قواده حامل كتابه ويخشون سطوته.

[٢٩٣] - كان أول أمره أرسل كتاباً لعامله أحمد بن أحمد الشيخي وعمل بخلافه، فبعث بصلبه بفم داره وجعل الكتاب على جبهته فصلب كذلك. وكان وفيّ العهد لا ينقض ما أبرم ولو عليه فيه مضرة. وكان يقول: ألقى الله بكل ذنب ولا ألقاه منشوراً لي لواء الغدر. يتحامل على أهل البدع حتى قلت البدع في أيامه، وأذل رئيسها علي الفرجاني وسامه خسفاً، ولم يدخل أرض طرابلس إلا بعد موته. بنى مسجدا حسناً بالظهرة، غير أنه كان مروانياً في إرخاء عنان عبيده وظلم حاشيته.

[٢٩٤] - ولم يزل كذلك إلى أن دخلت سنة (١١٢١ هـ) إحدى وعشرين ومائة وألف، فخرج كبير أسطول السفن الجهادية علي قبطان غازياً، وخرج معه البرنجي في سفينة صغيرة، فأعلم الإفرنج الذين بالبلد صاحب مالطة عنهما، وأخبروه بما فيهما من العدة والعدد، فجهز إليهما شوانيه وأسطوله فطاردهم عليّ قبطان وقاتلهم قتالاً شديداً، وكان ذلك من البعد. فإذا همَّ بأن يحط على إحدى السفن ليربطه بها هربت منه حتى أعدموا السفينة عن بعد؟ فلما علم أنه لا نجاة له منهم أحرق السفينة

ونزل من كان بها حياً في البحر فأخذوهم، وكان ذلك في ربيع الآخر من السنة المذكورة. وفيها خلع عبد الله بن عبد النبي بيعته وأظهر ذلك، وأخذ الركب الفزّاني الآتي بالخراج منها.

ولما بلغ خليلاً ذلك أواسط شعبان من السنة المذكورة، خرج له في طرف من حاشيته وعبيده من غير أهبة. فلما نزل مزدة ـ وهي قصران حصينان من بناء الأول، الشرقي منهما يسمى الشارف يسكنه أولاد مرعي الغيبان. والغربي لقوم يسمون قنطرار، ولكنهم الآن يسكنون القصرين وهم كالخدم لأولاد مرعي الغيبان. وحواليهما من جهة الغرب أجنة قليلة بالقرب من القصرين بحيث تصيب الرمية من القصرين من أتى تلك الأجنة، وأهلها مشهورون بالرمي وحسن الصناعة في البارود بحيث يضرب المثل به. يقصدها الآتي من وادي ابن وليد بين الجنوب والغرب، وهي منه على مسير ثلاث [مراحل] أو أقل بيسير، وبأجنتها نخل قليل ـ لحقه الخبر أن إبراهيم أَلَيْلِ خلع بيعته ووافقه الجند وأهل البلد على ذلك.

[٢٩٥] ـ وإبراهيم هذا أَليليّ النسبة. وأَلَيْل على ساحل البحر بالأناضول، وهي بهمزة مفتوحة ولام كذلك ومثناة تحتية بعدها لام مكسورة. وحاصر حسيناً المشهور بحنطوزة نائب خليل بالقلعة خمسة عشر يوماً، ورجع خليل حتى نزل بطرة المنشية بمن معه، وخرج لقتاله أهل البلد والجند، وفتح باب زناتة ولم يفتحه أحد قبله ثم أغلق بعد انقضاء القتال.

[٢٩٦] ـ وأقام خليل سبعة أيام ثم توجه لعبد الله بن عبد النبي الجبالي، وانضم إليه بمن معه فجعل إبراهيم قار محمد قائد جيش الخيل وأخرجه للقائه، فالتقوا بمحل يقال له الشرعب، فكانت الوقعة لمحمد على خليل. وفر خليل بمن معه لأرض سرت، وسار محمد في أثره إلى أن نزل بعين تاورغاء، فراسل عبد الله بن عبد النبي فوفد عليه فأغراه بقتله قريوي الجبالي فقتله ومن معه إلا ابنه علياً مسكه ليأتي بما أخذ من خراج فزان ورجع محمد، وأقام خليل بسرت قليلاً ثم توجه منها لودان ولحق بالناصر صاحب فزان وتفرق عبيده وأتباعه شغر بغر، ولم يبق معه إلا قليل، فأخذه رحومة بن جويلي المسراتي كبير ركب تجار مصراتة لأرض فزان معه حتى أدخله مصر فأكرمه إبراهيم بك وأهلها إكراماً زائداً. وخرج منها إلى القسطنطينية شاكياً لحضرة السلطان، وما درى أن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

ولاية إبراهيم الأركلي أليل

[٢٩٧] ـ واستقل إبراهيم بالملك عاماً كاملاً، وفي خلال العام شرد بشيعة خليل قتلاً ونفياً. وكانت شيعته أكثر جند البلد، فضعف بذلك أمر الترك، ووهت شوكتهم ووقع في نفسه من محمد قار الأنضلي شيء كرهه فأزاله عن موضعه، وجعل قائد خيله تركياً يقال له محمد حسين شاوش. وكان ذلك في ربيع الأول لخمس خلون منه، فبقي على ذلك أربعة أشهر وتسعة عشر يوماً، ثم عزله عنها لست بقين من رجب سنة (١١٢٢ هـ) اثنتين وعشرين ومائة وألف. وكانت ولاية قار محمد آغة الخيل ستة أشهر وثمانية عشر يوماً، وقلدها محمد باي الملقب ابن الجن الكول أوغلي، كان رئيس شيني مشتغلاً بغزو العدو وتشريدهم وغزواته ووقائعه كثيرة معهم وتخريبه قراهم مشهور، لو تتبعناها لاحتاجت لديوان مستقل.

[٢٩٨] ـ ولما نفى إبراهيم محمداً الأنضولي لناحية المغرب خرج إلى الأعراب حتى أتوا به غريان فدخلها ووافقه أهلها، فخلع بيعة إبراهيم، وخرج بمن وافقه على الفساد راجعاً إلى المدينة حتى أتوا تاجوراء، فالتقى قومه مع محمد باي الجن واقتتلوا، فما مضت برهة من الزمن حتى هزم قار محمد ومن معه، وأخذتهم السيوف، ومات منهم نحو الثلاثمائة ورجع محمد باي منصوراً مظفراً. وكانت الوقعة أواخر رجب سنة (١١٢٢ هـ) اثنتين وعشرين ومائة وألف. وسلم محمد قار وفر بمن معه ممن وافقه إلى ناحية الجبل.

وكأن الله سبحانه أراد انقراض الدولة التركية وإقامة الدولة القول أوغلية، فأيد محمد الجن وسلط الترك على بعضهم حتى قلوا وضعف أمرهم. فتاقت نفسه رحمه الله تعالى لخلع بيعة إبراهيم، فجمع كبراء البلدين: الساحل والمنشية،

وشاورهم في ذلك، فأشاروا عليه بخلع بيعته لخمس عشرة خلون من رمضان، وقيل لأربع عشرة مضين من رمضان من السنة المذكورة، وحاصره بالمدينة ستة عشر يوماً، ثم وافق أهل المدينة محمد باي المذكور وخلعوا بيعته ليلة عيد الفطر، ليلة الأحد وأوثقوه ثم نفوه إلى الإسكندرية.

ولاية إسماعيل خوجة

[٢٩٩] ـ وأقاموا مكانه إسماعيل خوجة. كان إماماً بجامع الخروبة، وجلس للحكومة وتفريق رزق الجند في يوم العيد، وكانت إقامة أهل البلد له برأي من محمد باي ولم يختلف على بيعة محمد اثنان من أهل البلد وباديها، واشتغل أول أمره بنفي طغاة الترك وقتلهم حتى أبادهم جميعاً إلا القليل منهم ممن لم يكن له تعلق في مدتهم وزال الملك من أيديهم، وتولى ولاية الملك القول أغلية.

ولاية الحاج رجب

[٣٠٠] ـ ولما استتم أمره عزل إسماعيل المذكور عن موضعه، وكان ذلك لليلة بقيت من ذي القعدة من السنة المذكورة. وولاه رجلاً آخر يقال له الحاج رجب... وفي أيامه أتى قار محمد لأهل تاجورة فطردوه ورجع لغريان.

ولما مهد البلاد ودخل القلعة، أحس منه محمود الملقب أبا مويس ـ كان كاتباً بالديوان ـ شراً بدعواه، فغدر به وقتله وتولى موضعه، وكان قتله إياه يوم السبت في العشر الأخير من جمادى الأولى من سنة (١١٢٣ هـ) ثلاث وعشرين ومائة وألف.

ولاية محمود أبي أميس

[٣٠١] ـ وبايع الناس أبا مويس على ضغينة من فعلته، فأقام خمسة وعشرين يوماً، وأرسل مولانا أحمد بن يوسف قرمنلي إلى غريان ليغدر به هنالك، لما توسم فيه من النباهة والصلاحية للملك دونه. فاتفق أهل البلد على صلاحيته، فرجع قبل وصوله إلى غريان لما فهم من خدعه إياه. فلما قدم البلد بايعه أهل البلدين: الساحل والمنشية، ولم يتخلف عن بيعته أحد لما جبل عليه من الرقة واللطف.

وهو الذي أسس قوانين الدولة، وأحيا رسوماً دائرة من قواعدها.

ولاية أحمد باشا قرمنلي

[٣٠٢] ـ كانت بيعته ضحوة الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة سنة (١١٢٣ هـ) ثلاث وعشرين ومائة وألف. وقيل حادي عشر الشهر المذكور.

فلما أحس بذلك محمود أقام يومه ذلك متهيئاً للحرب، ثم في ليلة الأربعاء قام الشريف حسونة عليه من داخل المدينة وقبض عليه، ودخل القلعة صبيحة الخميس الثالث أو الخامس عشر من الشهر المذكور، فظن أنه يستقل بالأمر، وفتحت أبواب المدينة، فقبض على الشريف المذكور وقت العصر من ذلك اليوم، ودخل أمير المؤمنين القلعة في ذلك اليوم.

ولما مرت له أيام جعل يوسف قائد خيل محمد الإمام سابقاً داياً بالقلعة، وكان ذلك لتسع بقين من الشهر المذكور من السنة المذكورة.

وفي ذلك اليوم من الشهر المذكور، قدم خليل باشا بأسطول من حضرة السلطان، وسيأتي خبر ذلك مستوفي عند ذكر شمائل أمير المؤمنين عندما يناسبه من أبيات القصيدة.

[٣٠٣] ـ قال الناظم:

إذا أَمَّها من قد نأته بلاده ... وأوحشه ذو أمرها من حُماتها
تطأْمَن عن نفس ومال وعشرة ... ويضحي بعزٍّ ما ثوى بجهاتها
فكم من دُيورٍ أُخرِبت وكنائس ... وكم من حصونٍ حُوصرت بِسَراتها
وكم من بلاد للصليبيّ مركز ... أحاطوا بها ليلا وأفنوا طغاتها
وكم من جَوارٍ للكوافر ضيَّقت ... على سفن الإسلام من لفحاتها

قد أضحت بمرساها أسيرة فلكها وعسكرها في حيزها من حفاتها
وكـم مـن أُوْيسـيٍّ بهـا ذي معـارف وكـم مـن جُنَيـديٍّ علـى شـرفـاتهـا
بهـا فُضـلاءُ مـا الفضيـلُ يفـوقهـم فـوارس أنجـادٌ وهـم مـن حمـاتهـا
قـد اختـارهـا الـزروق داراً ومَـوْطنـاً كـذا ابـن سعيـد مُقتـدٍ بهـدُاتهـا
تـواتـرت الأقطـابُ تتـرى بـأرضهـا وكـم سيـدٌ رام المقـام بـذاتهـا
بهـا علمـاء عـاملـون بعلمهـم خمـول عـن الإظهـار فـي خلـواتهـا
ولـم تـرَ غِشًّـا قـطّ مـن جمـع أهلهـا ولا قسمـاً فـي بيعهـم مـن جفـاتهـا
إذا حـان وقـتٌ للصـلاة رأيتهـم سِـراعـاً وخلُّـوا الـربح فـي عـرصـاتهـا

إذا أمها: قصدها. من قد نأته بلاده: أبعدته، من نأى إذا بعد، وعداه بنفسه لتضمنه معنى بعد بالتضعيف.

وأوحشته بلاده: البلد مكة شرفها الله تعالى، وكل قطعة من الأرض مستبحِرة، غامرة كانت أو عامرة، وهي المراد هنا. وأوحشه: أخافه.

وذو: بمعنى صاحب. والأمر ضد النهي.

وأُولو الأمر: الرؤساء والعلماء.

والحماة: جمع حام، وهو من يمنع جواره أن يضام، أو من يطمئن قاصده عن نفسه وماله إن دخل.

وجوار أهلها مشهور، قصدها زيادة الله بن الأغلب لما افتك الشيعي بلاده، فحمته ولم يصل إليه مكروه حتى انتقل منها.

وحمت ياقوتاً المعروف بالإفتخار نائب قراقش لما طلبه يحيى بن إسحاق الميورقي، ولم يسلموه حتى قهروا وأخذت أموالهم.

وحمايتها لمن أمها قديماً وحديثاً شهيرة، أشهر من أن تذكر، وسيأتي ذكر نبذة منها عند التعرض لذكر شمائل أمير المؤمنين أحمد بن يوسف إن شاء الله تعالى.

[٣٠٤] ـ وأما إخرابها الديور والكنائس، فإن عنى الديور اللغوية والكنائس فلم أقف على إخرابهم شيئاً إلا ما فعل مصطفى العلج الريّس ببعض كنائس لهم أواخر سنة (١١٣٩ هـ) تسع وثلاثين ومائة وألف، أو أوائل الأربعين، فإنه أخربها وأخذ ما

فيها، وأتى بيد منها معظمة عندهم يزعمون أنها تعبد، وبعثوا على ذلك ودفعوا أموالاً عظيمة لحاشية السلطان حتى كاتب أمير المؤمنين أحمد بن يوسف فردها إليهم. وإلا ما فعلته سفن عثمان باشا بكنيسة جرجرا اللعين التي ابتناها بجزيرة لم يسبق بتعميرها، وابتنى حولها أبراجهاً وفندقاً ومحلاً لسكناه وحبوساً لسكنى أسارى المسلمين. واتخذ ثلاث سفن ضيق بها على المسلمين أشد الضيق، فأخرج إليه عثمان سفنه لناحية القسطنطينية، فالتقت معه وقتلوه واستولوا على سفنه، وأخربوا كنيسته وما عمر. وكان ذلك في ربيع الثاني سنة (١٠٧٩ هـ) هجرية تسع وسبعين وألف.

وإن أراد بالكنائس والديور محالها من القرى، وذلك شيء لا يحصى كثرة.

[٣٠٥] ـ حدثني من أثق به قال: خرجت في شيني رئيسه قرلونة العلج، فقال لنا: الآن أغزو بكم بلدنا، قال فأتيناها ليلاً وأحطنا بها، فاستولينا على عمه وبنيه، وقتلنا من وجدناه فيها من طغاة الكفرة، وأخربنا ديارهم.

قال: وفعلنا مثل هذا في عدة غزوات، ومثل هذا فعل ابن الجن رحمه الله تعالى كثيراً.

[٣٠٦] ـ وأما أخذ فلكها أساطيل غزو النصارى، فما سمعت من سفن جرجرا اللعين التي ضيقت على كافة بلاد الإسلام أشد الضيق، وسفينة لطاغية الإفرنج كانوا أرسلوها مشحونة جنداً ومالاً وخيلاً مدداً لجزيرة الإكريتية، المعروفة عند المغاربة بكِندية، وغير ذلك كثير، وأمرها في الغزو ونكايتها في العدو شهيرة هذا من سفن النصارى المعدة للغزو على الإسلام.

وأما سفن تجاراتهم فحدث عن البحر ولا حرج.

[٣٠٧] ـ وقد أخبرني بعض الثقاة من تجار البلد قال: دخلت مدينة بلنسية وأتيت سوقها، فسألني بعض التجار بها لما رأى الهيئة مغربية من أي بلاد المغرب أنت؟ فأخبرته عن وطني، فسألني: أيبنون بيوت طرابلس بلَبِن الذهب والفضة؟ أم هي كسائر الدنيا؟ فقال: فظننت أنه يسخر بي حتى أقسم لي بمعبودهم.

قال ودار بي على السوق، وجمع ما هو مكتوب على أفواه حوانيتهم مما ضاع لكل، فخرج شيء لا يحصى كثرة.

فقال: هذا ما ضاع لأهل بلدهم، فكيف بغيرها من بلاد النصارى، قال: وهم يكتبون ما يأخذه لهم كل فريق من المسلمين.

وأما أهل الأحوال فهي مشهورة بإقامة أهل الصدق في الأحوال بها قديماً وحديثاً، ولم تزل على ذلك.

وأما موافقتهم أويساً القرني رضي الله عنه في الوصف، فهم في التقشف والزهد والقناعة بالرتبة الأويسيّة، وإن كان اختصه الله تعالى بزيادة ﴿**يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾ [آل عمران: ٧٤].

وأما موافقة أهلها الإمام أبا القاسم الجنيد بن محمد القواريري، سيد طائفة أهل عصره، وإمام من بعدهم في الدعوة إلى الله تعالى، على أصول الكتاب والسنة، فقد كان منهم شرذمة على ذلك قديماً وحديثاً، منها:

ـ الأستاذ أبو الحسن بن المنمر

[٣٠٨] ـ **فمن القدماء**: الفقيه العارف بالله أبوالحسن بن المنمر، كان مولده بطرابلس سنة (٣٤٨ هـ) ثمان وأربعين وثلاثمائة. أخذ عن أحمد بن زريق البغدادي بمكة، وروى عن ابن القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الجوهري، ثم عاد إلى طرابلس ودعا إلى الله سبحانه وتعالى، وقرر الشريعة أصولاً وفروعاً، وأظهر السنة بها لما عم الرفض ومات أئمة أهل السنة.

وهو أول من قطع الأذان بحيّ على خير العمل، وأول من أقام صلاة القيام بطرابلس لما محى أثرها من أرض إفريقية، وأحيى طريقة الجنيد، وكان قد جمع الفقه والأدب مع الله، وهو أول من صلى نافلة الضحى جهاراً، ولم يكن أحد في مدة بني عبيد يصليها إلا استخفاء. وله تآليف كثيرة في الحساب والأزمنة وغير ذلك. وله الكافي في الفرائض.

وأقام بطرابلس إلى سنة ثلاثين وأربعمائة، فخرج منها لمحنة جرت له، وأقام بغنيمة «قرية من قرى مسلاتة» فأقام بها عامين. ثم مات ودفن هنالك على الطريق.

ـ الشيخ عبد الله الشعاب

[٣٠٩] ـ وممن كان على سنة الجنيد رضي الله عنه وهو بطرابلس الغرب، العارف بالله تعالى عبد الله الشعاب، كان تاجراً بالمدينة المذكورة، وكان بعض الناس ابتدأ المسجد الذي هو به الآن الذي نسب إليه، وعجز عن إتمامه، فحركته همته لإتمامه، فأتى القاضي وطلب منه إحضار رب المسجد، فلما حضر أمره القاضي بالإتمام، فأقر بالعجز، فأذن للشعاب في إتمامه فأتمه، ولزم السكنى به، ودعا إلى الله على نهج الكتاب والسنة.

وكان يجتمع بالخضر عليه السلام في مسجد، وكان مجابَ الدعوة لوقته.

سمع يوماً بكاء امرأة بباب المسجد، فخرج وسألها عن الحال، فأخبرته بأن لها ابناً أسره العدو، وسألته الدعاء بخلاصه، فدعا وأمنت المرأة على دعائه ثم انصرفت إلى بيتها، فإذا ولدها أصبح في السكة يسأل عن دارها فعرّف بها، فخرجت فسألته عن الحال، فأخبرها عن فراره في البحر وسلامته ووصوله عن قرب عهد، فتوجهت المرأة إلى الشيخ تشكره وتعرفه بوصوله، وأن ذلك ببركة دعائه، فهنأها بسلامته قبل خبرها، وقال: إنما أنجاه الله ببركة دعائك، لما علم من اضطرارك.

وتوفي رضي الله عنه ونفعنا به سنة (٢٤٣ هـ) ثلاث وأربعين ومائتين.

ـ أبو نزار الشيخ خطاب البرقي

[٣١٠] ـ ومن الأويسيين بها أبو نزار الشيخ خطاب البرقي، كان صالحاً ديّناً ذا كرامات خصوصاً في الرُّؤىٰ: وكان زاهداً ملازماً لسكنى مسجد خارج المدينة، وكان يخاطب في النوم بما يكون في اليقظة قبل كونه..

حكى عنه أبو عبد الله الخياري قال: قال لي مرة خرجت إلى الحج منفرداً، فبينما أنا في البرّية إذ مر بي رجل توسمت فيه الخير، ووقع في قلبي أنه الخضر، فبادرته وأقسمت عليه بالله تعالى أأنت الخضر؟ فقال: لقد بقيت فيكم من الخير بقية، ولم يزدني على هذا ثم غاب عني.

ونقل عن الخياري أيضاً قال: قال لي الشيخ الخطاب: بينما أنا في البرية إذ أنا

بسبع قد عارضني، فقلت له: يا أبا الحارث، إن كنت قد أمرت فينا بشيء فدونك، وإلا فالطريق. قال فقرب مني ووقف هنيأة ثم انصرف.

وحكى عنه أنه قال: بينما أنا في البرية إذ رأيت شخصاً، فاستغربت وجوده هنالك، فقصدته فوجدته مفرح بن بياضة، فقلت له: أبا عبد السلام، إلى هاهنا؟ فقال نعم يا أبا نزار، فاستغربت معرفته لي مع كونه مكفوف البصر.

ـ الشيخ أبو عثمان الحساني

[٣١١] ـ ومن الأويسيين بالبلد المذكورة الشيخ أبو عثمان الحسّاني.

وهو سعيد بن خلفون الحساني المعروف بالمستجاب. أصله من أهل قرية حسان إحدى قصور قرى طاعة طرابلس. كان استحدث بناء هذه القرية حسان بن النعمان [الغساني] كان وجهه عبد الملك بن مروان لقتال عسكر كاهنة إفريقية، المعروفة بكاهنة لواتة في عكسر عرمرم، وكانت هذه الكاهنة تسكن الحصن المعروف بلجم وهو أعظم حصن بإفريقية. وكان توجهه لها بعد انتقاض إفريقية، وموت زهير بن قيس البلوى بها.

[٣١٢] ـ ولما بلغ عبد الملك ذلك استشار في من يوجهه عوضاً منه، فأشاروا عليه بحسان هذا، فوجهه بجيش لم يدخلها للمسلمين جيش أضخم منه، فحاصر قرطاجنة وافتتحها وأخربها، وتوجه هذه إلى الكاهنة فهزمته وأسرت كثيراً من فرسانه، واتبعته حتى أخرجته من قابس، فكتب بالهزيمة إلى عبد الملك، وسار متوجهاً إلى دمشق رويداً طمعاً أن يلحق به من يفلت من أسارى المسلمين، فعاد إليه جواب عبد الملك أن يقيم حيث وافاه كتابه، وألا يبرح منه، فوافاه الكتاب ببرقة فأقام هنالك، وابتنى بها القصور المعروفة به إلى الآن، وهي على ثلاث مراحل من مصراته إلى الجنوب.

وأقام هنالك إلى أن وصل إليه المدد من قبل عبد الملك، فعاد إلى إفريقية.

وكانت الكاهنة أخذت في قطع الشجر وتغوير المياه لتزهدهم في إفريقية ولم يزل حتى نازلها والتقى الجندان حتى ظن أنه الفناء الأكبر، فكانت لحسّان عليها، وتبعها حتى قتلها عند البئر المعروفة المنسوبة إليها، وعقد لابنها على البربر.

[٣١٣] ـ وكان الشيخ أبو عثمان هذا زاهداً فاضلاً، منقطعاً إلى الله تعالى، وظهرت بركاته حتى عرف بالمستجاب، وكان له بالمسجد الذي كان به خارج المدينة قضية مشهورة.

وذلك أنه كان ذات يومٍ جالساً في المسجد على عادته، فسمع تحته دوياً عظيماً اهتز له المسجد، فخرج بعض من كان معه لاستخبار ذلك، فوجد شخصاً يقطع الحجارة من كهف تحت المسجد، فنهاه عن ذلك فلم ينته، فرجع إلى الشيخ فأخبره، فنزل إليه الشيخ وقال له: اتق الله فإن فعلك زلزل المسجد، فأجابه: ارجع أيها الشيخ إلى مسجدك، فإن الوالي أمرني بهذا، فقال الشيخ: لو أمرك بهدم المسجد أكنت تهدمه؟ فقال: نعم، لو أمرني لفعلت. فرجع الشيخ إلى المسجد وقال: اللهم احصد عمره، فبمجرد استقرار الشيخ في المسجد، سقط جزء من ذلك الكهف على الرجل فقتله.

[٣١٤] ـ وقال الشيخ أبو الخشاب القاضي رحمه الله تعالى: خرجت مع الفقيه أبي الحسن بن المنمَّر من طرابلس لزيارة الفقيه أبي محمد بن أبي زيد رحمه الله تعالى والسماع عليه، فبينما نحن عنده يوماً إذ تحدث أبو الحسن فقال: أراد الشيخ أبو عثمان مرة الحج، فاتفق مع جماعة من إخوانه أهل الدين والفضل وكنت معهم، فخرجنا مع الوحدة وقطعنا صدراً من الطريق وأقمنا ثلاثاً لم نطعم، فأتى الشيخ أبو عثمان إلى ربوة فمسح وجهها بيده، وجعل يأخذ ترابها ويضعه في إناء كان في يده، ثم ثراه بشيء من ماء كان معه وقرأ عليه أو سمَّى، وقال لنا: سموا الله وكلوا، قال فجعلنا نأكل وتطعمنا منه طعم السويق. قال فأطرق الشيخ أبو محمد بن أبي زيد ساعة، ثم رفع رأسه وقال: هذا داخل في الإمكان سيما وقد ذكرتم أنكم أقمتم ثلاثاً لم تطعموا. وقرأ قوله تعالى: ﴿**أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه**﴾.

ولما رجع المؤدِّب محرز بن خلف من الحج إلى تونس سأله أهلها: من رأيت في طريقك من الصالحين؟ فقال: رأيت بطرابلس رجلاً وامرأةً.

أما الرجل فأبو عثمان الحسَّاني، وأما المرأة فـ«سمدونة». وسمدونة هذه كانت من أفضل نساء العالمين وأكثرهن صلاحاً، وكانت تسكن مسجد الشيخ الشعاب. وكان أبو نزار البرقي يعتقد بركتها ويكثر من زيارتها.

ـ الأستاذ أبو الحسن علي بن أحمد الخطيب

[٣١٥] ـ ومن الجنيديين بها أبو الحسن علي بن أحمد بن الخطيب الطرابلسي، كان يسكن بمسجد المجاز، لزم سكناه أربعين سنة. كان فقيهاً صالحاً عالماً في الفقه والفرائض والشروط.

وكان زاهداً يدعو إلى الله تعالى.

أقام أربعين سنة لم يضحك، ونحواً من خمسين سنة لم يحلف يميناً.

وقال له ابن أخيه عندما أملى وصيته: أنسيت الكفارة؟ فقال: لولا أني في الموت ما أخبرتك، ما حلفت يميناً بالله منذ كذا وكذا، محقاً ولا مبطلاً، وما علمت أن عليَّ يميناً أكفرها.

وقد سئل سحنون بن سعيد لما رجع لإفريقية عن الصالحين، فقال: رأيت بطرابلس رجالاً ما الفضيل بن عياض أفضل منهم. والفضيل بن عياض هذا خراساني من ناحية مرو. قيل إنه ولد بسمرقند ونشأ بأبيورد، ومات بمكة سنة (١٨٧ هـ) سبع وثمانين ومائة.

ـ الأستاذ العلامة الشيخ أحمد زروق

[٣١٦] ـ وأما اختيار الزروق لها، وإقامته بها إلى أن توفي، واتخاذه إياها وطناً أقوى دليل على ذلك.

وهو الفقيه العلامة العارف بالله تعالى الإمام الأوحد، الحبر الفهامة، الجامع بين الشريعة والحقيقة، صاحب التصانيف المفيدة، أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنوسي الفاسي، عرف بزروق، لقب معناه غير قائم به، وإنما هو لقب لجده. فاستمر الوصف لعقبه كما هو شأن انتقال الألقاب من الأصول إلى الفروع. وبرنوس: بموحدة مفتوحة ثم راء مهملة ثم نون مضمومة بعدها واو وسين مهملة، قبيلة من البربر تسكن بأرض المغرب بجهات فاس. وزرُّوق بزاي معجمة مفتوحة، ثم راء مشددة مضمومة بعدها واو وقاف آخر الحروف.

وقد ذكر سيدي زروق في رحلته أنَّ نسبه يتصل بالمصطفى ﷺ من جهة أم جده، قال ولكن لم أحقق ذلك لموت أبي في مبدأ نشأتي.

وشرف المرء إنما هو في سلامة دينه، ولا شرف أكرم من تقوى الله ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ اهـ.

[٣١٧] ـ ولد رضي الله عنه ثامن عشر المحرم سنة (٨٤٦ هـ) ست وأربعين وثمانمائة، عند طلوع الشمس. توفيت أمه ثالث ولادته، وأبوه خامسها، وعمه بقربه. فما استتم سبعاً، وله غير الله مستنداً، فكانت مدة عمره أربعاً وخمسين عاماً، شغلها بالتعلم والتعليم.

تفقه بالمغرب، ثم نالته محنة فارتحل عنه إلى مصر، ولقي بها الشيخ أبا العباس الحضرمي اليمني، وعنه ورث السر. وألف تواليف عديدة مفيدة في الفقه وطريق القوم: ألف على الحكم لابن عطاء الله ستة عشر شرحاً، وقفت على السادس عشر بخطه. وقال في آخره: هذا تمام الستة عشر شرحاً. وشرح رسالة ابن أبي زيد في الفقه شرحاً حافلاً مفيداً محرر النقل، قرأت أكثره بخط يده. وشرح منظومة الوغليسي، والإرشاد في الفقه، ومنظومة ابن البنّا، وابتدأ شرحاً على سفينة النجَاة وظيفته. وله كتاب الحوادث والبدع، وهو كتاب أجاد فيه ونقل أقاويل العلماء في البدع وحكم مرتكبها. وله القواعد في أصول الطريقة، والكُنّاش والرحلة، وكتب كثيرة، رضي الله عنه ونفعنا به.

[٣١٨] ـ كان زاهداً فاضلاً منقطعاً إلى الله سبحانه وتعالى، عارفاً به دالاً عليه. له همة عالية، تخرج عليه جماعة وانتفع به الناس شرقاً وغرباً. وله بركات ظاهرة، وكرامات باهرة، في الحياة وبعد الممات.

[٣١٩] ـ حدثني العارف بالله تعالى المحقق العلامة شيخنا سيدي محمد العياشي قال: حدثنا العارف بالله سيدي محمد اليمني، قال: لما توجهنا من أرض المشرق إلى أرض المغرب، ونزلنا برقة، سألنا الله تعالى ببركته أن يجعلنا في جواره لما تقرر عندنا أن زروقاً له اليد العليا في أرض المغرب بعد موته. قال: فلم نزل في أمن وسعة إلى أن حللنا مدينة فاس، وتوجهنا إلى أرض السودان. فلما توغلنا فيه أصابنا حر شديد، ولم يكن معنا من الماء شيء، فسألنا الله تعالى ببركته. فبينما نحن

في كرب وإذا بدابة عليها قرب ماء ومعها سائق حتى دنا منا، وقال: خذوا، لستم بجواري من برقة.

[٣٢٠] ـ وبمثل هذا حدثني عبد الله بن أبي بكر المصراتي البلالي، قال: خرجنا من أرض فزان ومعنا رفقة وأدخلت نفسي في جوار الشيخ، فبينما نحن ذات ليلة إذ حدثتني نفسي باعتزال الرفقة والمبيت عنها في جهة، ففعلت، فما فجأني آخر الليل إلا قطاع الطريق يوقعون برفقتي شراً، قال: ففررت بلا زاد ولا ماء ولا خبرة لي بالطريق. وكانت تلك الأرض قفرة لا يهتدي لطرقها إلا خبير ماهر، وقال: وبقيت ليلي وأنا أسمع قائلاً يقول عن يمينك، فإذا أوغلت في اليمين، قال عن شمالك حتى أصبحت، فرأيت رجلاً قصيراً يمضي أمامي، فإذا هممت أن أدنو منه بعدعني، فإذا أخذت لغير القصد صاح بي إلى جهة القصد، إلى أن أدخلني ودّان يوم ثالث الوقعة، ولم أحسن بألم تعب ولا عطش. وكان زمن قيظ.

وبالجملة فكراماته بعد موته أكثر من أن تحصى، ولو تتبعنا ذلك لجمعنا فيه مجلداً ضخماً وفيما ذكرناه كفاية.

توفي رحمه الله تعالى سنة (٨٩٩ هـ) تسع وتسعين وثمانمائة. ودفن في مصراتة، وكان استوطنها وانخرط في سلك أهلها، وكان استقراره بجهة تكيران منها. وتزوج من أهلها من أولاد الشيخ: الجعافرة، وولد له منها، وبقوا بعد موته، ثم لحقوا به عن قرب، وليس له بها نسل، ومقامه مشهور. وتولى خدمته وأوقافه قوم من أهل سرت كانوا في سالف الزمن لهم تشبه بالصالحين. ونشأ من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات.

[٣٢١] ـ وكان محل الشيخ معلوماً لقراءة القرآن العظيم يأوى إليه المتعلمون.

فلما غلب أولئك الخلف على الأوقاف والفتوحات وتجاذبوها بينهم، انقطع منه الطالب والمطلوب، إلى أن وفق الله سبحانه وتعالى أمير المؤمنين أحمد بن يوسف لرد النظر إليه، فرفع أيدي مقتسمي الوقف عنه، وولاه الفقيه الخير الصالح سيدي أحمد بن عمر وأخاه سيدي دخيلاً سنة (١١٤٤ هـ) أربع وأربعين ومائة ألف. فعاد المحل لشبه حالته الأولى، ورد محصول الوقف لبيته، وتتابع الطلاب والواردون وفق الله الأمير لمثل هذا.

ـ الشيخ محمد بن سعيد الهبري

[٣٢٢] ـ وممن أقام بها وهو ليس من أهلها أبو عبد الله الشيخ محمد بن سعيد ابن عبد الحق الهبري المستغانمي.

ومستغانم: بلد من الجزائر يقرب من وهران.

وأما كون علمائها عاملين بعلمهم فأمر غير خفي على من وقف على تاريخهم، أو شهد حالهم، فقد كان بها الفقيه أبو الحسن بن المنمر، وأبوالحسن علي بن أحمد ابن الخطيب، وشيخنا العارف بالله تعالى سيدي أحمد زروق، وقد تقدم ذكرهم.

ـ الإمام الحافظ الشيخ إبراهيم بن إسماعيل الأجدابي

[٣٢٣] ـ وكان بها الإمام الحافظ الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله الأجدابي اللواتي الطرابلسي، كان من أعلم أهل زمانه بجميع العلوم: كلاماً، وفقهاً، ونحواً، ولغة، وعروضاً، ونظماً ونثراً. وله تآليف جليلة وأسئلة مفيدة في الفقه وغيره.

فمن تواليفه: كتاب كفاية المتحفظ، وكتابان في العروض صغير وكبير، وكتاب الرد على أبي حفص في تثقيف اللسان، وشرح ما آخره ياء من الأسماء، وبيان اعتلال هذه الياء. استوفى فيه جميع أحكامها على اختلاف أحوالها من تصغير وتكبير وغير ذلك.

ولما استوفى فيه ذلك استيفاء جلياً تعرض فيه لشرح مقاطع الياء الواقعة في سورة مريم لإشتمالها على كثير من تلك الأحكام، فجاء هذا التأليف في غاية الإفادة والتحقيق. وله كتاب مختصر في علم الأنساب. وآخر مختصر في الأنواء على مذهب العرب، ورسالة الحوَل تعرب عن أدب كثير وحفظ غزير.

وكان سبب تأليفها أنه حضر يوماً عند قاضي البلد أبي محمد عبد الله بن إبراهيم ابن هانش الطرابلسي فحكم بحكم أخطأ فيه، فرد عليه الفقيه، فزجره وقال اسكت يا أحول، فما استدعيت ولا استفتيت، فألف تلك الرسالة. واختصر كتاب نسب قريش

لأبي عبد الله بن الزبير بن أبي بكر بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام رحمه الله تعالى.

[٣٢٤] ـ قال التجاني: وحسبك بهذا التأليف علماً وفائدة. وقد مدح هذا الكتاب الشيخ أبو الحسن بن مغيث بقوله: هو كتاب عجب لا كتاب نسب، وقد أدخل أبو إسحاق فيه من حفظه زوائد تشتمل على فوائد نبه عليها، ولم تكن له رحلة عن طرابلس إلى غيرها؛ وقد سئل: أنى لك هذا العلم ولم ترتحل؟

فقال اكتسبته من بابي هوارة وزناتة، وهما بابان من أبواب البلد: الأول من شرقيها والثاني من غربيها، نسبا إلى من نزل بهما في سالف الزمن [من قبيلتي زناتة وهوارة]، وهذا منه إشارة إلى أن ما استفاده من العلوم، إنما كان بلقاء الوافد عليها من الغرب أو الشرق.

وكان له رضي الله تعالى عنه اعتناء بلقاء الوفود وإكرامهم، ولم أقف على تاريخ وفاته.

ـ الإمام الحافظ الشيخ عبد العزيز أبو فارس

[٣٢٥] ـ وممن كان بها من العلماء الحفاظ، وهو من أهلها: الإمام أبو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم بن عبد السلام بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبيدة. كان فقيهاً حافظاً حاز من العلوم الأصولية والفروعية الغاية وأتقنها. وهو سبئي النسب، ومولده بطرابلس سنة (٦٣٦ هـ) ست وثلاثين وستمائة، وتفقه بالقاضي أبي موسى بن عمران الطرابلس، وارتحل إلى الحج سنة ثلاث وسبعمائة.

ـ الأستاذ أبو موسى بن عمران الهواري

[٣٢٦] ـ وكان شيخه أبو موسى الهواري المتقدم الذكر، فقيهاً عالماً، تولى القضاء بطرابلس نيفاً وثلاثين سنة، واستن فيه بسنة أهل الفضل والعدل.

وكان رضي الله عنه ذا أخلاق جميلة وسيرة حميدة، مشتهراً بالعدل، ولذلك أرسل له الخليفة الحفصي سنة (٧٥٨ هـ) ثمان وخمسين وسبعمائة، فوصله بتونس،

فولاه القضاء بها، وأقام نيفاً وعشرين شهراً، ثم توفي رحمه الله تعالى سنة (٧٦٠ هـ) ستين وسبعمائة.

ـ الأستاذ الشيخ أبو محمد بن أبي الدنيا

[٣٢٧] ـ ومن أشياخه أبو محمد بن أبي الدنيا المتقدم الذكر، كانت له رحلة من طرابلس إلى المشرق في طلب العلم، فقضى فريضة الحج، وأدرك الريغي والصفراوي وأخذ عنهما، وارتحل إلى تونس في مدة الأمير أبي زكريا بن أبي حفص، فأقام بها زمناً، ثم عاد إلى بلده طرابلس، واستدعاه الأمير كما ذكرنا، فولاه قضاء الجماعة والأنكحة والخطابة بالجامع الأعظم. وله تصانيف كثيرة منها: العقيدة الدينية وشرحها، وجلاء الإلتباس في الرد على نفاة القياس، وكتاب «مذكر الفؤاد في الحض على الجهاد».

[٣٢٨] ـ وكان رحمه الله تعالى أديباً شاعراً، ومن شعره قوله:

طـرق السـلامـة والفـلاح قنـاعـة . ولـزوم بيت بـالتـوحـش مـونـس
يكفيـه أنسـاً أن يكـون أنيسَـه آيُ الكتـاب ونـوره فـي الحنـدس
وإذا رأت عينـاه إنسـانـاً أتـى فلينْفـرنَّ نفـور ظبـي الكُنـس
ولقلمـا ينفـك صـاحـب مقـول مـن عثـرة أو زلـة فـي المجلـس
تحصـى وتكتـب والجهـول مغفـل حتـى يـراهـا فـي مقـام المفلـس

وأظهر له الخليفة المستنصر الحفصي تغيراً في بعض الأوقات، فكتب إليه يستعطفه بهذه الأبيات:

أمـولاي لا زلتـم تنيلـون عبـدكـم ضروباً من النعماء جلت عن المثل
ولـم يبـق إلا العفـو وهـو أجـل مـا يُنـال فـأكمـل لـي بـه منحـةَ الفضـل
فمـا العيشُ في الـدنيـا بغيـر رضـاكـم بصـافٍ ولا طعـمُ الحيـاة بمحْلَـوْل
وقـد كـدر الإعـراضُ صفـو معيشتـي فـأنكـرتُ أحـوالـي وأنكـرنـي أهلـي
ولـي أمـل يقضـي بغفـران زلتـي وبالعفو عن جرمي وبالصفح عن مثلي
بقيـت تـزيـد الملـكَ عـزاً ورفعـة وتُحيي رسوم الفضل والدين والعدل
فـلا يُخطئَنّـي منـك عفـوٌ ورحمـة فـإنهمـا مـا أخطيـا أحـداً قبلـي

وصلـــى إلــهُ العـــرش بـــدءاً وعـــودة على المصطفى مِن خلقِهِ خاتِمِ الرسل

وتوفي بتونس رحمه الله تعالى يوم الجمعة لثمان بقين من ربيع الأول من سنة أربع وثمانين وستمائة.

ـ الشيخ أبو الحسن الهواري

[٣٢٩] ـ وممن كان بها من العلماء الفقيه أبو الحسن بن موسى بن عمران الهواري الطرابلسي أحد أرباب الرتب، الجامعين بين رياسة الفقه والأدب.

ولد بطرابلس سنة ست وستمائة وقرأ بها يسيراً، ثم توجه مع أخيه القاضي أبي موسى المتقدم الذكر إلى المهدية للقراءة على أبي موسى زكريا البوني فلزماه مدة، ثم عاد أبو موسى إلى طرابلس ولزم البوني أبو الحسن وتفقه عليه، واختص به اختصاصاً كبيراً. فلما كانت فتنة أبي حمراء بالمهدية، وبعث الشيخ أبو علي بن أبي موسى بن أبي حفص والي المهدية إذ ذاك بالتحديد من أبي زكريا البوني وأبي حمراء وتوجه الأمر من الخليفة له بقتل أبي حمراء وإزعاج البوني إلى الحضرة، فقتل أبا حمراء وحمل البوني على حمار ومعه خواص أصحابه، فذكر من رأى ذلك: أن البوني تمثل عند إشرافه على الحضرة بقوله:

هكـــذا فـــي البـــر يفعـــل بـــي كيـــف لـــو زلـــت بـــيَ القـــدم

وكان ممن وصل معه أبو الحسن بن عمران الطرابلسي، ثم أدركت الأمير شفقة على البوني فأعاده إلى وطنه، وأقام ابن عمران بالحضرة.

وكان فقيهاً مفوّهاً لسناً خطيباً، غير أنه كان في لسانه فضول كثير، كثر امتحانه به والتعرض له بسببه. وتوفي في دولة الخليفة المستنصر رحمه الله تعالى.

[٣٣٠] ـ وكان أديباً عاقلاً، وله شعر كثير، حدث عنه أبو يعقوب يوسف بن أبي موسى ابن أخيه، قال: كنا جلوساً بين يديه، فأنشد بعض من حضر بيتين لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي وهما:

مضـــى زمـــنُ المكـــارم والكـــرام سقـــاه الله مـــن صـــوب الغمـــام

وكـــان البـــرُّ فعـــلاً دون قـــول   فصـــار البِـــرّ نطقـــاً بـــالكـــلام

قال فأنشدنا رحمه الله تعالى لنفسه متمماً عليهما بقوله:

وزال النطـــق حتـــى لســـتَ تلقـــى   فتـــىً يسخـــو بمـــرجـــوع الســـلام
وزال الأمـــرُ حتـــى ليـــس إلا   سخـــي بـــالأذى أو بـــالمـــلام

وكان الخليفة تغير عليه مرة، فثقفه بدار الأشراف.

وكان ممن ثقف معه أبو عبد الله محمد بن يحيى الفضيلي، فحصل بينهما اتصال وود، فاتفق أن سرح ابن عمران قبل الفضيلي؛ فهنأه الفضيلي بذلك فأنشأ ابن عمران مرتجلاً:

لئن سرني فكُّ الأسارى من الحبس   فقد ساءني فقدي لما فيه من أنسي
ولـــو أننـــي خُيِّـــرت فيمـــا أريـــده   لآثـرت تقـديمي سـراحـك عـن نفسـي

[٣٣١] ـ وفي مدة لزومه بيته للجفوة التي كانت له من الخليفة قدم صديق له من السفر ممن تلزمه زيارته فكتب إليه:

كتبـتُ ولـولا الحكـم كنـت إليكـم   مـن الشـوق فـي متـن الـريـاح أطير
وإنـــي أسيـــر أن أسيـــر مسلمـــاً   عليكـم علـى وجهـي وذاك يَسير
وما في صحيح العتب من خالص الوفا   فسيـــان فيـــه غيبـــةٌ وحضـــور

[٣٣٢] ـ وله رحمه الله تعالى في معافاة الخليفة من مرض كان به:

الله أنعـــم بعـــد البـــؤس بـــالفـــرج   يـا أزمـة الـدهـر عنـد الشـدة انفـرجي
[شكـر الخـلائـق لا يكفـي لأيسـر مـا   كفـى وسكَّـن مـن رهـج ومـن هـرج
يبقـى الأنـامُ بـإبقـاء الإمـام وكـم   بصـونـه صـانَ مـن مـال ومـن مُهـج]

وله رحمه الله تعالى في مداعبة أبي المجد الصوفي لولوغه بنكاح العجائز:

أبـا المجـد كـم تُغـرَى بحـب العجـائـز   وذلـك فـي شـرع النُّهـى غيـر جـائـز
كلِفـت بـأطـلال محـا الـدهـر رسمَهـا   فـأصبحـت تبغـي الفـوز بيـن المفـاوز

[٣٣٣] ـ وله أيضاً رحمه الله تعالى:

آهـاً نُـردد لـو تَشفـى لنـا كُـرَبـا   وبـالتّعـلات نَحيي لـو قضـت أربـا

وبـالأمــانــي يَنــال القلــبُ بغيتــه ... وقـد تحقـق مـن معتـادهـا كـذبـا
يـرتـاح إن لاح بـرق مـن جهـامتهـا ... ومـا تـراءى لـه إلاّ وقـد ذهبـا
يسَـرُّ إن مُـدّ يـومـاً حبـل منيتـه ... ومـا تطـاول إلا جُـذّ وانقضبـا
إن عـز مـا يبتغيـه فهـو فـي دهـش ... ويختشـي الفقـر إن مـا يبتغـي قَـرُبـا
وارحمتــاه لقلــبٍ كــم أُجشمــه ... أمـراً يـذيـب مـن الأصـلاد مـا صلُبـا
وكـم يعـانـي ملمَّـات بـأيسـرهـا ... يهـوِّن الأمـر مـن دنيـاه مـا صعُبـا
وكـم يُلجلـج فـي أفكـاره لُجَجـاً ... سـوداً تـؤجـج فـي أحشـائهـا لهبـا
وكـم تهـب سمـوم مـن تنفسـه ... لـو استمـرت لمـا هبـت نسيـمُ صبَـا
أستغفـر الله لا أشكـو الـزمـان ولا ... أبـدي إذا طـرقـت أحـداثـه رهبـا
ولا أئـنُّ لحـظ منـه أعْـوزنـي ... ولا أُسـرُّ إذا مـاءُ المنـى انسكبـا
[أنَّـى يُسـرُّ لبيـب إن رأى حُلُمـا ... وكيـف يطـرَبُ مَـن خَمـر الفنـا شرِبـا]

ـ الشيخ عبد الوهاب القيسي

[٣٣٤] ـ ومن الأويسيين بالمدينة المذكورة الشيخ عبد الوهاب القيسي، رأى النبي ﷺ نحواً من أربعمائة مرة.

وكان يشاور النبي ﷺ في أكثر أموره.

مات في حدود المائتين، وقبره الآن بها مشهور. ولم يعلم قبر أحد ممن ذكرنا، ولم يبق موضع سواه هو والشيخ الشعاب. وموجب ذلك استيلاء العدو عليها وطول إقامته بها.

ـ الأستاذ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الإمام

[٣٣٥] ـ وممن استوطنها من العلماء الأغراب بعد فتحها الأخير، الإمام العالم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الإمام، استوطنها ونال بها خيراً إلى أن توفي سنة. . . .

كان رحمه الله فقيهاً حافظاً منقطعاً إلى الله سبحانه وتعالى، ولم يشتغل قلبه من الدنيا بشيء، ولم يتخذ ولداً ولا أهلاً. وكان رحمه الله أكثر اشتغاله بالمطالعة والذكر. وشرح الشيخ خليل شرحاً حافلاً، وقفتُ على قطعة منه أجاد فيها، وذكر لي

الأخ سيدي محمد بن مصطفى الماعزي أنه لم يكمله.

ـ الشيخ أبو العباس أحمد بن ثابت

[٣٣٦] ـ والفقيه الصالح الزاهد العالم أبو العباس أحمد بن ثابت، تولى بها مسجداً ما بين البئر الشامية والحمام الأكبر، وبه كان يقرأ الدرس، وتفقه به جماعة من أهل البلد، منهم الفقيه المفتي أبو عبد الله محمد بن محمد بن مقيل. وله رحلة من بلده إلى الأزهر ثم إلى الحج، ثم آب منه واستوطن طرابلس، ولم يزل بها إلى تاريخ هذا. وقد طعن في السن وانقطع عن التدريس.

ـ الشيخ أبو العباس أحمد النصري

[٣٣٧] ـ وممن استوطنها من الأفاضل أبو العباس أحمد النصري، كان فقيهاً فاضلاً خيراً، تصدى للتدريس إلى أن توفي بها سنة تسع وتسعين وألف.

ـ الشيخ أبو العباس أحمد القروي

[٣٣٨] ـ والفقيه أبو العباس أحمد القروي، كان فقيهاً عالماً أديباً، توفي سنة (١١١٣ هـ) ثلاث عشرة ومائة وألف.

ـ الأستاذ أبو محمد عبد الله بن يحيى السوسي

[٣٣٩] ـ والفقيه العالم العلامة الدرّاك الفهامة، الجامع بين المنقول والمعقول، شيخنا أبو محمد عبد الله بن يحيى ين عبد العزيز السوسي الحيحي الصقالي الإدريسي، نشأ بحاحا بالصقال منها، وارتحل عنها لمراكش، وحضر بها مجلس الفقيه أحمد العطار في الفقه، ومجلس الفقيه أحمد بن إبراهيم السوسي، وقرأ في أحكام القرآن وبعض رواياته على الأستاذ سيدي أحمد أكزُّ: بهمزة بعدها كاف وزاي مضمومة مشددة ـ نسبة لقبيلة من قبائل حاحا، وانتقل منها إلى السوس، ولقي بها الأفاضل، وانتقل منها لدرعة، واجتمع بالشيخ العارف بالله تعالى العالم الرباني

سيدي أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، والفقيه العالم سيدي أحمد الهشتوكي، والعالم العارف سيدي عبد الكريم التدغي ـ نسبة إلى تدغة إحدى قبائل السوس ـ وعدة أفاضل وأخذ عنهم، وانتقل منها لتفلالت ولقي بها الفقيه العارف بالله حمزة بن عبد الله بن سالم العياشي صاحب الرحلة، وأخذ عنه النحو والتصريف، وسمع منه صحيح البخاري، وانتقل منها إلى تلمسان ولقي بها المشايخ وأخذ عنهم الفقه: رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وعقائد العارف بالله تعالى سيدي محمد السنوسي، وانتقل منها إلى الجامع الأزهر سنة (١١٠٦ هـ) ست ومائة وألف. ولقي به الشيخ الفاضل العالم أبا عبد الله محمد النشرتي، والشيخ أحمد ابن الفقيه الشافعي، وشيخنا الشيخ عبد الرؤوف البشبيشي الشافعي، والشيخ أحمد البقري، والشيخ المختار التلمساني، والشيخ الأطفيحي، والشيخ حسن الشرنبلالي الحنفي، وتفقه بهم في النحو والتصريف. وأخذ عنهم الفقه والتفسير والكتب الستة، وتفقه به جماعة. ولم يزل إلى تاريخ هذا متصدراً للإقراء، أخذت عنه قطعة من البيضاوي، ومسائل من العضد على مختصر ابن الحاجب. أبقاه الله تعالى للنفع آمين.

ـ الأستاذ الشيخ أحمد المكنى

[٣٤٠] ـ وممن تفقه بها وولد بها الشيخ الفقيه الصالح سيدي أحمد المكّنى.

كان رحمه الله تعالى صالحاً مجاب الدعوة، محترماً موقراً مهاباً، تولى الإفتاء بها وسلك فيه سنن أهل العدل. كان متجافياً عن الظَّلَمة وأعوانهم، لا تأخذه في الحق لومة لائم. ولا يبالي إذا رأى عظيم منكر بتغييره، ولا يتوقف فيه على مراجعة أولي الأمر، وإذا بلغهم ذلك لم يسعهم إلا مُساعفةُ الشيخ.

ولد رحمه الله تعالى سنة (١٠٤٢ هـ) اثنتين وأربعين وألف. وتوفي رحمه الله تعالى سنة إحدى ومائة وألف.

ـ الأستاذ الشيخ محمد بن مقيل

[٣٤١] ـ وممن تفقه بها وولد بها الشيخ العالم الصالح سيدي محمد بن مقيل الكبير، تفقه بسيدي أحمد المكّنى وغيره من الوفود القادمين على البلد، وتولى

الإفتاء بها عند كبر سن الشيخ سيدي أحمد المكّنى، وصاهره الشيخ بابنته.

ولد رحمه الله سنة (١٠٥٤ هـ) أربع وخمسين وألف.

وتوفي ليلة الأحد لتسع خلون من جمادى الأولى سنة (١١٠١ هـ) إحدى ومائة وألف.

كان رحمه الله فقيهاً ديناً شاعراً مجيداً فيه، ومن شعره يخاطب سيدي محمد ابن الإمام رحمه الله تعالى لما وفد إلى طرابلس قوله:

لقد لاح في أفق الذَّكاء ذُكاء ... به انجاب عن وجه العَويص غطاء
وما هو إلا الأوحد الجِهبِذ الذي ... عليه بمضمار الفحول لِواء
إمامٌ هُمامٌ قد علا منبر العلا ... فأُفحِم من تبيانه البلغاء
رئيس له سلطان كل رياسة ... إذا ما تراءى قهقر العلماء
هو البارع البحر العُباب محمد ... إمام له بابن الإمام جلاء
إليه مقاليد البراعة سلمت ... فحق لها فخر به وعلاء
لطائفُه جَلت فكم من أفاضل ... أماثل أعيان لها خطباء
ومنها شموس كالغزالة مُسبَلٌ ... عليها حجابُ العز وهي ضياء
وتؤنس في دار الدجا ووصالُها ... ووصلُ الملاح الغانيات سواء
إذا لمحت تضني بلدغة لحظها ... وفي شهدها للذائقين شفاء
فهذا كتاب كاشف السر كاسمها ... لتقصيره والعجز فيه وفاء
فلا زلت يا بحر الفوائد لافظاً ... نفائس منها تنفق الأدباء

ـ الأستاذ الشيخ أحمد بن عيسى الغرياني

[٣٤٢] ـ وممن ولد بها وتفقه العالم الخير الديّن سيدي أحمد بن عيسى الغرياني.

وكان رحمه الله تعالى شديداً في الحق.

حكى أنه لما وقف عثمان باشا أملاكه على بنيه، أحضر العلماء وسألهم عن صحة الوقف، فأفتوه بالصحة، فأمرهم بالنزول فنزلوا، فلما حضر الفقيه المذكور

أمره بالنزول والموافقة فأبى عليه، فسأله عن حكمه فأفتاه بالبطلان. والحق ما قال. فقد صرح شهاب الدين القرافي رحمه الله تعالى في فروقه ببطلان ذلك، ولحقه الأذى من عدم مخالفته النصوص مراراً، وسجن على ذلك، ولم يتوصلوا إليه بشيء، فجزاه الله عن دينه خيراً.

ولد رحمه الله تعالى سنة أربع عشرة وألف. وتوفي رحمه الله تعالى ضحوة الأثنين لعشر خلون من شعبان سنة (١١٠٨ هـ) ثمان ومائة وألف.

ـ الأستاذ الشيخ محمد بن مساهل

[٣٤٣] ـ وممن ولد بها وكان من الأخيار وتولى الإفتاء بها، وسار فيه رحمه الله تعالى سير العلماء العاملين، الفقيه العالم الصالح سيدي محمد بن مساهل.

توفي ليلة الجمعة فاتحة رمضان سنة (١٠٧٧ هـ) سبع وسبعين وألف.

وكان رحمه الله فاضلاً، له تعلق زائد بالوفود القادمة على البلد للقاء أهل الخير، وانتفع به جماعة.

وتفقه به سيدي أحمد المكّنى وغيره، وأخذ عنه سيدي عبد الله بن سالم العيّاشي صاحب الرحلة، وكانت له رحلة مع سيدي محمد الصيد.

حكي عنه أنه مكث أربعين سنة يصلي الجمعة بمسجده. وله رحمه الله تعالى قدم صدق مع الله سبحانه وتعالى، وكانت توليته الإفتاء أواخر المحرم سنة (١٠٣٧ هـ) سبع وثلاثين وألف.

ـ الأستاذ الشيخ عبد الله بن أحمد بن غلبون

[٣٤٤] ـ وممن ولد بها في عملها وهو من أهلها، الفقيه الصالح الشيخ سيدي عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمن بن غلبون. نشأ بمصراتة، وأخذ عن سيدي الشيخ أحمد المكنى وسيدي محمد بن مساهل، وارتحل لجربة، وأخذ عن الفقيه الفاضل الشيخ سيدي إبراهيم الجمني رحمه الله، وارتحل عنها إلى مصر، وأخذ عن العارف بالله تعالى أبي عبد الله الشيخ سيدي محمد الخرشي، وعن الشيخ العالم الشيخ

عبد الباقي الزرقاني رحمهما الله تعالى وجماعة. كان رحمه الله تعالى كريماً حليماً، يتقي مايشين عرضه.

[٣٤٥] - حُكي أنه كان رحمه الله تعالى بدرنة، ووجد عليه فقهاؤها من إقبال الأمير محمد بن محمود باي عليه، فأجمع أمرهم على أن يغضبوه بإغرامه شيئاً من الدنيا، فدبروا لذلك حيلة بأن بعثوا لامرأة من بنات الخطأ بالبلد، وأمروها أن تأتيه وهو بالديوان وتناديه وتدّعي عليه بخمسين أصلانياً أمانة وضعتها عنده ووصفوه لها، ففعلت. فلما أتته علم من ذكائه رحمه الله تعالى أنها خديعة قصدوه بها، فبادر بالإقرار لها بذلك، واستلف ذلك ودفعه لها ولم يغضبه ذلك، وعفا رحمه الله تعالى عن فاعل ذلك، عند إرادة الأمير محمد باي الانتقام منه. توفي في صفر سنة (١١١٥ هـ) خمس عشرة ومائة وألف.

- الشيخ عبد السلام بن عثمان التاجوري

[٣٤٦] - وممن كان بها من العلماء من أهلها الشيخ عبد السلام بن عثمان، نشأ بتاجورة وتفقه بسيدي محمد بن مقيل وغيره من أهل البلد، ولم تكن له رحلة عنها.

وألف كتاباً في الفتاوى سماه «التذييل» زعم أنه ذيل به المعيار، وجمع فيه من الغثّ والسَّمين شيئاً لم يسبق به. وكتاباً سماه «فتح العليم في مناقب الشيخ عبد السلام بن سليم»، تعرض فيه لما في البلد من صالحين، واعتمد في وفاتهم وخصائصهم على أخبار عوام المتفقّرة، وله حيل في المعاملات تدل على عدم اتقائه.

كان يميل إلى نصرة الطائفة المتفقرة المبتدعة، ويحتج لبدعهم بما لا يشك في بطلانه من له أدنى مسكة من عقل، وإياه اعتمدت الفرقة المتفقرة، حتى أنهم إن احتج عليهم بحديث أو آية عارضوا بالشيخ المذكور. وله كتابة على المختصر، زعم أنه اختصر بها شرح الشيخ عبد الباقي عليه.

توفي عفا الله عنه ليلة الثلاثاء لخمس خلون من شوال سنة (١١٣٩ هـ) تسع وثلاثين ومائة ألف.

[٣٤٧] ـ ونحا نحوه في الانتصار لمتفقرة الوقت تلميذه الشيخ محمد النعاس، وشديده على تلك الطريقة، وحث عوام الناس وضعفاء العقول عليها، وجعل لهم مرغبات من حكايات الصالحين، وفي طيها هلاكهم وهلاك الدين.

[٣٤٨] ـ وقد بلغه عني أني أنكر صنيعهم، وكنت قدمت على حضرة أمير المؤمنين لمصلحة عنّت، وأقمت بجواره مدة، وبلغه إقامتي، فأتاني بعض أصحابه وأخبرني بدعوة الشيخ لي، فوعدته بالمرور عليه إن أُبت إلى أهلي، فأتاني بعد وداع أمير المؤمنين واستحثني في الحضور عند الشيخ، فهيأت رواحلي وأمرتها بالتقدم أمامي والمرور على الشيخ، فإن رأوا منه بشاشة أقاموا إلى أن ألحق بهم، وإلا ظعنوا. فلما قربوا من منزله [رأوا منه عدم] البشاشة فظعنوا؛ وتخلفت بالمدينة لوداع من بها من الإخوان إلى أن بقي للغروب نحو الخمسة عشر درجة وسرت، فالتقينا بأخينا سيدي عبد الله الشعاب الصيد، فدعانا لطعام فلم تسعنا مخالفته، فتناولنا طعامه وصلينا المغرب وسرنا فمررنا بالمدرسة التاجورية التي بها الطلبة المشتغلون عليه، فوجدناه خلف لنا صاحبه محمد بن سالم وسول دعوتنا سابقاً ليأتي بنا إلى المحل، فأتيناه وأكرم مثوانا وأحسن نزلنا، ووافق ذلك ليلة جمعة وبها كان اجتماعهم، فأنزلنا بمحلهم الذي يجتمعون به. فلما صلينا العشاء دعانا لبيته وقرب لنا طعاماً، ثم خرجنا منه لنعود إلى محلنا، فأمر بسراج لنا في محل آخر فدخلناه فوجدناه غير فسيح الساحة، وغاب عنا الشيخ مدة لترتيب المتفقرة، فرتبهم وقدم.

فلما مكث واستقر به المجلس سأل عن الحال وبالغ في التلطف بنا. ثم استفهمني: هل ما بلغنا عنك من التعرض لمتفقرتنا حق؟

فأجبته: هو كما بلغك عني. وقلت: إنك تعلم محبتي لكم واعتقادي فيكم الخير. وأنت تعلم أن الدين النصيحة، وأنا الليلة ضيفكم وبجواركم، فحق عليكم نصحي بأن تبينوا لي الأمور ومستندكم في ذلك بحجة واضحة وعليَّ قبولها، أو تقبلوا بياني وحجتي فتعذروني فيما أتكلم به. فكان من جوابه: إن هذه طريقة الشيخ سيدي عبد السلام، فأجبته أن ليس ذلك طريقته، وحاشاه أن يفعل ذلك، وعلى تقدير فعله ذلك لا يقتدى به في ذلك، إذ هو رجل مجذوب ذو أحوال لا يتعرض له في خاصة نفسه، ولا يسلم فعله لمقتد به. فأضرب عن ذلك وأخذ في الجدل، فقال: وما تنكر منا؟

فقلت: اجتماعكم للذكر ليلة الجمعة والاثنين بخصوصهما، فقال: هذه ليال فاضلة ورد النص بتفضيلها، فقلت نعم، وهل ورد نص في تخصيصها بشيء من العبادات؟.

فقال لم أقف على شيء. فقلت: أجمعت الأمة على أنه لا يجوز لأحد أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه. فسكت، فقلت: أتعتقدون أن صنيعكم هذا دين! فأجاب: لولا الدين ما فعلناه. فقلت: بم يثبت الدين؟ فقال بالتواتر. فقلت سلمنا أن الشيخ المستندين إليه يسلم له ويقتدى به، فمن أثبت لكم هذا عنه؟ ومن روى هذه الطريقة عنه؟ فلا بد أن تكون رواية الدين بالعدول، فقال: رواها شيخنا الشيخ سيدي علي الفرجاني. فأجبته: هو أصل هذا الأمر ومؤسس قواعده وداعي الخلق إليه، فامتقع لونه. فلما رأيت ذلك منه سألته: هل يقبل قوله فيه أو شهادته؟ فأجاب: لا يقبل فيه. فانتقل إلى الشيخ أبي راوي، فأجبته وألزمته بمثل الأول، فأفتى فيه كالأول. ثم اهتدى إلى الشيخ عبد السلام بن عثمان بعد مدة واحتج بروايته. فقلت: هو منسوب للعلم ومشتهر بالعدالة، ففرح بذلك. فسألته: هل يفعل ذلك؟ فأجاب: لا يفعل ذلك. فقلت: وهل هو راضٍ به؟ فأجاب: نعم، فقلت: ما حكم الله في شهادته فيه؟ فقال: لا تقبل، فقلت: حينئذٍ يجب عليكم الإقلاع، فأضرب عن كلامنا. وأخذ يسأل عن المنكر من طريقهم، فقلت: أخذكم مالاً ممن غاب عن جمعكم ليلة الاثنين والجمعة كرهاً ممن انتسب إليكم وتسمونه حقاً، وأخذكم ممن فعل معصية مالاً سوى ما شرع الله فيه. فقال: مستندنا في ذلك جواز التأديب بالمال. فقلت: أنتم مالكيو المذهب، ومذهب مالك خلاف ذلك. فقال نعم، ولكن له وجه في الجملة.

فقلت: إن جوّز ذلك القائل به إنما جوز ذلك للإمام، بشرط أن يضعه في بيت مال المسلمين إلى أن يتوب فيرجعه إليه.

فقال: وأين الإمام؟ فقلت مذهب مالك يقول بإطاعته بعد انعقاد البيعة ولو فاسقاً، فسكت، فكان آخرُ كلامه لي: هذه طريقة مشايخي لا يسعني تركها كائنة ما كانت: فمن يومئذٍ زال ما كان عندي من إنصافه واتباعه الحق. هدانا الله وإياه إلى الصراط المستقيم. آمين.

ـ الأستاذ الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الصادق

[٣٤٩] ـ وممن كان بها من العلماء من عملها، الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الصادق بن أحمد بن عبد الصادق بن محمد بن عبد الله العيّادي، نسبة للعيايدة، قبيلة من بني سليم.

كان أولهم استوطن الحضَراء من أرض فزان، ثم انتقل إلى ساحل طرابلس واستوطنه، ونشأ منه خلق كثير، وكانت له همة وسطوة، ولقب بعض أولاده بالجبالية.

وسبب ذلك أن عبد الله الجد المنسوب إليه، كانت له أخوّة ومحبة في الشيخ العارف بالله تعالى سيدي زروق، فأتاه الشيخ المذكور زائراً، وكانت له زوجة تعطل، فاشتكى إلى الشيخ فكاشفه الشيخ بأنها تلد جبلاً. فولدت ولداً وسماه محمداً، ولقبه الناس بلقب الشيخ له تبركاً. ويقال لذريته أولاد الجبل والجبالي ومنهم اكتسب الوصف أولاد أحمد بن حمودة لأنهم أخوالهم حتى غلب الوصف الآن عليهم.

كان رحمه الله تعالى فقيهاً صالحاً ديناً يكره الابتداع في الدين، له تواليف عديدة في علم الكلام والفقه وكلام القوم، شرح الصغرى للشيخ سيدي محمد السنوسي ومنظومة الشيخ عبد الواحد بن عاشر. واختصر رسالة ابن أبي زيد وشرحه. وله منظومة في عيوب النفس وشَرحَها شرحين، كبيراً وصغيراً. وله تواليف في أسباب الغنى. وشرح منظومة الشيخ عبد الغني بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن عبد الله بن محمد بن الوليدي الفاسي، في ما يجب على المكلف مرة في العمر عيناً، وفي ما يجب على الكفاية. وألف كتاباً في البدع سماه «تحفة الإخوان في الرد على فقراء الزمان». وشرح منظومة الشيخ أبي عبد الله محمد الصالح الأوجلي في التوحيد، وله عدة تواليف. ونظم أصول الطريقة المنسوبة للعارف بالله تعالى الشيخ زروق سماه «هداية العبيد إلى الطريق المبتغى الحميد» وشَرحَه.

وكان رحمه الله تعالى يميل لجمع المسائل دون تحرير، فكلمته في ذلك فقال: قصدي حفظ الدين ونقل أقاويل العلماء، فالله تعالى يتقبل عمله ويحسن ثوابه.

توفي رحمه الله تعالى لثمان بقين من ربيع الأول يوم الاثنين بعد الظهر سنة

(١١٣٨ هـ) ثمان وثلاثين ومائة وألف. تغمده الله تعالى برحمته.

ـ الأستاذ الشيخ أحمد بن حسين بن سيد الناس [المعروف بالبهلول]

[٣٥٠] ـ وممن ولد بها وهو من أهلها، الشيخ الفقيه العالم العلامة، النحرير الأديب النحوي اللغوي، سيدي أحمد بن حسين بن أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن قائد بن أحمد بن علي بن علي بن سيد الناس. كان بيته بيت علم. ارتحل إلى مصر ولقي بها الشيخ أحمد البشبيشي الكبير، والشيخ سيدي محمد الخرشي والشيخ عبد الباقي الزرقاني، والشيخ حسن الشرنبلالي وعدة أفاضل رحمهم الله تعالى. وتفقه بهم في كل العلوم، وأخذ عنهم الحديث، والتفسير، والكلام، واللغة، والأصول، والنحو، والتصريف، والقراءات، والحكمة.

وله رحمه الله تعالى القصائد المشهورة بالبلاغة. منها تخميسة العياضية في مدح خير البرية، فاق فيه الأصل وغيره، وله الرسائل المشهورة بالبلاغة والآداب السنية، كالمقامة الثورية وغيرها.

اختصر رحمه الله العِزّية نظماً رائقاً سالماً من الحشو، وله منظومة في العقائد سماها «درة العقائد» سبعين بيتاً، لم ير مثلها في سلامة النظم وعذوبة اللفظ. أعربت عن علم غزير. وله منظومة في مذهب أبي حنيفة سماها «المعينة». كان رحمه الله تعالى علامة عصره، فقيهاً في كل العلوم. ففي كل علم تكلم أعجز فحوله، لم يصحبه حظ، فقُدّم عليه من هو دونه للفتيا، وكان ينشد عنه رؤيته: يحسبه الجاهل البيت، وكان محسوداً على فضله.

[٣٥١] ـ وقد مدحه الأفاضل من أهل المشرق والمغرب بغرر القصائد. فمما مدح به قول القائل:

يا فاضلاً فضله بين الورى ظهرا ... وعاقلاً وهو البُهلول قد شهرا
ويا فقيهاً له في الفقه مرتبة ... أبدى بها سر ما أخفى من اختصرا
وعالماً بتقارير الشفاء شفى ... أمراضَ قلب الذي في درسه حضرا
وصح لما روى عنه مشافهة ... صحيح متن «البخاري» وارتوى دررا
لقد حباك إله العرش جل بما ... حباك مما به قد صرت مشتهرا

يـا ابـن الحسيـن جـزاك الله مكـرمـة ... أبـديـت فـي كـل علـم للـورى عبـرا
«عـزّيّـة الشـاذلـي» كـانـت منثـرة ... نظمتهـا فعلـت قـدراً علـى النظـرا
وفـي العقـائـد أبـديتـم لمشتغـل ... بعلمهـا «درةً» قـد فـاقـت الـدررا
كفـاك فـي مـذهـب النعمـان نظمكـم ... «معينـة» سـرهـا فـي السـالكيـن سـرى
وكـم مسـائـل قـد كـانـت مشتتـة ... جمعتهـا فغـدت كـالدر حيـن يـرى

****

يـا أيهـا العلـم الفـرد الـذي افتخـرت ... بـه طـرابلـس لمـا بهـا اشتهـرا
دامـت عليـك مـن المـولـى نعـائمـه ... ولا بـرحـت بسـر الله مستتـرا
ودمتـم قبلـة للقـاصـديـن ولا ... زالـت فضـائلُكـم فـي العـالميـن تـرى
بجـاه أحمـد خيـر العـالميـن ومـن ... علـى البـراق إلـى السبـع الطبـاق سـرى
عليـه والآل والأصحـاب قـاطبـة ... تحيـةٌ عَـرفُهـا قـد أخجـل الـزهـرا

ولو تتبعنا ما مدحه به الأفاضل من أهل المشرق والمغرب نظماً، لجمعنا من ذلك ديواناً. وفي هذا كفاية.

توفي رضي الله عنه ليلة السبت لليلتين خلتا من شهر رجب سنة (١١١٣ هـ) ثلاث عشرة ومائة وألف.

وأما كون أهلها يتركون التجارة وقت صلواتهم اشتغالا بها، فأمر أشهر من أن يذكر، ولم يزل منادي السلع ينادي عليها إلى أن يسمع الأذان فيضرب أمينهم حلقة الباب، فإذا سمعوا ضرْبها انفضُّوا إلى الصلاة وتركوا المتجر.

[٣٥٢] ـ قال الناظم:

بهـا ملـك أنـدى مـن السُّحـب راحـةً ... وأرأف بـالأغـراب مـن ولـداتهـا
لـه همـة تـدعـو لتـأييـد سنـة ... بحفـظ مبـانيهـا وجمـع رواتهـا

أقول: الملك الممدوح هو أمير المؤمنين أحمد بن يوسف بن محمود بن مصطفى القرمنلي، نسبة إلى القبيل المشهور بأرض الأناضول، بيته بيت عز ومجد مؤثل.

كان جده مصطفى كبير طائفة من الجند موقراً مهاباً. وأبوه يوسف نشأ عاملاً،

ولم يزل كذلك مهاباً موقراً بدار الملك مشهوراً بها، إلى أن توفاه الله تعالى وخلف أمير المؤمنين أحمد في رفاهية عيش وعلو همة، ولاه خليل باشا عمل أبيه على ساحل المنشية، وكان يكرمه ويراعيه، ولم يزل كذلك مهاباً موقراً إلى أن أراد الله تعالى نقل الملك من يد إبراهيم أَليل إلى محمد باي الملقب بابن الجن، فنظر أهل الديوان في البلد مع سابق الإرادة الأزلية، وكان ذلك لأربع عشرة خلون من شهر رمضان سنة (١١٢٢ هـ) اثنتين وعشرين ومائة وألف. فازداد أمره وعلا شأنه.

[٣٥٣] ـ ولما قتل محمود أبو أُمَّيس ابنَ الجن غدراً وتولى موضعه، وبايعه من بايعه على ضغينة، وتوسم في أمير المؤمنين أحمد صلاحية الملك دونه، فأراد الفتك به، فأرسله إلى غريان ليبطش به من فيها من الجند، فراسله أهل الديوان من رؤساء العسكر وعامة الجند وأهل البلد بالقدوم عليهم ليبايعوه، فقدم يوم الثلاثاء لإحدى عشرة خلون من جمادى سنة (١١٢٣ هـ) ثلاث وعشرين ومائة وألف، فدخل السوق وبايعه من به، ولم يختلف في بيعته من أهل البلدين المنشية والساحل وأهل الديوان والمدينة اثنان، لعلمهم بصلاحيته لما قلدوه من أمرهم دون غيره.

[٣٥٤] ـ وحاصر محموداً في المدينة يوماً، وراسله أهل المدينة بالبيعة، ومسكوا محموداً بواسطة حسونة الشريف، وأدخلوا أمير المؤمنين المدينة وبايعه الناس وتمت له البيعة، وقدمت عليه الوفود من أهل القرى والبوادي يبايعونه، وأعلن بنصرة الشريعة وأهلها. وعقد مجلساً لحضور العلماء بين يديه لفصل الخصام، وأمر عماله أن يفعلوا كذلك، ففعل البعض، وبالغ في تعظيم العلماء وإكرامهم وفرض لهم في العطاء؛ وزاد في إكرام أرباب البيوت القديمة، وحمد الناس سيرته.

ولما مضت على بيعته عشر ليال خلع علي يوسف باي وولاه «داياً» وأقامه بالقلعة، وخرج من المدينة وسكن بالمنشية. وكان ذلك في أواسط جمادى المذكور من السنة المذكورة.

[٣٥٥] ـ [وفي الحادي والعشرين من هذا الشهر] قدم خليل باشا في أسطول من قبل السلطان والياً، وأراد الدخول، فحضر العلماء والرؤساء من أهل الوطن بين يدي أمير المؤمنين، وأجمعوا على منعه من الدخول فامتنع، وأقلع إلى جهة الغرب في ثمانمائة مقاتل ونزل بزوارة «قرية من عمل طرابلس يسكنها أخلاط من العرب والبرابر» وأسكنوه وأنزلوه بها في ثمانمائة مقاتل، وبعث إلى الأعراب فقدم عليه ابن

نوير ومن تابعه على الفساد، وتقدمت السفن، فقدمت المدينة لست خلون من شهر رجب من سنة (١١٢٣ هـ)، ثلاث وعشرين ومائة وألف.

[٣٥٦] ـ وزحف خليل بمن انضم إليه من الأعراب حتى نزل زواغة، فجنَّد له أمير المؤمنين عسكره، ووافته خيله المرتزقة والمتطوعة والتقى الفريقان بزواغة، فانكشفت الحرب عن خذلان خليل، وقتل بزواغة «وهي مدينة قديمة المسماة بصبرة» يوم السبت لثلاث عشرة خلون من رجب سنة (١١٢٣ هـ) ثلاث وعشرين ومائة وألف، وانصرفت بعد أن أقامت على المدينة نحو الخمسة عشر يوماً، يراجعون الناس في قبول ولاية خليل، وعامة الناس وخاصتهم يأبون قبولها. وكانت إقامتها قبل إقلاعها به لناحية زوارة.

[٣٥٧] ـ ولما عادت بلا مَن أتت به توهم أمير المؤمنين إيقاع أهلها شراً بينه وبين صاحب القسطنطينية مولانا خليفة الله السلطان أحمد بن مصطفى بأخبارهم بخلاف ما عليه الناس، إذ مساعدته لخليل إنما كانت لما ادعاه خليل من محبة أهل الوطن له، وإنما أخرجه منه قوم بغاة خارجون عن الشرع والنظر الصحيح، فوجه وفداً كبيرهم أحمد بن عثمان، وصحبته هدايا جليلة لحضرة مولانا السلطان. ولما حضر لمخاطبة الحضرة العلية والرتبة السلطانية، والذات المولوية الخاقانية ودفع له كتاب الجند وأهل البلاد، وعرفه ما كان عليه خليل المذكور من الفساد، وأنه أضر بالرعايا كل الإضرار، وسام الأكابر والأصاغر الخسف والذل والإحتقار، وتحقق أن ما ذكره له من موافقة أهل البلاد له، ومظاهرتهم إياه شيء باطل، وأمر لم يحصل منه على طائل.

[٣٥٨] ـ وكانت عادة البلاد قديماً يأتيها على رأس كل سنة باشا من قبل السلطان، فقدم يوم الأحد لأربع بقين من جمادى الآخرة سنة (١١٢٤ هـ) أربع وعشرين ومائة وألف محمد رايس الملقب بـ «جانم خوجه» باشا من قبل السلطان أحمد، فأكرمه إجلالاً لهيبة مرسله، ووجهه إليه بعد انقضاء مدته معززاً مكرماً.

[وكان قدومه للخديعة، فأحسَّ منه ذلك أمير المؤمنين فجعل عليه رقيباً بعد أن أنزله في بيت معد لمن يأتي من قبل السلطان، وأكرم نزله، وبالغ في الإحسان إليه. فبعث طلائعه لبعض أهل البلد ليعينوه على كيده، فوافقه رعاع من أهل البلدة،

فأحس بهم أمير المؤمنين وفرقهم شغر بغر، وبالغ في الإحتراس منه إلى أن انقضت أيامه المقدرة لإقامته بالبلد].

[٣٥٩]- وفي سنة خمس وعشرين ومائة وألف أواسط شعبان تاق أهل تاجوراء للخلاف، واستدعوا له غوغاء من أهل ترهونة وبعض أولاد حميد بن جارية، وسَرَىٰ بهم طيف الخيال.

فلما بان له منهم ذلك جنّد مرتزقة وخيم في رياض سُكَّرة وأظهر أنه يريد غريان لوميض نار خلافها، وراسل عامل تاجوراء ليبعث إليه مائتي رام من رماتها بسلاحهم فأحضرهم، وشمخت بذلك نفوسهم وظنوا عجزه عن إقامة الملك بدونهم، وواعدهم وقتاً يلاقونه خارج بلدهم ففعلوا. فلما التقى بهم أمر بأخذ سلاحهم وإيثاقهم، وفرقهم في خيام الجند، وقدم البلد وخيم بقلعتها، وأغرمهم من المال ما أثقلهم أداؤه وارتحل عنها، وولى تغريمهم ذلك صاحبَ خيله أخاه لأمه الحاج شعبان بك بن يوسف. فلما كان التاسع والعشرون من الشهر المذكور من السنة المذكورة، أجمعوا أمرهم ومن وافقهم وهجموا على الحاج شعبان بك بالقلعة يريدون قتله، وكان معه طائفة من الجند، فامتنع منهم حتى تمكن من القلعة، وحاصروه بها ورموه بالحجارة وامتنعوا من الأداء.

وبلغ خبر فعلتهم تلك أمير المؤمنين بعد العشاء، فاستنفر المرتزقة وأهل البلدين الساحل والمنشية وصبحهم فلم يقووا على حرب ولا دفاع، وأباح أموالهم فنهبت ديارهم ومواشيهم ووثق منهم وقتل ﴿وإن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾ وأغرهم مالاً ثقيلاً، ووالى عليهم المغارم حتى بدد شملهم وتركهم عبرة لمن تاقت نفسه لما تاقت نفوسهم إليه.

[٣٦٠]- وفي السنة المذكورة في أواخرها خرج على البيعة ابن حسين الكول أوغلي ولحق بقرية مسلاتة، وبايعه من بها من الرعايا وغيرهم إلا آل بيت النبي ﷺ وأعانهم على فسادهم محمد بن منصور الترهوني الملقب بسوق الذيب ومن وافقه فاستنفر أمير المؤمنين جنده وتولى حربهم بنفسه فبدد شملهم وفرقهم وأحاط بهم، إلا من توغل في الجبال، وحرّق بيوت الرعايا الذين بايعوه، وأباح نهب أموالهم وأغرمهم ثم عفا عنهم وارتحل، ورجع مظفراً منصوراً، ثم خلع بيعته بأثر ذلك ابن عشرين، ووافقه على ذلك بعض أهل البيوت القديمة ولم يجعل الله لهم

أثراً، ثم بعد ذلك عفا عفو قادر على أهل البيوت وأقارب القائم وأحسن وبالغ في الإحسان للكل، جزاه الله تعالى خيراً.

[٣٦١] ـ ثم دخلت سنة (١١٢٧ هـ) سبع وعشرين ومائة وألف، فخلع فيها علي بن عبد الله بن عبد النبي الصنهاجي المكنى «أبو قيلة» بيعة أميرَ المؤمنين؛ وانضم إليه كل مفسد من الجبال وأودية الكمكوم ومن أراد الفساد من أهل السواحل وأخذ أموال الرعايا، ونهب مواشيهم وأكل الزروع، وأخذ أولاد خليفة وأولاد نصر، وسبى حريمهم، ودخل ببعض بناتهم كرهاً، وقتل نحو الستة عشر رجلاً من بني خليفة. وكان ذلك قبل سنة (١١٢٧ هـ) سبع وعشرين ومائة وألف، واشتد أمره على الرعايا، وكثر تابعوه حتى ظنَّ ضعفاء العقول أنه الفاطمي الموعود به. وارتحل بتابعيه إلى ناحية الجبل الأخضر، فالتقى بخراج أوجلة وافداً على حضرة أمير المؤمنين فأخذه، وأخذ خيل الجند الوافدين به.

فلما بلغ أمير المؤمنين ذلك توجه إلى لقائه. وكان هو توجه إلى الجبل الأخضر، وهاداه كبراء أهله وأعطوه مالاً وأخذ من لم يعطه ورجع. ولم يكن لأمير المؤمنين علم برجوعه ولا إقامته بالجبل، فلما نزل الزعفران من أرض سرت خرجت من الجند طائفة تتصيَّد، فالتقوا ببعض وراده وبعض قناص الصيد منه، فأخذوهم وأخبروا أمير المؤمنين بدار الأعراب، فارتحل من ليلته حتى صبحهم على حين غفلة فاستولى على أولادهم وحريمهم وقتل أخاه عبد النبي وفرّ عليّ بنفسه ولم ينج من إبلهم وأموالهم إلا ما قل، ووجد ببيته الخراج المأخوذ تاماً، ورجع منصوراً مظفراً، وكان ذلك أوائل ربيع الأول سنة (١١٢٨ هـ) ثمان وعشرين ومائة وألف.

[٣٦٢] ـ فلما قدم المدينة أنشد بعضهم بين يديه قصيدة وبذل له فيها كثيراً، وهي هذه:

هـذي جنـائـزهـم وذا فخـر الـورى ... بـالنصـر والفـوز المبيـن مبشـرا
قـل للجحـافـل يصبـروا أو ينفـروا ... فـاليـوم يـوم دمـائهـم متحـدرا
جـاء الصـلاحُ إلـى الفسـاد فكيـف لا ... يـذرُ الفسـادَ وأهلَـه تحـتَ الثـرى
إن الجحـافـل حـان وقـتُ وفـاتهـم ... ففنَـاؤهـم لا شـك فيـه ولا مـرا
وافاهم الدهرُ القوي ومَن سوى الد ... هـر القـوي علـى العـدوّ بـأقـدرا
فتـزلـزت بجمـوعهـم حـافـاتهـا ... تـركـت مقـدَّم جمعهـم متـأخـرا

واستسلمت طوعاً وكرهاً نحوه لما رأت ظفراً يقل مظفرا
لم تلق منهم غير من في كفه كأسُ المنون تُديرها أُسدُ الشرا
حافين حول لواء من في طيّه لمع يخيل عزرائيل مصورا
نسخت شعار صفاته ما كان من كسرى ومن إسكندر أو قيصرا
لا تسمعنْ لحديث ليث غيره فالصيد كل الصيد في جَوْف الفرا
أفنى جموعهم وخرب دُورهم فنُواحُ أهليهم غدا متكررا
فاسْتُسلبوا الأرواح حتف أنوفهم وكسى البقاع من الدماء معصفَرا
فالموت أنذرهم وبشّر أنه لا زال أحمد منذراً ومبشرا

[٣٦٣] ـ ولما استقر زين له على المكنّى التوجه لفزان وحَثّهُ على ذلك، فتوجه إليها حتى نزل على مرزك وحاصرها أياماً نحو العشرة، ثم قدم عليه خبر أزعجه، فارتحل عنها ورجع إلى المدينة أواخر سنة ثمان وعشرين ومائة وألف.

ثم راسله صاحب فزان مع خواص بلده وأرباب البيوت منها، وتلطف أن يقبل منه الخراج، فقبل منه إلى أن ظهر منه من قلة الأدب ما يوجب التوجه إليه فتوجه إليه بعد أن أخمد فتنة عليّ بن عبد الله بن عبد النبي بعد عوده لمثل ما كان عليه «بدريدر» ـ ماء مورود ـ وكان أخذه له على يد صاحب خيله أخيه الحاج شعبان باي، فوافاه ولم يخرجوا له من السور، وأقام عليها مدة قليلة، وأباح نهب بعض البلاد التي لم تجب دعوته كالقطرون ـ إقليم تحت ولاية صاحب فزان، كثير النخل والزراعة، يرده أهل كاوار ومن حوله من جفاة السودان، وأهل النوبة قليلاً ـ ثم رجع ولم يصب من مرزك ـ محل كرسي صاحب فزان ـ في تلك المرة، وكان ذلك في المحرم سنة (١١٣١ هـ) إحدى وثلاثين ومائة وألف. وكان كبير الجند الذين أرسلهم لنهب القطرون وأخذها إبراهيم الملقب الترياقي الكول أوغلي، فأصاب منها مالاً كثيراً اختصه لنفسه، ولم يعاتبه أمير المؤمنين على ذلك.

[٣٦٤] ـ فلما كانت سنة (١١٣٢ هـ) اثنتين وثلاثين ومائة وألف، خلع البيعة إبراهيم الترياقي وعلي بن خليل الأدغم وإبراهيم بليبلو وطائفة من جفاة الجند.

وكان سبب ذلك أن أمير المؤمنين وجه صاحب الخيل الحاج شعبان والياً على أهل برقة: بنغازي، ودرنة وبواديهما، وأرسل القائمين من الجند صحبته، وصحبهم مفتاح بن عبد الرحمن الأصفر: رجل يزعم علم الغيب، واعتقده أولاد الترك الذين

هم بمصراتة، اعتقاداً أفضى بهم إلى مقاربة دعوى النبوة فيه، بحيث إنه إذا قال قولاً وقالت الشريعة قولاً، اتبعوا قوله ونبذوا الشريعة وراء ظهورهم وهذه سنتهم في كل ناعق مضل يوافق هواهم ولو مجوسياً، إلا القليل منهم، أرشدهم الله للحق.

فلما صحب الوالي المذكور أساء الأدب معه ظناً منه أن له فيه من العقيدة كما للمذكورين، فبالغ في الإغضاء عليه إلى أن بطش ببعض أهل درنة وبعض من معه لأمر قيل فيهم، فبطش بهم من غير تروٍّ، فاجتمع عليّ والترياقي على المجذوب المذكور يستطلعون منه خبر الغيب، ثم خلعوا البيعة من هناك، وبايعوا إبراهيم الترياقي وعلي بن خلَيل الأدغم، على أن الأول ملك والثاني وزيره وكاهيته، ووافقهم من شاكلهم من الجند، ومن لم يشاكلهم لم يستطع دفعاً، فوافق ظاهراً.

وتوجهوا من برقة كلما مروا بقبيلة دعوها إلى البيعة فأجابت طوعاً أو كرهاً، إلى أن قربوا من تاورغة وبها يومئذٍ قائد وحسن أغا وكيلاً على قبض الخراج، فنهض لمسكهم علي بن خليل وإبراهيم بليبلو، فدخلوا البلد، وأظهروا بعض كبرائها على فعلهم، ومسكوا القائد وأخذوا فرسه وسلاحه، وتوجهوا إلى ابن علاّق وحسن نازل عنده، فلما دخلوا بيته أرادوا البطش بحسن، فحماه منهم ابن علاّق وتوجه فاراً إلى الحضرة، وفرَّ معهم من لم يرض بفعلهم ولا عقلهم، ودخلوا مصراتة، وتمت بها بيعة الكول أوغلية إلاَّ من فرَّ، وأرسلوا إلى المملوك الذي كان رتبه أمير المؤمنين ليقوم بوظائف القصر الذي بمرسا قصر أحمد ليحمي من بها من سفن العدو.

فأخذوا ما بيده من البارود والرصاص المعد لحماية بيضة الإسلام من النصارى، وأخذوا سلاحه وفرسه. وحضر عندهم من الدجاجلة المدعين علم الغيب خلق لا يحصون كثرة، وتقوى ظنهم في أنهم يمتلكون. وتوجهوا حتى نزلوا تاجوراء، وفر منهم حسن الصغير في شرذمة إلى الحضرة، وخرجت لهم خيل أمير المؤمنين فأخذت منهم شيئاً كثيراً، وعفا عمن أصابه منهم إلا القليل.

وتفرقوا في البوادي يحمون رؤوسهم، فكاتبهم بالأمان إلا رئيسي الثورة: عليّ ابن خليل والترياقي، فتوجه علي بن خليل إلى مصر، وبقي الترياقي بالأعراب يتقلب في البراري.

[٣٦٥] ـ فلما كانت سنة (١١٣٣ هـ) ثلاث وثلاثين ومائة وألف ـ ونحن يومئذٍ

بمصر بالجامع الأزهر ـ قدم كتاب من الحضرة بتأمين عليّ إن قدم تائباً، فشكرنا عفوه، وقدمنا على الحضرة. فلما نزلنا «التميمي» أحساء ماء عذب ببطن وادٍ يبعد عن درنة مسير يوم ـ أخبرنا أن محمداً الملقب «جانم خوجه» أتى مطروداً من الحضرة السلطانية الأحمدية، ونزل على بنغازي وبايعه كبراء الأعراب: عبد الله أبو طرطور الجبالي، وصالح بن سليمان، وسليم بن جليد بن موسى، وسائر كبراء أعراب الجبل وبرقة، ووافقهم أهل البلد. وكان صحبتنا في الركب الحاج علي الماعزي وعلي بن خليل، فوافينا جماعة من الجند كان أرسلهم أمير المؤمنين في بعض السفن فظفر بهم جانم خوجه، وكنا أردنا الإقامة بالجبل لزيارة رويفع بن ثابت بن السكن الأنصاري النجاري، صاحب رسول الله ﷺ. فلما وجدناه بها عجلنا إلى الحضرة، فأخذنا من وجدناه من جندها ورحلناهم وزودناهم ومعي الحاج علي الماعزي، وسرنا حتى انتهينا إلى «المنعم» ـ أحساء ماء عذب شرقي مدفع وادي الكبريت ـ فوافينا جند أمير المؤمنين به، وكبيره يومئذٍ إبراهيم تابعه متوجهاً إلى لقاء جانم خوجه ومن معه، وناول أميرَ الحج كتاباً من أمير المؤمنين بالتحجير على بيع الخيل لغير الجند، فناولنيه أمير الحاج فقرأته وشكرنا الله على العافية.

ونادى أمير الحاج في الناس من باع فرساً لغير الجند فلا يلومنَّ إلا نفسه، وكان بيدي فرس جيد وشى به بعض الناس عنده. فلما بلغني ذلك أرسلت به واحداً إليه، ففرح بذلك وردها عليَّ، وتعلل بأنها لو وافقته لأعطى أضعاف القيمة، وبالغ في الإكرام، وكان ذلك أواسط شعبان سنة (١١٣٣ هـ) ثلاث وثلاثين ومائة وألف.

[٣٦٦] ـ فلما نزلنا مصراتة أقمت بالأهل وبجوار الوالدة، وكانت صحبتي هدايا للحضرة فأرسلتها إليه، ووجهت كتاباً من عندي إلى الحضرة أعتذر عن المثول بين يديه، فشرفني بكتاب للعمال يتضمن احترام رعايتي وأعواني ومن لاذ بي من الطلبة. وحدد عن العمال فيمن قصد محلي من خائف إذا بلغ أرض كذا فلا يقرب ولا يمسك، جزاه الله عنا خيراً. فأقمت شهر رمضان بأهلي، وكان عامل البلد سن فيها قتل النخل وجعل فيها محلاً لبيعه، فبعثت إليه أن هذا لا يسعكم في دين الله ولا يسع أمير المؤمنين غداً بين يدي الله، وقرأت عليه كتاب أمير المؤمنين، وأفهمته ما تضمنه من تعظيم المحل وتوقير الطلبة، وأخبرته أن هذا لا يوافق. فأعرض عن الكتاب، فأرسلت إلى المخمِّرين وأعطيتهم ثمن ما اشتروا به النخل وتركوه، وقدمت

على الحضرة، فلما مثلت بين يديه وأخبرته بالواقع، أمر برفع يد العامل وولى غيره، فأقمنا بجواره في كرامة إلى أن دخل شهر ذي القعدة فاجتمع جماعة منهم أحمد المعروف بابن الرئيس وبعض بني علوان على خلع البيعة، واتعدوا على وقت معلوم، فهرب ابن الرئيس ومن معه، ودخلوا على الحاج شعبان وهو بمحله فقتلوه، وفشل موعدهم بالغدر بأمير المؤمنين، وشتت الله شملهم وأعاد كيدهم في نحرهم، فأخذوا وقتلوا. وفر ابن الرئيس إلى جبل المحاميد، واستقر أمر أمير المؤمنين بخير، وبقي ابن الرئيس مع أعراب المحاميد إلى سنة (١١٣٥ هـ) خمس وثلاثين ومائة وألف. فخرجت أعرابهم لأرض «سرت» وأخرجوا أهلها منها كرهاً، وأخذوا مواشيهم، وقد كان جعل صاحب الخيل إبراهيم موضع أخيه المقتول تداركه الله باللطف، فلحق بهم في أرض «سرت» فأخذهم وفرق جمعهم، وهرب ابن الرئيس فلحقه بعض الأعراب ومسكه وقدم به على الحضرة فقتل صبراً، كما تدين تدان.

[٣٦٧] ـ ونداه ـ أكرمه الله ووفقه ـ وحديث فضله سارت به الركبان شرقاً وغرباً، وقصده الشعراء والناس وامتدحوه. وأعطى عطاء يفوق عطاء مثله .اقصده محمد جركس، وأحمد بك الأعسر، وأحمد بك الصغير، وعمر بك لما أخرجوا من بلادهم فارين برؤوسهم فآمنهم وأكرم مثواهم، وبعث كاهيته حسن الأحمر للقائهم. وكان لما نزل الحاج بمصراتة ومعه محمد جركس التقيت به وأكرمت مثواه عملاً بحديث «راعوا عزيزاً ذل وغنياً افتقر»؛. ولما كان له من منة على سيدي علي الشينوي الطرابلسي ومجاوري البلد بالأزهر، فأسرّ إلى الحديث في شأن أمير المؤمنين ووفائه بالذمة، فأخبرته بما صدقه العيان، فشكر واطمأنت نفسه، فلما أصبح لقيه الكاهية بخيرات كثيرة وإنعام واسع، ولما قدم على الحضرة هيأ له عرصة أنيقة البناء واسعة الفناء، وأعد له فيها ما يليق بالهمة من فرش ومأكل ومشرب من العسل والسكر.

وبعث إليه وقر أربعة بغال لباساً من ثياب الملك والفراء الرفيعة. وأقام في جواره مدة، وانتقل إلى أرض الجزائر فلم يجد من صاحبها ما وجده من حضرة الأمير مع ماله عليهم من اليد، إذ هو جاء في خفارة ولد صاحبها، وكان قدم عليه صحبة الحاج حاجاً، ووجده متنعماً في بحبوحة الملك فأنعم عليه وأخذ بيده. ولما انقلب الحاج إلى مصر وجد أن الله قد أزال النعمة عنه، وفر عنهم إلى المغرب متمسكاً بأذياله. وكان قدومهم عليه سنة سبع وثلاثين ومائة وألف. وأقام أحمد الأعسر ومن

معه بجوار ابن أمير المؤمنين محمود بك صاحب ولاية بنغازي. في كرامة إلى أن قدم على الحضرة، فهيأ له من الأكل والشرب والمركب والملبس ما يليق بغرضه، وأعطاهم ما تشتهي أنفسهم زائداً عما أعد لهم، وأقام عليهم خدماً، وحنا عليهم حنو الوالدة على ولدها، بل أبلغ.

ولما بلغ السلطان أحمد أنهم مقيمون بحضرته أرسل رسولاً يأخذهم فأخفى أمرهم وهم ظاهرون. وبذل ملكه وماله دونهم حتى هيأ لهم ما يحتاجون إليه من خيل وإبل وسلاح ومأكل ومشرب ووجههم لأرضهم في جند صرف عليه من خزانته. وهذا شأنه وفقه الله تعالى إلى الخير وأعانه عليه ـ مع كل غريب حل بجواره.

[٣٦٨] ـ ولما حلت بجواره «خناثة» حرم أمير المؤمنين بأرض المغرب مولانا السيد إسماعيل في شعبان سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف، وابن ابنها مولانا أمير المؤمنين بالمغرب السيد عبد الله بن إسماعيل سنة خمس وأربعين ومائة وألف أكرم مثواها، وكفاها مدة إقامتها ما تحتاج إليه من مأكل، وأسكنها عرصة فسيحة وأقام من الخزانة كافة ما تحتاج إليه دوابها وخدمها. ولما ظعنت من عنده إلى الحج أعطاها خمسين بعيراً، وبعث لعماله في البلدان بالوقوف إليها فيما تحتاج إليه، فوقف كل على حسب مقامه وجرى بمجهوده، إلى أن خرجت من الطاعة ونعمه شاملة لها، وكذلك فعل بها لما قدمت سنة أربع وأربعين ومائة وألف.

[٣٦٩] ـ وأما علو همته لتأييد السنة فأمر أشهر من أن يذكر، فلقد كان الوطن قبل توليه ـ لشغل أهله بما دهمهم من الظلم وعدم مراعاة أهل الفضل والدين ـ في غفلة عن أمر الدين. ولما أراد الله ولايته، وراعى جانب الدين في ابتداء أمره نفر من أهل طاعته خلق كثير لطلب العلم، وتفرقوا في البلدان يطلبون العلم، فتفقه منهم خلق كثير وآبوا إليه، فأكرم مثواهم.

ـ الشيخ أبو عبد الله محمد بن مصطفى الماعزي

[٣٧٠] ـ فممّن نفر منهم وتفقه: الشيخ العالم أبو عبد الله محمد بن مصطفىٰ الماعزي الكول أوغلي، ارتحل إلى مصر ولقي بها الأفاضل وأخذ عنهم العلم، وتفقه في كل العلوم: نحو، وكلام، وحديث، وتفسير. وانتقل إلى مكة، ولقي بها الشيخ

أكرم الهندي وأخذ عنه، والشيخ أبا الحسن السندي وعدة أفاضل، وأخذ عنهم، وآب إلى وطنه فأكرمه أمير المؤمنين وأعانه على بناء زاويته بالمنشية، فبناها وهو في وقتنا يقيم بها لقراءة العلم، نفع الله به.

ـ الشيخ محمد بن محمد بن مقيل

[٣٧١] ـ وممن تفقه بها ولم تكن له رحلة عنها، أبو عبد الله الشيخ محمد بن محمد بن مقيل. تفقه بالشيخ عبد السلام بن عثمان، والشيخ أبي العباس أحمد بن ثابت، وأبي الحسن علي بن عبد الرحمن النجار، وجماعة من الوافدين عليها.

ـ الشيخ محمد بن أحمد المكنى

[٣٧٢] ـ وممن تفقه بها أبو عبد الله محمد بن أحمد المكّنى، نشأ بها وتولى الإفتاء بها بعد موت الشيخ محمد بن مقيل الأكبر.

ـ الشيخ أحمد بن محمد المكنى

[٣٧٣] ـ وممن تولى الإفتاء بها أيام تأليفنا هذا الكتاب، الفقيه أبو العباس أحمد بن محمد المكنى، ولم تكن له رحلة في طلب العلم ولا كثرة رواية، ونصّب لمكان البيت، وفقه الله للخير. وروى الفقه عن أبي الحسن علي بن الشاهد المالكي نزيل جربة. وأخذ عن الفقيه أبي عبد الله محمد المشهور بأبي حافر وغيرهما.

ـ الشيخ محمد بن عبد الحفيظ النعاس

[٣٧٤] ـ وممن تفقه بها أبو عبد الله محمد بن عبد الحفيظ النعاس التاجوري.

تفقه بشيخنا أبي عبد الله محمد بن يحيى، وبالشيخ عبد السلام بن عثمان وجماعة، وأقام بالمدرسة التاجورية إلى الآن. وله اعتناء زائد بنصرة المتفقّرة وأهل الطرائق، هداه الله تعالى ووفقه إلى الخير.

روى الفقه عن أبي الحسن علي بن الشاهد نزيل جربة المالكي، وأخذ عن

الفقيه أبي عبد الله محمد المشهور بأبي حافر وغيرهما.

ـ الشيخ سالم بن أحمد بن قنونو

[٣٧٥] ـ وممن تفقه في أيامه وارتحل لطلب العلم إلى حضرة مصر، الشيخ سالم بن أحمد بن قنونو الزليطني ولقي بها الأفاضل، وأخذ عنهم العلم وآب إلى بلده، فعمر بها مدرسة بإزاء منزله. وبالغ أمير المؤمنين في إكرامه ومراعاته حتى انتفع به الناس. وهو مقيم على السنة لا يترخص.

ـ الشيخ محمد بن عبد الله بن أحمد بن غلبون

[٣٧٦] ـ وممن تفقه بها ولم تكن له رحلة لطلب العلم عنها الفقيه الفهم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد بن غلبون، تفقه بالوافدين عليها، وأخذ عن أخيه أبي عبد الله محمد بن محمد بن مقيل، وأبي عبد الله محمد أبي حافر، وعن العالم الفقيه الأديب أبي محمد عبد العزيز بن عبد العزيز بن أحمد مروان، والفقيه أبي عبد الله محمد بن مصطفى الماعزي وجماعة، وكان ذلك في مدة أمير المؤمنين.

ـ الشيخ أبو عبد الله محمد بن العربي

[٣٧٧] ـ وممن تفقه في أيام أمير المؤمنين، وارتحل عن الوطن لطلب العلم، وخيم له بأرض مصر، وجال فيها والحرمين الشريفين، الفقيه الأديب العالم الشريف، أبو عبد الله محمد بن العربي بن محمد بن حمودة بن الصغير الهاشمي. ارتحل إلى مصر ولقي بها الأفاضل وأخذ عنهم، واشتغل بالعلوم وتفقه فيها كلها. وله باع واسع في الأدب ورقة ولطافة زائدة، وله القصائد المشهورة في البلاغة.

[٣٧٨] ـ فمن قصائده لما قدم الوطن، وقدم دار الملك وغمط بعضهم حقه قوله:

ألا هل ترى العينُ الألى قبل ودّعوا ... وهل سيلُ أجفاني التأرق والهمع
وهل تبلغاً نفسي الأمانيَّ بُرهة ... وهل يُسرج الأحلاكَ من ليلنا شمع
أو الموت أدنى من لُبانة قاصد ... يسامره جنحَ الدجى الشعرُ والدمع

بلىٰ إن دهري والع بتبددي | إلى الله أشكو من زمان به ولع
فمالي وللأفراح من بَعد جيرة | تقضّى بهم رشدي وأعوزني الجمع
لقد سئمت نفسي الحياة وطولَها | تساوى لدي القبرُ والسوق والربع
ولا سيما في منبر الجهل هذه | فكل سليم الذوق ضاق به الذرع
فلولا الأمير المرتضى لم يكن لها | سجيس الليالي في خواطرنا وقع

ولما بلغَ أمير المؤمنين تلهفه وضيق ذرعه بما قال، أمر بإعطائه بيتاً بتربة الأمير محمد باشا، فأعطيه ونزل به، وأقام بالمسجد يقرىء العلم، واشتغل عليه الناس، ونفع الله به آمين.

[٣٧٩] ـ وأنشأ حفظه الله يمدح أمير المؤمنين معللاً نفسه فقال:

لك الخير عرِّج بي على طَلل الربع | محطِّ المنى مَغنى الكمِّي المقنَّع
وكن خالعاً نعليك بين مرابع | مقدسة تبلُغْ مُناك وتُرفع
هناك المنى والعز حيث تقطعت | تمائمهُ والمجدُ منك بمسمَع
به صادحات الوُرْق تسجع في الضحى | تنادي هديلاً بين أدواح أجرع
يحاكينني إذ شط عني وليُهم | وقد خلفوا جمرَ الغَضابين أضلعي
وبت بليل نابِغيّ كأنني | ظعينةُ شُرَك فرخها وسط بلقع
وأحزان يعقوب تسربلت درعها | وحيك فراشي من سلالة أدمعي
وزهرُ رياض ماس بين جداول | بها الماء منسابٌ إلى كل ممرع
يحاكي جنا ورد نديّ بوَجنة | فباء بفضح في صدور ومشرع
فماذا عليهم لو أباحوا اجتناءَه | لمقلة صب مدمن السُّهد مصرع
وعيناه قد أعماهما كثرة البكا | فديمتها تهمي على كل مربع
تحاكي نوالا لاح من كف أحمد | يُقسِّمه ما بين كهل ومرضعَ
على الغيث شِبهٌ من نداه كأنما | يُمِدّ يداً فوق السحاب المرفع
ألا فاعجبوا من أربُع وملاعب | سحائب سيب منه ليس بمقِلع
فَلِمْ لا يكون الوَردُ موطىء أرجل | تجاورها من كل شهم سميدع
أديب أريب فاضل متعففٍ | نجيب حسيبِ عالي القدر أروع
أقول لأصحابي عليكم بأحمدٍ | أفاد فجاد بالحِباء المنوع
فكم أضحك المحزون من نقش رسمه | وأبكى جريئاً بالشكاسة مولع

أتيــتُ وجيــش الهــم جــرَّ خميسَــه فقهقــر جبنــاً مــن حســام مــروع
إليــك أبــا الأمــداد حنّــت مطيتــي وآمــالهــا سفــن وجسمــي بمــوضــع
لهــا منــك حــاجــاتٌ وفيــك فطــانــة سكــوتــي بهــا أولــى لكــم مــن تــوجّعــي
متــى تعلــم الأيــام والــدهــر مِـدحتــي لكــم تــرعــوي عنــي وتــرثــي وتخضــع

وله غيرها من القصائد، زاده الله تعالى نباهة ونفع به وبأصله، وأرشد أمير المؤمنين لمد النظر إليه، فإنه أولى الناس بنظره، وأحقهم به.

[٣٨٠] ـ وتفقه في أيامه خلق كثير ممن لم تكن لهم رحلة ولا كثرة رواية، واقتصرنا على ذكر المشاهير منهم، وكلهم مراعَوْن لديه مكرمون.

فإن قلت: هذا أبو محمد عبد العزيز بن عبد العزيز مروان من أجل الطلبة وأعلاهم سنداً في العلم، ومنزلة في النسب، قد حل به منه ما حل. قلت: هو منه في سعة على ما ثبت من الطلبة فيه، فما أخذه إلا بما جنته يده بشهادة العدول، وهبه أنه لم يكن:

كفــى المــرء نبــلاً أن تعــد معــايبــه

ومن مراعاته لجناب العلم الذي به حفظ مباني الشريعة، جمعه العلماء بين يديه لفصل الخصومة، وتصريحه لهم بالمجلس: احكموا بحكم الله ولو عليّ، وقبول شفاعتهم فيما شفعوا فيه في غالب الأمر.

[٣٨١] ـ فقد وقع لكاتب هذا معه عدة وقائع شفعه فيها، منها: أنه أرسل ـ أكرمه الله ـ سنة (١١٣٦ هـ) ست وثلاثين ومائة وألف في الخريف يطالب أرباب البيوت والمحرَّرين من وظيف المخزن بشيء من القمح على يد العمال، فأتاه عامل مصراتة بعد ما وظف على كل من أهل البيوت ما يخصه من تلك الطلبة، وكان ممن كتبه بطلبة بعض أقاربي، فلما ناوله التوظيف: فإذا فيه بنو غلبون بكذا، فأمره ـ أكرمه الله وأعزه ـ بمحو ذلك. وكان العامل شرس الأخلاق بليد الطبع، فقال: غيرهم من أهل البيوت مثلهم، فأمر بتنقيص الطلبة مراعاة لجانبي ومكانتهم، فقال: إن اعتقدتم أن لهم بمحمد قرابة فليس لهم به قرابة، وإنما يجمعهم نسب بعيد، فقال: هم قوم حررناهم إكراماً لفلان وكان له غرض في تغريمهم فقال: ياسيدي إن لم يعطوا ارتفعت الطلبة عن غيرهم وأتوكم، فما زال يردد ذلك عليه وهو ـ أكرمه الله ـ يلين

لكثرة المراجعة حتى خفف الطلبة، ونبه على احترام الكاتب وإخوته، فألقى له العامل: إن فلاناً يأتي شافعاً، وما زال يردد ذلك حتى صدر منه أمر لا يقبل شفاعتي ثم قدم العامل البلد. ولما قدم إلينا أرسل إليَّ رسولاً يطالب بتلك الطلبة، فأخبرت الرسول بأني أحضر إليه في غد، وأنا قادم على حضرة أمير المؤمنين إن شاء الله. فلما حضرت عنده وأنا على أهبة السفر، خاطبني بأني أرسلت إليك لتحضر لي طلبة أمير المؤمنين في ملأ من الناس؛ فأخذته لأختلي به، فكأني ـ من شراسة أخلاقه ـ أرسلت عليه أفعى فأغلظ في القول وقال: إنه لا يترك شيئاً، ولا بد له من ذلك، وكانت له عليّ ضغينة.

وذلك أن أهل الذمة الذين بمصراتة أرادوا إحداث كنيسة، فبلّغني بعض الطلبة ذلك، وكان العامل بالبلد يومئذٍ غيره، فحضرت عنده وبالغ في التلطف معنا والإحسان جزاه الله خيراً، وأخبرته بما فعل أهل الذمة من إحداث كنيسة في بلاد الإسلام، فأجاب إن خبرها معه، فقلت: كيف يسعكم في دين الله وأنتم نواب أمير المؤمنين أن تحدث كنيسة في أرض أخذها المسلمون عنوة من يد من ليس بها الآن من العدو، وهم طارئون عليها؟ فالإجماع منعقد على عدم إحداثها، بل بهدم كنيستهم التي زعموا قدمها، قال فكنت متوقفاً بحيث إذا أسمعتموني ذلك أتولى هدمها بنفسي، فهدمها وهدم الأصلية التي زيدت هذه عليها. فرفع اليهود أمرهم إلى أمير المؤمنين وأخبروه أن الموقع بهم هذه ابن غلبون. فسأل أبا محمد عبد العزيز مروان عن حكم الله فيها ومن حضره من العلماء، فأفتوه بالمنع، فأعرض عنهم، فراسلوا بعض من ينسب إلى العلم من أهل تاجوراء، فأفتوه بجواز ترميم ما وهي من كنيسة الصلح، فاستغاثوا ببعض الحاشية، ومنهم العامل المذكور، وراجعوا أمير المؤمنين وأطلعوه على النص وهو غير عالم بالفروع، فكتب للعامل بعدم منعهم ببنائها، وأرسل بذلك رسولاً وحرضه الشافعون لهم بالوقوف هنالك حتى تبنى، فلما حضر الكاتب بين يدي العامل وهو «عليّ» الملقب «شمار» لم يجد بداً من موافقة الأمر، فبنوها. فلما قاربوا الإتمام رجع رسول السلطان إلى الحضرة، فانتدب لتخريبها طائفة من أولاد الجند الذين بمصراتة، فأخربوها ليلاً وأصبحت رميماً.

فلما أخبر بذلك أمير المؤمنين سأل عن الحكم فيها فأفتاه أبو عبد الله محمد بن محمد بن مقيل، وأبو محمد عبد العزيز مروان بالمنع، فوشى الشافعون بي، وأن هذا

من فلان، فلم يلتفت. أكرمه الله تعالى ـ لقولهم فاضطغنها العامل عليّ إلى أن جاءت تلك الطِلبة فيمن تعلق بي، فظن أنه يطفىء بها ما يجد من حرارة هدم كنيسة أحدثت في دار الإسلام.

فخاطبني بالغلظة فلما رأيت منه ذلك أعرضت عن محاورته وسألته كتاب أمير المؤمنين، فإذا هو يتضمن إحترامي والنهي عن دنو ساحتي؛ فركبت فرسي ونهضت من عنده إلى الحضرة العلية.

فلما مثلت بين يديه أنشدته أبياتاً فقلت:

سيدي نصرةَ الضعيف وغوث — للفقير إذا الظلومُ قلاه
أحمد بيتك المكرم عز — كيف يخشى العَناء مَن يغشاه
رحمةً يرتجي نوائلَ فضل — من يمينك من أراد غناه
ناظمُ القول جارُكم ومحب — قد أناط ببابكم رَجواه
يرتجي نُصرة وغَرفَة فضل — من نوال وأن تكفّوا عِداه
خادم العلم في جناب الأميرِ — منه دوماً بدعوة ما نساه
تقتضي رفعةً وشامخَ عز — في هناء وأن ينال مناه
ابن غلبون قد أتى من بعيد — زائراً حسنُ ظنه قد دعاه
أن يكون شفيعَ قوم إليه — نُسبوا دِنْية ومنهم ولاه
قد أتاهم حديثُ غِرّ مريد — منهم بعض طلبة ورواه
قائداً ليته يكون رفيقاً — بالفقير وربنا قد هداه
وقت عدم لما أردتم وأنتم — نيل جود وفيضكم نرجاه

[٣٨٢] ـ فلما أنشدته الأبيات قال: قد شفعناكم وقبلنا شكواكم، وأمر بكتاب للعامل برفع يده إن لم يأخذ، وبالرد إن أخذ، فوافاه الكتاب وقد أخذ البعض فرده من بيته. وأمر بالإقامة بجواره، فأقمنا بجواره في كرامة وجبر زائد، وأمرني بحضور المجلس مع العلماء لفضّ الخصام بحضرته أياماً، فلم أجد فيه أنصف منه. ثم خرج إلى التنزه في رياض الربيع، فلما جئته للوداع أشار بالحضور معه، فبقينا بعده في البلد ثلاث ليال، ثم خرجنا وصحبتنا أخونا الفقيه الأديب أبو عبد الله محمد بن عبد الله غلبون، وأخونا أبو محمد عبد العزيز بن عبد العزيز مروان[١] والأديب محمود ابن قاسم الحناش، فوافيناه عشية بوادي المجينين في متنزه أنيق ورياض نضرة، فلما

رآنا ظهر السرور على وجهه وبالغ في السؤال عن الحال وأخبرنا أنه رأى بضحى ذلك اليوم أن قائلاً قال له: أنت تلام على عدم حضور العلماء معكم وقت خروجكم، وها هو ابن غلبون قدم عليكم، وخيرنا في النزول ففوضنا الأمر إليه، فاختار لنا فسطاط كاتبه الأديب الأريب البليغ الفاضل صاحب قلمه الكاتب «قاسم بن أحمد بن رمزون» وأمر لنا بفرش وغطاة، وأقمنا بجواره في كرامة أربعة عشر يوماً لا يحضره طعام إلا أحضرنا وآنسنا عليه، ويخاطبنا بما يزيل الاحتشام، ولا يرفع يده إلا بعد تحقق كفايتنا وربما عزم على من يراه منا محتشماً. فجزاه الله خيراً، ما أرق خلائقه، وألطف شمائله.

ثم لما عزم على الرجوع إلى دار المملكة أحضرني وقال: قد فرضنا لكم في العطاء، ففرض لي ولابن عمي فيه، تقبل الله عمله، وأحضره له متقبلاً ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾.

[٣٨٣] - ومن شمائله الكريمة التي بها تأيدت السنة، ما فعله معي لما نزلت ببلدنا سحائب، هي فرع سحائب عاد - لا أعاد الله مثلها - في صفر سنة تسع وثلاثين ومائة وألف أخربت البيوت، وأهلكت المواشي، ومما هدمته زاويتنا التي بنيناها في أيامه السعيدة لقراءة العلم ودرس السنة، ومسجد محمود خازن دار الذي ابتناه بقريتنا وجعل نظره لبني غلبون، وعظمت عليّ كلفة البناء، فتوجهت إلى الحضرة العلية وأخبرته بما فعلت الأيام بنا، فأزال عني جورها، وأمدني بما سددت به ما دثر منها، أعانه الله على ما أولاه.

ومثل هذا ما فعل مع أبي الحسن علي بن عبد الصادق لمّا هدَّ السيل زاويته التي بساحل آل حامد. وكم له من مكرمة من هذا القبيل، وفقه الله وأعانه.

وأما حلمه: فهو أحنف وقته، لم ينقل عنه عدو ولا صديق أنه أظهر غضباً قط، ولو رأى أو سمع كل المغضبات.

وأما حياؤه: فحدث عن البحر ولا حرج، حتى أفضى به إلى أنه يبرم الأمر، فإذا رأى المبرم عليه، استحيى ونقض ما أبرم، فرماه من لم يطلع على أخلاقه الكريمة بعدم الوفاء بالعهد، وقطع بأن ذلك سليقة لا لموجب. ولو علم أخلاقه لما ظن ذلك ولا توهمه.

[٣٨٤]ـ وأما تأييده للإسلام، فأمر يشهد به عمله: من ذلك وقفه على سور البلد أوقافاً كثيرة يفوق ريعها في العام على ألف وخمسمائة أو أقل بقليل. وإجراؤه الماء للمدينة لنفع أهلها على حنايا لم يسبق بها، وإيقافه عليها ما يقوم بها. ومن ذلك السوق الجديد الذي بإزاء خندق القصبة من جهة الشمال، وهو سوق فسيح الفناء، أنيق المنظر والمبنى، وكان بناؤه سنة ست وثلاثين ومائة وألف. وبنى بالقلعة بيوتاً ومقاصير أنيقة، وجدد ما وهي منها وقد كانت قبله خراباً. وهو الذي جدد الباب للخندق الغربي الكائن بين سوق الخضرة والحدادين. وبنى المخازن التي على يمين وشمال الداخل منه إلى القلعة. وبنى الحاجز بين القلعة ومجلس قائد الخندق، حتى منع الداخل لغير حاجة. وبنى «الفسقية» لسقي أهل السفن على ساحل البحر التي لحق نفعها المسلم وغيره من غير تعب. وبنى الحوامل التي على يمين داخل القلعة من الباب الموصوف الملصقة بسور المدينة المفتوحة تجاه القلعة، وغير ذلك من مهام المسلمين.

وكل هذا مع ضيق يده وكثرة شكاة الفقراء إليه، فتجده في مراعاة المصالح يشتد في جباية الخراج وربما استعجله، فرماه من لم يدر حاله بالجور، أعانه الله ووفقه.

[٣٨٥]ـ ومن شدة حلمه تجرأ العمال على الرعية فيزيدون شيئاً عليهم لم يدر بِهِ،وتأتيه الرعية فيقبل قولهم، فيستشفع العمال بمن يليه فيحلم عليهم، فيظن غير الخبير بأحواله أنه راضٍ. وقد شاهدته مراراً يصرح بأن الرعية ثقل عليها المغرم، وأنه لم يجد سبيلاً لرفعه عنهم للحاجة. فقلت إن ذلك من جور العمال وإدراجهم في الضرائب ما لم يكن لازماً، فيقول: السلطان لا بد له منهم، وهم كدعائم البيت جزء منه، ويتعلل بالحياء وهو كما قال، لما شاهدناه من حيائه. وقد كان أرسل كاهيته (حسن الأحمر) في شعبان يطلب من العمال شيئاً يستعين به على مصلحته، فلما حل ببلدنا يطلب عاملها في ذلك وهو إذ ذاك (سالم بن خليل الأدغم) تعلل له بضيق اليد، وأنه لم تقم به أجرة عمله المفروضة له على الرعية، واستشاره في أن يأخذ ذلك من المحرَّرين من الوظائف المخزنية ففوض له الأمر، فأول من قصده بالسوء جماعتي وأهل حمايتي لمنافاة طبعه طبع بني آدم، لما عليه أصحابنا من مداومة طلب العلم، ولما كان يسمعه مني من النصيحة حين اجتماعي به من جهة السرف في

الخراج فيخيل لمن ذهب تمييزه، أن ذلك مني بغضاً له. فكتب على لسان الكاهية وأرسل لهم يطلبهم، وأمر رسوله أن يأتيني، فوافاني أقرىء الدرس عشية وأنا بالمسجد، فدخل يتخلل الطلبة حتى انتهى إلي فناولني كتاباً فيه خطاب عام، فقلت له غيري المخاطب، فقال أمرني سالم أن أدفعه إليكم على أي حالة كنتم، فلاطفته إلى أن توجه وقفوت أثره حتى أتيت الكاهية وقت صلاة المغرب فوجدته بخباء معد له خارج بيت العامل، فحييته فحيانا كعادته، وأحضر طعاماً بين يدي الكاهية فدعاني إليه، فجلست بإزائه حتى تناول الطعام، ثم سألته عن الطلبة أهي من أمير المؤمنين لخصوص هؤلاء القوم؟ فقال: إن أمير المؤمنين لم يعين أحداً وإنما أرسل يطلب العامل بذلك وهو الذي عين، فاستشفعت عند الكاهية فشفعني، ودعا بالعامل وقال: إنا قد شفعنا فلاناً في من انتمى إليه، فقال لا بد منه، فأجابه الكاهية: إنا شفعناه. فعربد في كلامه على مقتضى طبعه. فأمرني الكاهية بالمسير إلى أهلي وقبل الشفاعة، واصبح عازماً على الذهاب إلى بادية تاورغاء ليقتضي من عمالهم مطلوبه. فلما مضى وجه إليَّ كتاباً آخر على لسان الكاهية، ومكنه من رسول لا يفقه قولاً، وتهدده إن لم يغلظ لي في القول، فحضرني وأنا أقرىء درس الفقه بعد أن انتهيت من تفسير آية كنت أقدمها أمام الدرس للتبرك بكتاب الله، فتخلل الحلقة بغلظة وناولني الكتاب، فلما قرأته فإذا هو مزور على الكاهية، فعلمت أنها من العامل لشراسة أخلاقه وغلظة طبعه لما يعلم من غيرتي على حلق العلم فيغيظني بذلك، فأغلظ في القول، فنهرته فانتهر، وركب، وركبت متوجهاً لأمير المؤمنين، فمررت بالكاهية وأعدت له الخبر. ولما رأني متوجهاً إلى الحضرة أخذ بيدي وعاب العامل، وأحضر عنده الرسول وعابه وكلمه بلسانهم وأنا لا أفهمه وقال له: إنه احتقر الترك وحط منهم، فخدمني بكتاب للقائد أرسله إليه بعدم مطالبته من انتمى إلى فلان بشيء، وإن فعلت فلا تلومن إلا نفسك، واضطغنها علي حتى قدم على القائد واغتررت بجوابه وملاطفته فاتفق أن أعلم القائد أمير المؤمنين بأني ضربت رسوله، واهتضمت جنابه بملأ من الرعية لأحقره في أعينهم، ويكون الكاهية شاهداً بذلك. فلما بلغ أمير المؤمنين ذلك ظن صدقهم، فبعث يطلب من انتمى إليّ بمبلغ من المال، ونبه في الكتاب على عدم قرب خدمي وإخوتي ومن اختص بنا، فركب وهو مخمور وحضرني قبل أن أدخل حلقة الدرس، فاستوقفني وأخبرني الخبر، فسألت: من أمير المؤمنين أم منكم؟ فقال: من أمير المؤمنين، فأجبت بالسمع والطاعة لما أراد بقتل أو غيره، فقال بمال،

فقلت عامة ما علينا نعمه ناولني الكتاب، فناولنيه، فلما قرأته فإذا فيه التحريض على عدم قرب ساحتي، فشكرت الله وأثنيت على أمير المؤمنين، وعلمت أنها خدعة موجبها تصديق أمير المؤمنين كاهيته حتى أوقع بحاشيتي، وخاطبت العامل بلطيف القول. فلما سمع من القول ما نافى طبعه، ظن أني قلت له شراً، فاخترط سيفه وضربني، فحماني الله من شره، ودفعت له الطلبة وتوجهت إلى الحضرة.

فلما قدمتها منعت الدخول يوماً وحجبت عنها وعزمت على الانتقال، ثم أتاني منه جواب لطيف وردَّ عليّ ما دفعته عن حاشيتي وأمر بدخولي فحضرت بين يديه، فلما شاهدته رأيت ماء الحياء يرشح من جبينه وتلطف واعتذر مما حل بي من الروع، فكان من جوابه: فمنِ يومٍ أن حللتم بجواري هل رأيتم مني ما تكرهون؟ ألم أزدكم احتراماً على ما لبيتكم من الإحترام قديماً؟ ألم أفرض لكم من العطاء؟ ألم أحرم زاويتكم على من يقصدها؟ ألم أترك لكم وظيفَ ما تأخذونه من الأملاك الموظفة من أهل الخراج! وردد عليَّ من نعمه مالا أستطيع أن أقابله إلا بدعاء الله بمكافأته.

[٣٨٦] ـ فلما استتم ذلك أقررت له إقرار معترف، فرأيت منه ـ أكرمه الله ـ أن تعدادها لا لمنة، وإنما هو ليشكر فيزيد. فلما اعترفت بها زاد في الإنعام ووعد بالزيادة في العطاء، وعمل بمقتضى الأبيات التي كنت أنشدتها حين توجهي إليه وهي هذه:

جئناك للفضل فاسمح يا أخاه ولا ... تدع من الفضل شيئاً للذي جاكا
هذا ابن غلبون مَن عودته كرماً ... لدفع حادثة قد جاء يرجاكا
حلت به من عديم الذوق يحسبه ... من لم يخالطْه إنساناً ولا ذاكا
خاطبتُه بكتاب فيه مطلب ما ... ألفاظه عذبة شيبت بمعناكا
وقلتُ إن الذي للعلم نسبته ... ومن يليه فلا تطاه خُفَّاكا
فخالفَ الأمر فيه بالأداء له ... وأنتَ تعلم من يؤذيه آذاكا
تريد إعزازه وهو يريد له ... ذُلاً فحينئذٍ في الملك ضاهاكا
بل استقلّ به، لو كان شارككم ... لكان في بعض ما قد قلتَ راعاكا
إن تكفناه كفاك الله شر لظى ... وكان في جنة الفردوس مأواكا

فلما بلغته الأبيات، رفع يده عن العمل وأكرم مثوانا. وهذا العامل وأضرابه في الشكل والعقل إحدى المعائب التي يعدها العقلاء على أمير المؤمنين، لما يشاهدون

من جماله ولطيف شمائله وسليم طبعه، وزائد دهائه. وهم على الضد من ذلك: من جفاء طبع، ومنكر فعل، وعدم تمييز فيما يصدر من لفظ، وعدم دراية بالسياسة، كأنهم أصل البداوة ومنهم تفرعت، وما دروا أنه لا يقدمهم اختياراً ولكن لغلبة الحياء عليه،وتصلبهم واستشفاعهم بمن لا يسعه رد شفاعته من نديم أو وزير، فيوليهم رعياً للغير وهو مضطر، ولو خلى ونفسه لتنزه عن النظر إليهم فضلاً عن خطابهم، أو يضغي إليهم بإذن، أو يلون عمله. ﴿**والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾.

[لطيفة]

[٣٨٧] ـ حكي أن المأمون خلا مجلسه يوماً من الشاكين وأرباب الحوائج فدخل من دسكرة كان مختلياً بها فوجد بعض الناس ممن يتصفون بالكتابة فنظر إلى صورة مهولة المنظر، فاستنطقه فلحن فأمر بإخراجه، فتلطف إليه بالشفاعة فيه فقال: من أدخل هذا دار الملك قصد تكثير معايبنا. روح الحياء إن ظهرت كانت جمالاً، وإن خفيت كانت أدباً، وهذا لا أدب ولا جمال، فأخرجوه ولام مدخله لوماً شديداً.

[٣٨٨] ـ وكم له من فضائل أبقاه الله تعالى موفقاً، وأرشده لمعائبه بتداركها بالحسنات آمين.

فمن فضائله الدالة على تأييد السنة، ما فعله مع رجل شريف مرعشي منتسب للعلم وفد عليه صفر الكف، فلما حل بجواره كفاه مؤنته، وأقام في كفالته إلى أن فارق حضرته، فوصله بخمس مماليك ومائة دينار.

وما فعله مع الفقهاء العلماء: أبي الحسن علي المكناسي، وأبي العباس أحمد ابن الصغير وأخيه أبي عبد الله محمد المكناسيين، لما قدموا عليه صفر الأكف فرض لهم في العطاء، وأقام لهم ما يحتاجون إليه من قمح ولحم وأدام حتى غدت أيديهم ملأى بالمال.

وله السياسة الفائقة على سياسة كسرى، فلذلك طالت أيامه، وساد ذكره، حتى صار جداً في الملك.

وله أولاد أنجاد ثلاثة: الأمير محمود باي صاحب ولاية برقة، والأمير يوسف باي صاحب الخيل بين يدي أبيه، والأمير محمد باشا.

مـن تلـق منهـم تقـل لاقيـت سيـدهـم	مثـل النجـوم التـي يهـدي بهـا السـاري

وفقهم الله وأرشدهم، لهم زائد لطف ورقة وشدة تواضع، لم يؤثر عنهم تجبر ولا غلظة مقتفون أثر والدهم، أقر الله عينه بهم، وخلد ملكهم، وجعل منهم للإسلام خلفاً موفقاً آمين.

وأما حسن صحبته لعبيده وحاشيته، فهو في الغاية التي لم تؤثر عن ملك سوى القليل، كالمعز بن باديس ومحمود بن زنكي، ومع هذا إذا كان لأحد قبلهم حق شرعي ألزمهم الوقوف معه للشريعة، فإذا لزمهم الحق أدوه. ولو تتبعنا فضائله لعجز القلم عن الحصر.

[٣٨٩] ـ قال الناظم:

فــلا تهــج أُمًّــا للثغــور حنــونــة	كفــاهــا مــديحــاً عــدكــم هفــواتهــا

الألف واللام في الثغور للعهد، والمعهود هنا ثغور المغرب. وأمو منها لها من حيث إنها أول ثغر فتح فيه بلا خلاف بين المؤرخين، ومنها افتتحت ثغوره فهي الأصل. وحنانها من حيث جمعها من أمور المعاش مالم يجمعه غيرها، فقد جمعت النخل والزيتون والتين والكرم والحرث فلا يشتد على أهلها قحط، بخلاف غيرها من بلاد المغرب [وما ذكرناه من أنواع الشجر] قائم لأهلها مقام النيل من حيث الوثوق بخصبه بل هو أقوى.

ويكفــي أهــاليهــا مــن الفضــل أنهــا	ربــاط لمــن قــد قــام فــي حُجُــراتهــا

وفيما ذكرناه كفاية والله ولي التوفيق، وهو المؤمل في إتمام النعمة عليه، والختم له بالسعادة والله على كل شيء قدير.

فهرس الشعر

[تاريخ ابن غلبون]

تاهت عقول الورى من هول وحشته	فأصبح مثل مجنون ومسحور	١٧٩
أتيأس من يوم يناقص أمسه	وشهب الدراري في البروج تدور	١٣٣
من بات بعدك في ملك يسر به	فإنما بات بالأحلام مغرورا	١٣١
فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا	فساءك العيد في أغمات مأسورا	١٣١
فمن كئيب وملهوف ومن دنف	عان بسلسلة الأحزان مأسور	١٧٩
تقطعت قطعاً منه القلوب فلا	يكاد يوجد قلب غير مكسور	١٧٩
تهدمت بقعة الدنيا لوقعتها	وانهد ما كان من دور ومن سور	١٧٩
وراية رفعت للمجد خافقة	تجري على علم بالنصر منشور	١٧٩
حافين حول لواء من في طيه	لمع يخيل عزرائيل مصورا	٣٦٢
وما في صحيح العتب من خالص الوفا	فسيان فيه غيبة وحضور	٣٣١
أصاب منها الورى دهى وداهية	وذاق منها البرايا صعقة الطور	١٧٩
لا خد إلا تشكي الجدب ظاهره	وليس إلا مع الأنفاس ممطوراً	١٣١
يعنفني فيها لجاج ونحوة	وبعت بها العين الصحيحة بالعور	٢٥٣
يطأن في الطين والأقدام حافية	كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا	١٣١
فيا له من حديث موحش نكر	يعافه السمع مكروه ومنفور	١٧٩
أصوت صاعقة أم نفخة الصور	والأرض قد ملئت من نقر ناقور	١٧٩
لقد أصبحت بيض الطلا في غمودها	إناثاً لترك الضرب وهي ذكور	١٣٣
إليك النزر من كف الأسير	فإن تقبل تكن عين الشكور	١٣٢
له وقائع في الأكناف شائعة	أخباره وجدت في كل طامور	١٧٩
أم ذاك نعى سليمان الزمان ومن	قضت أوامره في كل مأمور	١٧٩
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلاً	فردك الدهر منهياً ومأمورا	١٣١
وقى ومن ملأ الدنيا مهابتهُ	وسخرت كل جبار وتيجور	١٧٩
ولما رحلتم بالندى في أكفكم	وقلقل رضوى منكم وثبير	١٣٣
جرى لك جد بالكرام عثور	وجار زمان كنت منه تجير	١٣٣
برزن نحوك للتسليم خاشعة	أبصارهن حسيرات مكاسيرا	١٣١
رفعت لساني بالقيامة قد دنت	ألا فانظروا كيف الجبال تسير	١٣٣
وإني أسير إن أسير مسلماً	عليكم على وجهي وذاك يسير	٣٣١
كتبت ولولا الحكم كنت إليكم	من الشوق في متن الرياح أطير	٣٣١
تقبل ما يذوب له حياء	وإن عذرته حالات الفقير	١٣٢

فهرس الأماكن والبقاع

فهرس القبائل والأمم والفرق

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الياء

فهرس الأعلام

فهرس الموضوعات